علي الشابي

عرفة الشابي

رائد النضال القومي في العهد الحفصي

الدار العربية للكتاب

تونس - ليبيا - 1982



تقديـــم

لقد شغل سيدي عرفـة الشابي عصره ومـلأ المسامع في المغـرب والمشرق الاسلاميين وفي بلاد الغرب المسيحي : سعة في العلم وعرامة في التصوف ، وحـدة في الاحساس بتاريخ افريقيـة وقيمها ، ومنافحـة للمحتلين الاسبان والأتـراك على حـد سواء . كل هذه تآلفت في تكويـن شخصيته لتجعل منه بطل القومية في افريقية التونسية في القرن السادس عشر الميـلادي .

ان قيمته تتبدى في أنه هو الذي أقحم القبائل التونسية في سياق التاريخ ، وأتاح لها أن تلعب دورا نشيطـا في صياغة الأحداث بافريقيـة بعد أن ظلت طيلة خمسة قـرون بمنـأى عن هذا السيـاق ، إتعيش على الهامش وتمتهن الفوضى . لقد ظفرت بهويتها القومية على يد سيدي عرفة الذي شحذ فيها الاحساس المشترك بوحـدة التاريخ والوطن والقيم في وقت اختلطت فيه السبـل وبـدا فيه للمسلمـين أن الخضوع للعثمانيـين الأتراك هو من الدين ، وأن الوفاء لاحتلالهم هو الوفاء للاسلام نفسه . كان سيدي عرفـة مؤمنـا بأن سيادة افريقيـة العربية المسلمة لن تتحقق الا على أيدي أبنائها ممن أشربوا حبها وأخلصوا لخصوصيتها ووحد بينهم شعور بمـاض مشتـرك وقيم مشتركـة . وقـد وصل الى هذا نتيجـة لتحليله واقع المسلمـين في عصره في مختلف أقطـارهم وبخاصة واقع الخلافة العثمانية ، وهو واقع يموج بالخيبات والهزائم ويزدحم بالتخاذل والتخلي . لقد سقطت غرناطـة آخر قلعـة اسلامية في الأندلس سنـة (1492\898) فلم تنجد الدولة العثمانية أهلها الذين استنجدوا بها وآثرت أن تتخلى عنهم . ان هذا الموقف فطن سيدي عرفة الى هول ما يجري في

البلاد الاسلامية والى المخاطر التي أصبحت محدقة بافريقية من جراء سقوط غرناطة وجعله يدرك أن الاعتماد على الأتراك وهم لا غناء فيه .

وقد وجد الحل البديل في الاعتصام بالخصوصية التونسية فربى القبائل تربية دينية وطنية وأيقظ احساسها القومي ، ولقنها أن الهدف من دعوته هو الاطاحة بالحفصيين والاسبان والعثمانيين والحفاظ على استقلال البلاد .

لكأني بمحبة سيدي عرفة لتونس حتى الوله وتأجج وطنيته واعتزازه بهذه التربة الزكية قد سرت في أوصال بنيه فصدر عنها تاسع حفيد له في سلسلة أحفاده على التوالي الشاعر أبو القاسم الشابي في قوله :

انا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سبحت أي سباحة
شرعتي حبك العميق واني قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي وان أريقت دمائي فدماء العشاق دوما مباحه

ان هذا الكتاب يؤرخ لسيدي عرفة بطل القومية في عهده في البلاد العربية كما يؤرخ لدولته التي أقامها على أساس قومي دعامتاه العروبة والاسلام . وان ما يلحظ من حدة في الشعور بالوطنية لدى التونسيين بعد انهيار الدولة الشابية على أيدي الأتراك ليرجع الى تجذر هذه التجربة القومية الرائدة في قلوب التونسيين وتغلغلها في الأعماق .

نرجو الله أن يوفقنا ويكلأنا برعايته وعونه ، انه هو السميع المجيب .

رادس (تونس) ، 5\1\1982 .

علي الشابي

وصف المصادر والمراجع

خصصنا هذا الكتاب لدراسة حياة سيدي عرفة الشابّي (1473/878–1542/949) وجهاده الوطني في فترة عصيبة احتد فيها الصراع بين عملاقي البحر الأبيض المتوسط (العثمانيين والإسبان) بقصد السيطرة على السواحل والمدن الإفريقية. لقد وُفّق سيدي عرفة في كبح جماح القبائل الإفريقية بتربيته وإرشاده بعد طول تمرّدها ، فوحّدها بعد تشتت ووقف بها على هُويتها بعد قرون من التردد والتيه، واتخذ منها قوة قومية حاربت الحسن الحفصي والإسبان والعثمانيين جميعا لتخليص إفريقية من الاحتلال والانحلال، فأذاقهم مرّ الهزائم،وبذلك أودى سيدي عرفة بخيانة الحسن الحفصي وصلف الصليب وأطماع الخلافة.

هذا هو الجانب الذي درسناه لم نَتَعدّه إلى غيره، وقد كفانا الأستاذ Ch. Monchicourt مؤونة البحث في نظم الإمارة الشابّية بمؤلفه الذي ما يزال المرجع الأصلي لها وهو Kairouan et les Chabbia الذي طبع في تونس سنة 1939.

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المصادر والمراجع التالية :

1 ـ المصادر، وهي على ضربين :

أ) الوثائق الأروبية (الإسبانية والإيطالية)، وهي بدورها على ضربين:

*) **الرسائل والتقارير التي كان يرسلها قادة الجيش الإسباني إلى شارل الخامس** وبها أخبار عن الوضعية العسكرية وأحوال البلاد والصراع بين الحسن وسيدي عرفة وحركة القبائل الإفريقية ودورها في الحروب التي دارت في إفريقية ، وبها تفاصيل دقيقة عن شدة تعلق أغلب القبائل الإفريقية بسيدي عرفة وعن إمكاناته المادية التي وفرت له تكوين جيش منظم هزم به الحسن والإسبان والأتراك، ويوجد أغلب هذه الرسائل والتقارير ضمن وثائق Simancas الإسبانية، وقد ترجم جانبا منها الى الفرنسية F. Elie de la Primaudaie ونشرها في المجلة الإفريقية Revue Africaine في أعداد السنتين 1875 و1876 بعنوان Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole (1506-1574) كما ترجم جانبا آخر منها مونشيكور في كتابه Kairouan et les Chabbia وما لم تتضمنه وثائق سيمنكاس مما أورده (مونشيكور) في كتابه اعتمدناه في دراستنا كذلك .

*) **المؤلفات الأروبية التي عاصر مؤلفوها الأحداث** مثل تاريخ Bosio ، وتاريخ Pedro de Salazar ومؤلف Sandroval وقد اعتمدها جميعا مونشيكور، وأهميتها بالنسبة لنا تكمن في وصفها لمعركة المنستير ولجيش الحسن والفيلق الإسباني ولجيش سيدي عرفة وما وفره الخصوم جميعا لهذه المعركة من امكانات مادية مختلفة وما حدث في هذه المعركة منذ البداية ، وفيها كذلك شرح للخطة التي اتبعها قائد جيش سيدي عرفة (أحمد بن عرفة الشابي) للإيقاع بخصمه . وأما ما كتبه Marmol في الجزء الثاني من كتابه L'Afrique (1) فقد أفدنا منه في الوقوف على عمق تأثير

---

1) باريس ، 1667.

سيدي عرفة في أعراب افريقية وعلى استقلاله بالقيروان وعدم اكتفائه بها واعتزامه السيطرة على « امبراطورية تونس » (1) ، كما أفدنا منه في وصفه لمعركة المنستير واندحار الحسن الحفصي والإسبان منذ البداية وفي حديثه عن تدهور القيروان ووضعها الاقتصادي المتردي آنذاك .

ب ـ المؤلفات العربية، وهي على ضربين .

1) التونسية، وأهمها :

ـ **الفتح المنير في التعريف بطريقة الشابية وما ربوا به الفقير** (2) لمحمد المسعود الشابي المتوفي سنة (1618/1028)، وهو حفيد سيدي عرفة أي ابن خديجة بنت الطاهر بن عرفة، فضلا عن انتسابه له عن طريق والده (محمد بنور) لأن جد والده (أبا الكرم = أبا بكر) هو شقيق سيدي عرفة، ومحمد المسعود، كذلك ، هو ثامن شيخ للطريقة الشابية الذي يمثل سيدي عرفة ثالث شيخ لها، وأول ما نلاحظه أن المؤلف كان شديد الإعجاب بسيدي عرفة باعتباره شيخ المربين عنده وأكبر صوفي في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين . تضمن الكتاب أوفى ترجمة لسيدي عرفة من الوجهة الصوفية، ولم يتناول أخباره الحربية والسياسية إلا نادرا وبصورة عرضية، وقد اعتمدنا في ترجمتنا له على ما ورد في هذا الكتاب، وهو يكشف عن الخط الإسلامي والوطني لحركة سيدي عرفة طيلة تسع وأربعين سنة من سنة (1494/900) إلى سنة وفاته (1542/949)، والملاحظ أن التفاصيل الواردة في هذا الصدد جاءت مجردة من تواريخها ، ويرجع هذا الإغضاء عن الأخبار الحربية والسياسية في نظرنا إلى انصراف المؤلف إلى التصوف

---

1) ج 2، ص 488.

2) بين يدي أربع نسخ خطية، يبدو أنها نسخت من أصل واحد لأن بها نفس النقص، إذ تقف أثناء الباب الرابع ، وبهذا يتمثل النقص في قسم من الباب الرابع وفي الباب الخامس والباب السادس والخاتمة.

دون غيره وخلوصه له بعد كل ما لقيت الأسرة من عناء واضطهاد وتقتيل من طرف الأتراك بكل من تونس والجزائر طيلة حركة المقاومة التي اعتصم بها الجناح الحربي للأسرة الذي يمثله أخو المؤلف (عبد الصمد الشابي) المتوفى سنة (1616/1025) وأبناؤه من بعده، فمحمد بنّور والد المؤلف وعبد الصمد قد قتله الأتراك في تيزڤرارين بالجزائر ، والمؤلف في هذا المتلاطم من الأحداث بدا ممثلا للجناح الصوفي للأسرة الذي رأى أن لا فائدة من مواصلة الصراع ضد الغزاة الأتراك ، وكان المؤلف متصوفا بحق، وهو يعد في نظرنا رد فعل حقيقي لما أصاب الأسرة من تقتيل وترويع بعد سقوط الإمارة الشابية سنة (15557/965) جوهره أن لا فائدة من مواصلة الصراع وأن الجدوى من هذه الحياة يكمن في إرشاد المريدين وتوجيههم وتعليمهم سلوك طريق التصوف ، كما أن وراء هذا الإغضاء خوفه من الأتراك وتعريض أمنه للخطر لو تناول الجانبين الحربي والسياسي في كتابه، ولقد بقي هذا الكتاب مخطوطا ولم يطّلع عليه المؤرخون التونسيون، لذلك لم يعتمدوه فيما كتبوه عن سيدي عرفة وعن الشابية عدا أحمد الحربي المتوفى سنة (1867/1284) الذي نظن أنه اعتمده في في كتابه (شفاء الأبدان) عندما ذكر أنه اطلع على كتاب في التوحيد بالمعمورة تحدث عن سجن السلطان محمد الحفصي لسيدي عرفة وما وقع للسلطان بسبب ذلك (1) .

– **الدر الفائق في علم الطريقة والإشارات إلى الحقائق** . (2) ، وهو المعروف بكتاب الطريقة . مخطوط يقع في ستّ عشرة صفحة ؛الآراء الواردة فيه لسيدي عرفة وأغلب صياغته له كذلك ، والبقية من صياغة حفيده محمد المسعود ، وهذه الرسالة جمعها محمد المسعود من أفواه المريدين بعد وفاة سيدي عرفة بنحو ستين سنة ، وتتميز ، برغم صغر

1) راجع الكناني : تكميل الصلحاء والأعيان، ص 41.
2) مخطوط بمكتبتي.

حجمها، بأهمية خاصة لأنها المرجع الأصلي لما آلت إليه الطريقة الشابية على يد سيدي عرفة، وقد أحسن محمد المسعود في شرحه لها في الباب الرابع من كتابه الفتح المنير ، لكن هذا الشرح لم يصل إلينا كاملا لأن النسخ التي بين أيدينا من **الفتح المنير** غير كاملة ، وبرغم هذا فإن شرح الجزء الوارد من الرسالة جاء في (156) صفحة ، وقد أفدنا كثيرا من هذه الرسالة لاحتوائها على أصول تفكير سيدي عرفة وعلى جذور وطنيته التي تشد إليها مذهبه الصوفي شدا .

— **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس** لابن أبي دينار المتوفى سنة (1698/1110) ، اعتمد في إيراد أخبار الصراع العثماني — الإسباني — القومي على الرواية الشائعة في مدينة تونس، فأوجز أخبار سيدي عرفة المتعلقة باستقلاله بالقيروان وبانتصاره على الحسن الحفصي في وقعة باطن القرن سنة (1535/942) ، وهو قد خلط بينها وبين وقعة المنستير التي وقعت سنة (1540/947) أي بعد الأولى بخمس سنوات، وتحدث عن سفر الحسن بسبب هزيمته من طرف سيدي عرفة إلى أروبا لطلب النجدة من شارل الخامس كي يبيح للإسبان القيروان كما أباح لهم تونس من قبل في (خطرة الإربعاء) المشؤومة إثر احتلال الإسبان لتونس بسبب عونهم له لإعادته إلى عرشه .

وقد اعتمد المؤرخون التونسيون ما كتبه ابن أبي دينار فأوردوه بلفظه في كثير من الأحيان، هذا ما فعله الوزير السرّاج المتوفى سنة (1736/1149) في الحلل السندسية (1) وحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة (1787/1202) في التاريخ الباشي (2) ومقديش المتوفى سنة (1229/

1) ج 1، ق 4، ص 1092 — 1093، 1095.

2) مخطوط بدار الكتب الوطنية، تونس، رقم 1794، ص 201.

1813) في نزهة الأنظار (1) وابن أبي الضياف المتوفى سنة (1874/1291) في كتابه الإتحاف(2) والباجي المسعودي المتوفى سنة (1880/1297) في كتابه الخلاصة النقية (3)، وعدا ما ذكره حمودة بن عبد العزيز والباجي المسعودي من أن الحسن الحفصي بعد انتهاء أمره وسمل عينيه فرّ من تونس إلى القيروان مستجيرا بالشابية فأجاروه فإننا لا نجد إضافات تذكر. وقد انفرد (تكميل الصلحاء والأعيان) للكناني المتوفى سنة (1875/1292) بعدم اعتماد المؤنس، واعتمد بدلا من ذلك كتاب (شفاء الأبدان في المتأخرين من صلحاء القيروان) لأحمد الحربي، فأورد الخبر الذي ذكرناه سابقا، وذكر أنه لم يطلع على تاريخ وفاة سيدي عرفة، وشأنه في ذلك شأن المؤرخين التونسيين كلهم.

2) المؤلفات المشرقية، وأهمها :

– **شذرات الذهب** لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة (1679/1089) (4) وتكمن أهميته في أنّه ذكر سنة وفاة سيدي عرفة وهي سنة (1542/949)، وقد اعتمد كتاب (تحفة الحبيب) لمحمد بن علوان الحموي الذي تلمذ لوالده

---

1) ج 1، ص 144. والملاحظ أن الأستاذ محمد المرزوقي أفادنا قبيل الانتهاء من طبع الكتاب بأن صاحب نزهة الأنظار أورد في الجزء الثاني من كتابه (ص 86 – 87) خبرا يتعلق بمحاولة استيلاء سيدي عرفة على ابن لصاحب صفاقس محمد المكني الشابي بقصد الضغط عليه والتفاوض معه لضم صفاقس الى ملكه بالقيروان. وقد أمدنا الأستاذ المرزوقي – مشكورا – بهذا الخبر فوجدناه يتميز بأهمية خاصة لأنه يوضح الحقائق التالية :

أ) يتضح مما ورد في موضعه وحسب ترجيح الأستاذ المرزوقي أن المكني من الشابيين (لا الشائبين حسبما ورد في المخطوط، وهو وهم من الناسخ) . فهو من أقرباء سيدي عرفة ، وهو بدوره قد هفا الى الملك فسيطر على صفاقس .

ب) محاولة سيدي عرفة الجادة لافتكاك صفاقس من قريبه محمد المكني الشابي وضمها لملكه .

ج) غيرة صوفية صفاقس وفي مقدمتهم الشيخان عبد المولى السيالة ومحمد الكراي بو بغيلة من سيدي عرفة وكرههم له وتأليب أهل صفاقس عليه وتأييدهم لمحمد المكني الشابي ووقوفهم من ورائه .

2) ج 1، ص 191، ج 2، ص 14.

3) ص 87 .

4) بيروت، دون تاريخ، ج 8، ص 277.

ولعلي بن ميمون المغربي تلميذ سيدي عرفة، ونقل عنه خبر سجن السلطان محمد الحفصي له وما وقع للسلطان بسبب هذا السجن .

ـ **جامع كرامات الأولياء** للنبهاني المتوفى سنة (1932/1350) (1)، نقل هو بدوره عن كتاب (تحفة الحبيب)، فأورد خبر سجن السلطان الحفصي له، وحدد سنة وفاة سيدي عرفة بـ(1541/948)، ويدل سياق الخبر على أنه نقلـه من الكتاب نفسـه .

2 ـ المراجع :

ـ **Ch. Monchicourt Kairouan et les Chabbia** (2)، يعتبـر أهمّ وثيقة أرّخت للشابية في مراحل ثلاث من تاريخهم، مرحلـة تأسيس الطريقـة على يد ابن مخلوف، ومرحلـة تأسيس الإمارة وبقـائها طيلـة خمسة وعشرين عاما، وقد درس في هذه المرحلة ظروف تأسيس الإمارة ونظمها من إدارة ومجلس أعلى وجيش وعملـة، فضلا عن حياة مؤسسها سيدي عرفـة وخليفتـه محمد بن أبي الطيب وموقف الإمارة من أطراف الصراع (الحفصيين، الإسبان، العثمانيين)، ومرحلـة سقـوط الدولة ومـا أعقبـه، وقد درس في هذه المرحلـة الأسباب القـريبة والبعيـدة لسقـوط الدولـة والمحـاولـة التي قام بهـا محمـد الزفزاف لتأسيس إمارة بقفصة والجريد وسوف والزاب . إن أهمية هذا الكتاب تكمن في اعتمـاده وثائق أروبية (إسبانية وإيطالية) من الدرجـة الأولى بين رسائل وتقارير كان يرسلها قادة الجيش الإسباني الى شارل الخامس وكتب رحلات وكتب تاريخيـة عايش أصحابهـا الأحداث، يعضّد كل ذلك اعتمـاد المؤلف منهجا تاريخيا

---

1) ج 2، ص 151، دار صادر بيروت، دون تاريخ.

2) تونس، 1939، نشر هذا الكتاب أول مانشر في صورة بحوث متتالية في Revue tunisienne من سنة 1931 إلى 1936 ثم نشر في كتاب مع مقدمة للأستاذ برونشفيك .

نخل به الوثائق فنفذ الى صميم الوقائع بحس نقدي مرهف ورؤية شاملة جنبته الوقوع في مزالق الأحكام الجزئية، لهذا يعتبر كتابه المرجع الأصلي لدراسة الإمارة الشابية في جميع أطوارها، وقد أفدنا من الوثائق التي اعتمدها ومن النتائج التي انتهى إليها .

— **La sédition permanente en Tunisie** لمحمود بوعلي (1) ، خصص في الجزء الأول من كتابه قدرا لدراسة حياة سيدي عرفة ودولته ، واستطاع المؤلف أن يجلو لنا وطنية سيدي عرفة وحميته الإفريقية وأن يفطن الى أهمية ثورته التي استهدفت الحفاظ على استقلال افريقية العربية المسلمة ودرء المغيرين عليها مهما تكن دياناتهم .

— **Le soldat tunisien, trois mille ans de gloire** لمحمود بوعلي (2) أفدنا منه في دراسته للجيش الشعبي الذي كونه سيدي عرفة لمحاربة الاستعماريين (الإسبان والعثمانيين) وطردهم من تونس (ص 75 — 77) وفي دراسته لمعركة المنستير (12 نوفمبر 1540) التي انتصر فيها الجيش الشعبي على الحسن الحفصي والإسبان (ص 81—83) فحقق بذلك انتصارا تونسيا مؤثلا على قدر الهزيمة التي ألحقها بجيش شارل الخامس، وهي هزيمة فرضت على شارل الخامس، هي وهزيمته أمام مدينة الجزائر سنة (1541)، الإقلاع النهائي عن أطماعه في المغرب .

— L. Feraud : **Les harar seigneurs des Hanencha** درس الباحث تاريخ الحنانشة في خمسة أعداد من المجلة الإفريقية (الجزائر) سنة 1874 ، وتعرض في هذه الدراسة لأطراف من تاريخ الشابّية منذ عهد ابن مخلوف (القرن الخامس عشر) إلى نهاية الربع الثالث للقرن التاسع عشر، لأن الحنانشة هي القبيلة الأولى التي اعتنقت الطريقة الشابية

1) تونس، 1972، ج 1، ص 143 — 167.

2) من منشورات وزارة الدفاع الوطني التونسي، مطبعة الجيش، تونس، 1975.

وناصرت الشابية منذ البداية، فأورد خبر مناصرتها لسيدي عرفة في وقعة باطن القرن ومحاولة خير الدين لصدها عن نصرة سيدي عرفة .

— Dorgouth Raïs للطاهر قيقة (1) تناول فيه الصراع الدائر بين العثمانيين والإسبان للسيطرة على سواحل المغرب ومدنه ، وأبرز سيدي عرفة كبطل قومي لمقاومتهم جميعا وللإطاحة بالحسن الحفصي ، واستطاع بتوحيده لأغلب القبائل الإفريقية أن يحقق النصر وأن يكوّن دولة افريقية لحما ودما .

لقد اعتمدنا هذه المصادر والمراجع جميعا، وجلونا بقدر ما أتاحته لنا وما انتهى إليه تحليلنا صورة لحياة سيدي عرفة وللوطنية الإفريقية التي رفع لواءها ولقنها لأتباعه من أعراب إفريقية ، فأقاموا في تلك الغمرة من الأحداث إمارة قومية لم تدم أكثر من خمس وعشرين سنة ، إذ انقض عليها الغزاة العثمانيون سنة (1557/965) فأدالوا منها إلى أبنائهم من الباشوات والدايات والمراديين. بيد أن عبد الصمد الشابي لم يترك الأمر لهم خالصا ، فقد شن عليهم حروبا خضّدت شوكتهم ومكنته من اقتطاع امارة بدوية في الجنوب الغربي لإفريقية دامت سبعا ومائة سنة بين (981/ 1577) و(1677/1088)، كما فرضت على يوسف داي أن يوافق عبد الصمد على اقتسام إفريقية معه مناصفة سنة (1616/1025) لو لا نكوص قبيلة طرود وانقلابها على عبد الصّمد في آخر لحظة .

1) تونس، 1974، ص 48 — 55.

الفصل الأول

سيرته ومكانته في عصره

سيرته :

اسمه، نسبه، لقبه .

- أسرته :
  والداه ،
  إخوته .
- ولادة سيدي عرفة .
- طفولته، تعلّمه .
- أبناؤه :
  أحمد الشّابي ؛
  محمد الزفزاف ؛
  الطاهر ؛
  بنته .
- وفاة سيدي عرفة .
- ثقافته .
- هل له تأليف ؟

مكانته في عصره :

- أهم القبائل الموالية لسيدي عرفة (الحنانشة، أولاد سعيد، طرود، دريد، النمامشة، بنو بربار، الهمامة) .
- استعمال اللغة الدارجة .
- انتشار طريقته خارج إفريقية (المغرب الأقصى، جبل غريان، الشام)، دعاته ببلاد النصارى .
- معارضوه :
  فقهاء تونس .
  الزاوية الغريانية .
  عمر بن محمد الكماد القسنطيني .

سيـرتـه

اسمـه ، نسبـه :

عاش سيدي عرفة في فتـرة عصيبة من تاريخ إفريقيـة الحفصية استحكم فيها وهن الدولة الحفصية، إذ تقلص نفـوذ الحسن الحفصي فلم يعد يشمل حكمه إلا الشمال الغربـي وبعض المدن، واحتد الخلاف بين الحضر والبدو ، وتدهور الاقتصاد ، فأتاح هذا لعملاقي البحر الأبيض المتوسط (العثمانيين والإسبان) أن يتنازعا السيطرة على تونس ؛ احتلها العثمانيون سنة (1534/941) باسم الإسلام فأثخنوا القتل والأسر في الحضر والبدو (1) . وفي السنة الموالية (1535/942) هاجمهـا الإسبان بتحريض من الحسن الحفصي فأجلوا العثمانيين عنها واحتلوها فأباحها لهم الحسن لمدّة ثلاثة أيام .

في هذه الغمرة من الصراع ظهر سيدي عرفـة كبطل قومي نافح عن ذاتية الأمّة المتمثلـة في العروبة والإسلام، فأعلن استقـلاله في القيروان وفي الوسط والجنوب الغربـي وفي الشمال الغربـي ومنطقة قسنطينة إلى جبال الأوراس وفي بلاد سوف، وامتد نفـوذه حتى مشارف تونس،

1) ابن ابي الضياف : إتحاف أهل الزمان، ج 2، ص 11، 12.

والتحم في حروب ضارية ضد الإسبان وعميلهم الحسن الحفصي وضد العثمانيين فانتصر عليهم جميعا، لقد كانوا في نظره غزاة وحد بينهم برغم صراعهم هدف مشترك هو السيطرة على إفريقية لتميزها بوضعية جغرافيّة متسمة بالانفتاح على البحر من الشمال والشرق وبإطلالتها خاصّة على مضيق صقليّة .

هو عرفة ابن الصّوفي الكبير العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابّي (1)، وسبب هذه التسمية أنّ ابن مخلوف أعلم الشيخ عبد الكبير اليمني أثناء وقوفهما في عرفات لأداء فريضة الحج سنة (878/1474) بما نُمي إليه من أنّ زوجته وضعت له مولودا ذكرا فأشار عليه الشيخ بتلك التسمية تيمنا بجبل عرفات واهتداء، فلما رجع ابن مخلوف إلى القيروان سماه بذلك الاسم .

وحسب المصادر الأروبية، وهي مصادر أولية، لأن أصحابها عاشوا في غمرة الأحداث، فقد كان يطلق على المُترجَم (سيدي عرفة) (2) هكذا، فالمؤرّخ الإسباني Pedro de Salazar في تاريخه الذي تناول فيه أحداث القرن السادس سمّاه Cid Arfa (3) أما أدقّ مؤرّخ للحملة الإسبانية ضدّ المهدية Horace Nicola فقد سماه في تاريخه باللاّتينية Cidiarphei (4) وكلّ منهم كان معاصرا للأحداث ومَعْنيًّا بها،ومن الواضح أنهم اعتمدوا في إيراد هذا الاستعمال ما كان متداولا على الألسنة في إفريقية في القرن العاشر الهجري ، وهذا الاستعمال يدل على مدى الاحترام الذي كان يكنه الأتباع لشيخهم ، وهو احترام أساسه ولاء روحي ما انفكّ

---

1) راجع كتابنا (أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية) ، تونس ، 1979.

2) Ch. Monchicourt : Kairouan et les Chabbia

سنشير إلى هذا المرجع فيما يأتي بـ(مونشيكور) : القيروان والشابية.

3) راجع، مونشيكور : القيروان والشابية، ص 61.

4) المصدر ذاته، ص 101.

يتعاظم تحت وقع الانتصارات المتعـاقبـة لسيدي عرفـة التي بلغت أوجها بظفره في وقعة باطن القرن وبتأسيس الدولة في (صفر 942/سبتمبر 1535) .

كما أن المصادر العربية، المغربية منها والمشرقية على السواء، وهي متأخرة زمنيا عن المصادر الأوروبية، قد كرست هذا الاستعمـال، فحفيد المؤلف محمد المسعود الشابيّ الذي كتب « الفتح المنير في التعريف بطريقـة الشابية وما ربوا به الفقير » قبل سنة (1618/1028)، وهي سنة وفاته، دأب على ذكر المترجم بالشيخ سيدي عرفـة (1) مشيرا إلى أنه كلمـا ذكـر كلمة (الشيخ) مطلقةً عـنَـى سيدي عرفة دون غيره (2)، كما أن ابن العماد المتوفى سنـة (1678/1089)، وهو مؤلف مشرقي، ذكره بنفس تلك الصيغـة. وكذلك فعل ابن أبي دينار القيرواني في كتابـه الذي ألفـه قبل سنـة (1110/ 1698) وهي سنة وفـاته، ومن ثم تواتر ذكر المتـرجم لدى المؤرخين في المشرق والمغـرب تارة موصـوفا بالشيخ كما فعـل حمودة بن عبد العـزيز في « التّاريخ الباشي » (3) والوزير السرّاج في « الحلل السّندسيّة » (4) ومقديش في « نزهة الأنظار » (5) وابن أبي الضياف في « إتحاف أهل الزمان » (6)، وأخرى موسُوما بسيدي عرفـة كما فعل العدواني في تاريخه (7) والكناني في « تكميل الصلحاء والأعيان » (8) .

---

1) الفتح المنير (مخطوط بمكتبتي) في نسخ أربع، نسخة أ، ص 4، 43، 74، 83، 93، 95 .

2) المصدر ذاته، ص 182 .

3) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 1794، ص 182 .

4) ج 1، ق 4، ص 1093 .

5) ج 1، ص 244.

6) ج 1، ص 191 .

7) ترجمه الى الفرنسية L. Feraud في

Recueil des notices et mémoires
de la société archéologique de la province de Constantine, Canstantine, 1868
P. 153-154

سنشير إلى هذا المصدر فيما يأتي ب(تاريخ العدواني).

8) ص 39 .

وقد لاحظ الحاكم العسكري الإسباني لحلق الوادي François de Tovar منذ البدء السبب الذي يكمن وراء هذا الإطلاق حين تحدث في رسالة له مؤرخة في 30 أفريل 1538 إلى امبراطور إسبانيا عن القداسة التي يتمتع بها سيدي عرفة لدى أتباعه في قوله **(ويعتبر سيدي عرفة في نظر الأهالي شخصية مقدسة تتمتع في هذه المنطقة بتأثير أكثر من تأثير الملك أو أي شخص آخر)** (1) . ووصفه خصمه الحسن الحفصي في رسالته المؤرخة في 7 جويلية 1540 إلى Fernand de Gonzague نائب ملك صقلية **بالوليّ عرفة** (2) . وشاع وصفه عند المؤرخين العرب بالعارف بالله (3)، وفي قبرية ابنه أحمد المتوفى سنة (1543/950) ما نصّه :

هذا ضريح أبو العباس سيدنا ابن الولي بحر عرفان لمن يَرِدُ

وبالرغم من أن أهمية الشيخ كانت تتمثل لدى أتباعه في سموّ تعاليمه الروحية وعمق تأثير ولايته فيهم وقيادته للطريقة الشابية فإن تميزه بالفقه كذلك لم يكن خفيا ، لذلك قال والده أحمد بن مخلوف لابنه الأكبر محمد الكبير حين ترك فيه مشيخة الطريقة ما أنت أفقه من عرفة (4) ، كما أطنب مؤلف الفتح المنير في إبراز تفوّق الشيخ على الفقهاء فيما اختصّوا فيه (5)، ومما يؤكد هذا ما جاء في كتاب L'Afrique لـِ Marmol الذي شاهد صراع سيدي عرفة ضدّ الإسبان والحسن الحفصيّ من وصف الشيخ **بالفقيه Alfaqui** ، ونصّه : **(لقد ثار**

---

1) راجع ،

M. Bouali : la sédition pennanente en Tunisie, 1972, T. 1, P. 153 - 154

سنشير إلى هذا المرجع فيما يأتي بـ(محمود بو علي) : الثورة المستمرة في البلاد التونسية.

2) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 54.

3) راجع، مثلا، الفتح المنير في مواضع عدة، ابن العماد، ج 8، ص 277. النبهاني : جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص 151.

4) الفتح المنير، ص 73 .

5) لمزيد التفصيل راجع أسفله.

في القيروان ، ودون أن يكون مكتفيا بالسيطرة عليها ، فقيه مشهور بورعه بين المغاربة) (1) ، ولهذا السبب شاع وصفه في المصادر المشرقيّة **بالمالكي** باعتباره أحد أقطاب المالكيّة في المغرب الإسلامي (2)، ونظرا إلى جهاده ضد المسيحيين وعملائهم في فترة طغى فيها المدّ المسيحيّ على إفريقيّة فقد وُسم في بعض المصادر العربيّة **بالمرابط**، فابن أبي دينار قال عنه إنّه «كان من مرابطي القيروان» (3) وخصم الطريقة الشابية الفقيه عمر بن محمد الكماد القسنطيني المتوفى سنة (1552/960) ألّف كتابا في الردّ عليها أسماه **(الردّ على الشّابية : المرابط عرفة وصحبه)** (4) .

إنّ تألق شخصية سيدي عرفة الروحية وتغلغل دعوته في قلوب الأفارقة وعمق تأثيره فيهم جعلت المؤرخين المسيحيين وقادة الجيش الإسباني يطلقون عليه لقب **(البابا)** وذلك لأنّهم وقفوا بأنفسهم أثناء معاركهم التي خاضوها ضدّ سيدي عرفة انتصارا منهم للحسن الحفصي على حقيقة تأثيره الدينيّ في نفوس جنوده وجنود خصمه على السّواء، وقد شهدوا بأنفسهم كيف انضم جيش خصمه له حين أطلق جنوده عند بداية معركتي باطن القرن والمنستير شعار (الله أكبر) ، فقد أورد مونشيكور أن Alvar de Sande كان يدرك أثناء حربه لسيدي عرفة انتصارا للحسن الحفصي في وقعة المنستير (12 نوفمبر 1540) أن سيدي عرفة في نظر أتباعه يشبه أن يكون **(بابا للقيروان)** (5) ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لـ Millan de Ariogo الذي حارب أيضا سيدي عرفة في

---

1) Marmol : l'Afrique, T. 2, P. 488

سنشير إلى هذا المصدر فيما يأتي ب(مرمول) : افريقيا.

2) راجع مثلا، شذرات الذهب، ج 8، ص 277. جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص 151.

3) المؤنس، ص 162.

4) راجع، أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب لابن فرحون ص، 197.

5) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 61 .

الوقعة نفسها، فقد أورد أن سيدي عرفة كان ينعت **ببابا القيروان** (1) ، وما تخلف مؤرخ القرن السادس عشر Pedro de Salazar في تفصيله لتلك الأحداث عن وصفه (**ببابا بلاد البربر**) (2) .

بيد أن ملاحظة مؤرّخ القرن السادس عشر Bosio للجانب الجوهريّ الذي يفصل الحاكم المسلم عن (البابا) من حيث جمع الأوّل بين السلطتين الزّمنية والروحيّة واقتصار الثّاني على السلطة الروحية جعله يستخدم مصطلحا إسلاميّا ويصف المترجم **بخليفة القيروان** (3)، وهو وصف يذكّر بما ورد في المؤنس من نعت سيدي عرفة بـ(**صاحب القيروان**) (4) أي من له النفوذ الرّوحيّ والسياسيّ فيها دون غيره، على أن القيروان لا تعني هنا المدينة فقط وإنما تعني كذلك المناطق التي تقطنها القبائل الموالية لسيدي عرفة وتدين بالولاء له فتكوّن جميعا الإمارة الشابيّة تتصدرها عاصمتها القيروان .

وهذا ما جعل الإسبان إبّان احتلالهم لإفريقيّة يذكرونه في مراسلاتهم **بسيّد القيروان** Seigneur de Kairouan **وملك القيروان** Roi de Kairouan (5) .

غلبت عليه نسبته إلى بلدة الشابّة مسقط رأس والده فعُرف بالشّابي(6)، وشُهر بالقيروانيّ كذلك نسبة الى موطنه القيروان .

أسرتـــه :

يُعتبر والده العارف بالله أحمد بن مخلوف الشّابّي (835/1431 — 898/1492) أحد أقطاب التصوّف في العهد الحفصي، لهذا لقّبه صوفيّة

1) المصدر ذاته، ص 106 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) المصدر ذاته، ص 60، 106.
4) ابن أبي دينار : المؤنس، ص 167، وقد قفى على أثره مقديش في نزهة الأنظار، ج 1، ص 244.
5) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 68 .
6) راجع مثلا، التاريخ الباشي (مخطوط)، ص 182 — 201. ابن ابي الضياف ج 2، ص 14.

المشرق بـ« **زهرة أهل الغرب المنعّمة** » (1) ، وإثر رجوعه من الحج تلمذ له أحمد الغوث التباسيّ التوزريّ وأحمد المقنعي الحنّاشي ، وكان ذلك بين أواخر سنة (1473/878) وأوائل سنة (1474/879) فبشرا بطريقته الشّابية في إفريقيّة الحفصية ، وشيئا فشيئا أخذت تتسع قاعدة مريديه في البوادي والمدن ؛ روض القبائل النافرة بتربيته وإرشاده في عصر اختلطت فيه السبل، وألجم ترددها وتمرّدها بمجالسه العلمية والصوفية بالقيروان ، وبرسائله التي كان يوجهها إلى المريدين والمريدات ممن أشكلت عليهم بعض المسائل ، أو ممن لم يهتد منهم الى التزام ما تفرضه الطريقة الشابيـّة، وكذلك بتردده على هذه القبائل في مواطنها، يحدد الأدواء المستشرية ويوضّح لها سبل العلاج فتأكد ارتباطها به أكثر فأكثر وأخلصت للطريقة الشابية حتى لقد بدت وكأنها هُويتها القوميّة (2) ، فما ترددت ساعة العسرة في أن تمتشق السلاح بقيادة سيدي عرفة لإلحاق مرّ الهزائم بالإسبان والسلطان الحفصي وبالعثمانيين .

أما أمه (أمة العزيز) وتسميها النسوة الشابيات (أمّ العز) تلطيفا . فهي قيروانيّة من عائلة ميسورة . أورد صاحب الفتح المنير أن الشيخ ابن مخلوف لما انتقل إلى القيروان وكان ذلك حوالي سنة (1465/870) تولى إمامة جامع الدّاروني (بحومة الباي حاليا) ، وحين غاب المؤدب الذي يقرىء القرآن بمكتب قريب منه أناب أهل الحيّ ابن مخلوف فتمكّن بطريقته التربويّة من إعانة أحد الأطفال على الحفظ ، كان موسوما بالتّخلف، فأحبه أهل الحيّ وتعلق به الطفل ، فطلب من والده تزويج الشيخ من أخته إكراما له فأبى الوالد قائلا: « أعطي بنتًا صغيرة لرجل كبير فقير لا مال له! » (3). وفي فترة تالية زوّجه منها، وكان ذلك حوالي سنة (1470/875) ، ويبدو أنها

1) أبو الحسن علي بن ميمون المغربي : مناقب التباسي، (مخطوط بمكتبتي) ص 17 – 18.
2) لمزيد التفصيل راجع كتابنا (أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية).
3) الفتح المنير، ص 63.

لم تعمر طويلا لأن مؤلف الفتح المنير لاحظ أنها توفيت دون أن تصاب في زوجها أو في أي واحد من أبنائها الثمانية وأنّ ابن مخلوف أبى التزوّج بعدها حتى لا يسري إلى أبنائه الافتتان بسبب الثروة والجاه اللذين سينالونهما (1) . ومن الثابت أنها توفيت قبل سنة (1492/898) ، وهي سنة وفاة ابن مخلوف .

يذكر محمد المسعود الشابّي أن لسيدي عرفة أختا وستة إخوة ذكور ، ذكر أسماءهم وبعض أخبارهم إلا اثنين منهم ، أحدهما لم يذكر اسمه وقال انه مات قبل أن يتزوج (2)، والثاني ذكر اسمه وهو (أبو السّعود) ولم يفصّل في أخباره ، بل اكتفى بالإلماع إليه ضمن خبر تناول الإخوة السّتّة « وكلّ واحد من السّتّة [وضمنهم سيدي عرفة] قرأ القرآن وتفقه في الدّين،وتكلّم في طريق القوم، وظهرت له كرامات، ونطق بإشارات وأسرار ملكوتيات » (3) . وقد أغفل ذكر تواريخهم، لكنه ذكرهم مرّتين الأكبر فالذي يليه (محمد الكبير ، فسيدي عرفة فأبو الفضل فأبو الطيب فأبو الكرم (= أبو بكر) فأبو السّعود فالابن الأخير من غير ذكر اسمه) . وهذا الإهمال ينْدرج في نطاق إغفاله لسائر التّواريخ في الكتاب . ومن الجدير بالملاحظة أنّ المؤلّف التزم منذ البداية التّفصيل في أخبار الشيخ ابن مخلوف وابنه ووارث مقامه سيدي عرفة دون غيرهما، باعتبارهما المؤسّسين الحقيقيين للطريقة الشابية، لذلك لا غرابة في أن نجد أخبار بقية إخوة سيدي عرفة مقتضبة، وأغلبها ما كان له صلة بسيدي عرفة .

1 ـ أبو عبد الله محمد الكبير :

بيّنا في كتابنا « أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفيّة » بالاعتماد على تواريخ تخصّ التّباسيّ تلميذ ابن مخلوف ذكرها صاحب « مناقب

1) المصدر ذاته، ص 64 .
2) المصدر ذاته، ص 63 .
3) المصدر والصفحة ذاتهما .

التّباسيّ » أنّ محمّدا الكبير وُلد حوالي سنة (1471/876) أي قبل ذهاب ابن مخلوف إلى الحجّ بسنتين، وهو الذي تمّ سنة (1473/878) (1)، وكما أشرنا فلم يفصل مؤلف « الفتح المنير » في أخباره ولا تناول أطوار حياته قطّ، غاية ما وقف عنده استخلاف ابن مخلوف له قبيل وفاته أي سنة (898/1492) وقوله له : « يا محمّد ما أنت أفقه من عرفة ولا أعلم منه ولا أحسن منه ، لكن من قدّمه الله ورسوله يتقدّم، التقدمة لك وهي [المشيخة] لعرفة ، وأذن لسيدي عرفة أيضا في مدّ يده للفقراء ، فهو مأذون من والده وأخيه ، فمكث سيدي محمّد بعد الوالد عامين ونصفا أو نحو ذلك » (2)، يتضح من هذا أنّ ابن مخلوف كان يُفضّل عرفة على أخيه ويعتبره لعلمه وفقهه مشاركا لأخيه محمّد في رئاسة الطريقة الشابيّة، بالرّغم من أنه تركها في محمّد الكبير، وليس لهذا من سبب إلا كبر سنّه لذلك أذن لسيدي عرفة في إعطاء العهد للمريدين، وعلق صاحب « الفتح المنير » على ذلك بقوله : « وكان الشيخ سيدي عرفة أفقه منه لأنه درس العلم وتفقّه فيه » (3). ومع أن رئاسة الطريقة لم تخلص لمحمّد الكبير فإنها لم تدم له أكثر من سنتين ونصف، وقد أكسبت وصية ابن مخلوف هذه سيدي عرفة وثوقا في نفسه ، واعتدادا بدا متميزا ، وشعورا بالتفوّق على أخيه لم يكتمه، فقد حكى بنفسه أنه أراد تعجيزه وإظهار قصوره أمام تلاميذه، فجلس إليه أثناء قيامه بالتدريس، وبينما كان الشيخ يشرح مسألة بادر سيدي عرفة بإلقاء سؤال عليه كان يدرك أنه لا يستطيع الإجابة عنه فأبى الشيخ الرّدّ عليه فأعاد السّؤال ثانية ثم ثالثة للإلحاح في إحراجه فأجابه مغضبا بشطر من « ألفية ابن مالك » : « كلامنا لفظ مفيد كاستقم » . وفيه التعريض والزجر والأمر بالاستقامة والتزام حدود

---

1) لمزيد التفصيل راجع، (أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية)، ص 30 – 32، 63.
2) الفتح المنير، ص 73.
3) المصدر والصفحة ذاتهما.

الأدب كما لا يخلو من إشارة إلى أهمية الدروس التي يلقيها على تلاميذه، عندئذ فطن سيدي عرفة إلى حقيقة الإساءة التي أقدم عليها للنيل من أخيه والإدلال عليه أمام تلاميذه بتقدمه في العلم، فطغى عليه النّدم، وأحسّ ـ حسب عبارته هو ـ بالنار تأكل جسده، فطلب الصفح من أخيه فعفا عنه (1)، ولم يعد سيدي عرفة لذلك الصّنيع، وقد التزم محمّد الكبير بشأن رئاسة الطريقة وصية والده شكلا ومضمونا، وقبيل وفاته تركها في أخيه عرفة وأمره بإعطاء العهد، وكان ذلك في منتصف سنة (1494/900)، وبين أن الطريقة الشّابية لم تصب في عهد محمد الكبير أيّ نجاح يذكر، فلم تتجاوز الآفاق التي أدركتها على يد مؤسسها الذي كان مدركا حقا أن عهد محمّد الكبير ليس إلا عهدا انتقاليا لا يصحّ أن يؤرّخ به للطريقة، لذلك تجاوزه في عبارته المشهورة «أمّا زماننا فنور وإشراق وأمّا زمن عرفة ففتح وأرزاق» (2). أنجب محمد الكبير ابنا يسمّى (أحمد) وهذا بدوره أنجب ابنا يُسمّى (أبا الخير)، بيد أن أيّا منهما لم يلعب أيّ دور يُذكر في تاريخ الطريقة الشّابية.

2 ـ أبو الفضل :

هو الأخ الثالث في الترتيب بعد محمد الكبير فسيدي عرفة، ولد حوالي سنة (1475/880)، حفظ في صغره القرآن، ثمّ تعلّم الفقه المالكي والتصوف فنبه فيهما وأصبح من كبار صوفيّة القرن العاشر، لم يكن بعيدا عن أحداث عصره، فقد كان منصرفا إلى تجنيد المريدين للطريقة الشابيّة وكلفا بما يجري في القيروان وفي إفريقيّة الحفصيّة، لهذا كان مؤثرا في وجهة أسرته بما أوتي من سداد وبُعد نظر، وأثيرا لدى سيدي عرفة. فقد شارك سيدي عرفة في محنته حين ألقي به السلطان محمّد الحفصي

1) المصدر والصفحة ذاتهما.
2) الفتح المنير، ص 95.

(ولايته بين 1493/899 ـ 1525/932) في السجن بسبب وشاية من عالم البلاط الحفصي وقاضي العسكر (محمد بن محمد التّونسي الملقب بمغوش) المتوفى سنة (1540/947) (1) تحريضا عليه ورغبة في الفتك به بسبب ذيوع صيت سيدي عرفة وعمق تأثيره في أهل إفريقيّة ، وقد انتقل أبو الفضل إلى تونس مدة سجن سيدي عرفة، وكان يرسل إليه في سجنه تقارير دورية، وابتكر لذلك طريقة تنم عن دهاء، إذ كان حسب « الفتح المنير » يطوي الرقعة ويجعلها في رقبة هرّة فتأتي إلى الشيخ فيفكّها ويقرأها ويكتب له الجواب ويردّ الرقعة الى عنقها فتوصلها الى أبي الفضل (2) .

ويبدو تقدير سيدي عرفة لأخيه في إحالته عليه واعتماده على ما أملاه عليه قبيل وفاته ليكون عقيدة للطريقة الشابية من حيث بدايتها ونصّها ، وعندما نمي إلى سيدي عرفة أن الناس يسبونه تعجب وقال : لأي شيء يسبونني ؟ ومما قاله : ورأس العقيدة : الحمد لله إلى قل هو الله أحدٌ ، لأخي أبي الفضل وعرفة لم يزد شيئا (3) . وقد أورد سيدي عرفة في كتابه « **الدر الفائق** » نص عقيدة أبي مدين التي أملاها أبو الفضل عليه وعلى أبناء إخوته لتكون عقيدة للطريقة الشابيّة (4) ، كما أورد نفس النص محمّد المسعود الشّابّي في كتابه « **المقرّب المفيد في فروض العين والتوحيد** » (5) للاستدلال به على تنزيه المولى عن الشبيه والنظير وذلك إثر اعتماده على قول لجعفر الصادق في هذا الصدد وقبل إيراده لنص لأحمد

---

1) راجع ترجمة مغوش فيما يأتي .

2) ص 99 .

3) الفتح المنير، ص 116 .

4) الدر الفائق، ص 6—4 .

5) مخطوط، بمكتبتي منه نسختان تقع كل واحدة منهما في مجلدين، يحتوي المجلد الأول على جزءين الأول في التوحيد والثاني في التصوف ويحتوي المجلد الثاني على الجزء الثالث وهو في فقه المعاملات ويسمى هذا الجزء أيضا بـ(كتاب المسائل) وهو في 573 صفحة أما المجلد الأول فيقع في (604) صفحة، بشأن النص المشار إليه راجع، نسخة أ، المجلد الأول، ص 134 — 135 .

ابن مخلوف والد أبي الفضل ، هذا فضلا عن استدلاله بأقوال العديد من أقطاب الصوفية من أمثال القشيري والجنيد وقصده من ذلك « أن يعلم الناظر صحة مبنى طريق القوم لأنّهم بنوا أمرهم على اعتقاد صحيح ومعرفة كاملة ، إذ كثيرا ما يتقول المبغض لهذه الطائفة أقوالا منكرة ويصفهم بما لا يعتقدون ويعزو إليهم ما لا يقولون وإن صدر كلام موهم فذلك في حال سكرهم وهو ذو معنى صحيح لمن فتح الله له في علم الطائفة وكيف يصدر عنهم ما لا يليق ،وهم أعرف بربهم ممن دونهم وأتقى ، لكن إذا صدر منهم ما لا تحمله عقول عموم الخلق لا يجدون إلى الوصول إليه سبيلا ينكرونه منهم وتتطرّق الألسنة بالتكذيب إليهم ، ويا ليت من قصر فهمه وكلّ عقله رجع الى التسليم واعتقد أن له معنى صحيحا وصدق بمقامهم » (1) .

وبرغم قوّة شخصية سيدي عرفة فإن أبا الفضل كان يخالفه في الرأي أحيانا ويصرّ على ذلك فيضطر سيدي عرفة إلى التسليم له ، من ذلك أن مريدين أدوا الزيارة له في القيروان وفارقوه قاصدين مواطنهم فاعترضهم أبو الفضل ونهاهم عن مبارحة المدينة خوفا عليهم من ممتهني الحرابة (2) لأن الطريق غير مأمونة فرجعوا إلى شيخهم وأعلموه بما جرى من أبي الفضل فطمأنهم وطلب إليهم الرجوع ، فاعترضهم أبو الفضل ثانية ومنعهم لكنّهم أبوا استجابة لأمر شيخهم،فلما خرجوا من القيروان سطا عليهم المحاربون فخضدوهم جراحا ونهبوا ما عندهم، فرجعوا إلى الشيخ في الحين، وأعلموه بما وقع لهم فهدّأ من روعهم ، وبدا له أن ما رآه أبو الفضل هو الصواب إلا أن ما قضاه الله لا يتخلف (3) .

1) المصدر ذاته، ص 136 – 137.
2) محمد المسعود الشابي : المقرب المفيد، مجلد 2، ج 3، ص 282 وما بعدها .
3) الفتح المنير، ص 107 – 108.

ويبدو أنّ أبا الفضل تزوّج كبيرا ، ولم ينجب، ذلك أن أرملته « عربيّة » قد تزوّجت جدّ محمّد المسعود الشابي للأب عبد اللطيف (1)، وكان هذا ابن أبي الكرم شقيق أبي الفضل مما يدل على الفارق المشط في العمر بين المترجم وزوجته، وعلى التقارب في العمر بينها وبين عبد اللطيف . ويستروح مما حدث به المؤلف عن عربيّة بخصوص طول مرض أبي الفضل ودعوته سيدي عرفة وأبناء إخوته حين أزفت وفاته ليوصيهم أن أبا الفضل لم يكن له أبناء (2) . لا نعرف تاريخا محددا لوفاته إلا أن قرائن مختلفة تحمل على القول بأنه توفي في الفترة الفاصلة بين تاريخ سجن سيدي عرفة وهو حوالي سنة (1523/930) وتاريخ ولايته وهو سنة (1535/942) لأننا لم نعثر له على ذكر أثناء ولاية سيدي عرفة، ولو بقي حيا لكان له إسهام لا يخفى، وذلك نظرا إلى احترام سيدي عرفة إياه وثقته فيه .

3 ــ أبو الطيّب :

وُلد سنة (1477/882) ، أثمرت فيه تربية أبيه وحسن توجيهه فحفظ كإخوته القرآن ، ولقّنه والده قواعد اللغة والفقه المالكي والتصوف وأصول الطريقة الشابيّة، وبرع خاصّة فيما سماه ابن مخلوف بـ « علم النفوس » باعتباره أساسا من أسس الطريقة الشابية ، وهو يهدف إلى معرفة خفايا النفس لمعالجة أدوائها وادراك خفاياها والسيطرة على مسالكها ، وذلك بغية توجيه المريدين والأخذ بأيديهم، وقد حملت براعته هذه الخيال الشعبي على أن ينسُج له غلالة من الإعجاز أساسها خضوع الجنّ لأوامره واستهداؤه بآرائه (3) ، لأن ما تبدى في حياته حقيقة واقعة، وهو براعته في السيطرة على النفوس، كان مدخلا لهذا الإغراق وسبيلا لهذا التصوير الأسطوري .

---

1) المصدر ذاته، ص 108 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) الفتح المنير، ص 108.

يرتّبط ذكر أبي الطّيب غالبا بذكر ابنه محمد الذي تولى إمارة القيروان عقب وفاة سيدي عرفة سنة (1542/949) ، واستمرّت ولايته إلى سنة (1557/965) ، وهو تاريخ مقتله وسقوط الدولة الشّابية على أيدي الغزاة العثمانيين .

4 ـ أبو الكرم = أبو بكر :

ولد حوالي سنة (1479/884) ، وصفه صاحب « الفتح المنير » بالجدّ الصالح (1) ، ولئن لم يفصل في أخباره ولا تناوله في بقية كتبه باعتبارها المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الشابية والطريقة الشابية فإنه من المفيد أن نشير الى المرحلة التي تلت سقوط الدولة وهي مرحلة الحفاظ على السيادة الروحية على القبائل الموالية والهبوب في وجه العثمانيين في كل من تونس والجزائر لاستعادة الدولة ترتبط في جوهرها بأحفاده، فقد بدا حفيداه الأخوان عبد الصمد ومحمد المسعود شخصيتين عزّ نظيرهما في أواخر القرن العاشر الهجري والثلث الأول من القرن الحادي عشر ، أولهما بثورته على العثمانيين وباستنفاره للقبائل الموالية وإقحامها في حروب متلاحقة أكثر من ربع قرن كاد يسترجع بها الدولة، والثاني بانقطاعه الى التصوف والتأليف ، وإرشاد المريدين، وبذلك حافظت الطريقة الشابية على سيادتها الروحية بين القبائل ، ومنذ أن تولى محمد المسعود رئاسة الطريقة لم تخرج هذه الرئاسة من أحفاد أبي الكرم إلى أن انقضت بوفاة آخر شيخ من أحفاده (محمّد بن بورقعة الشّابي) (2) سنة (1970) . ومعنى هذا أننا إذا استثنينا مؤسس هذه الأسرة الشيخ ابن مخلوف ووضعنا في الاعتبار رئاسة بدر الدين الذي خلفه محمّد المسعود وَجدنا أن ستة عشر شيخا من ثلاثة وعشرين هم أحفاد أبي الكرم ، وفي مقابل ذلك تولى

---

1) المصدر ذاته، ص 107.

2) خال المؤلف .

أخوه محمّد الكبير الرئاسة دون أن تؤول الى عقبه كما تولاها سيدي عرفة واثنان من أبنائه فقط (القائدان : أحمد ومحمّد الزفزاف) ، وتولاها كذلك محمّد ابن أبي الطّيب خليفة سيدي عرفة في إمارة القيروان .

5 ـ أمة العزيز = أمّ العزّ .

ولدت حوالي سنة (1485/890) أي قبيل وفاة والدها بثماني سنين فسمّيت باسم أمها، وكانت حسب « الفتح المنير » صالحة شديدة الخوف من الله (1) ، عاشت بعد وفاة والدها في كنف أخيها محمد الكبير ، ثم في ظلّ رعاية أخيها سيدي عرفة، وبعد وفاته عاشت في كنف ابن أخيها محمد بن أبي الطّيب أمير القيروان . وآية صلاحها أنها ظلّت متزوجة ثماني سنين ، توفي في نهايتها زوجها ، ثم خطبها أخوه فزوّجوه منها فوجدها بكرا ، فسألها في ذلك ، فأعلمته بأنّ أخاه عاجز جنسيا ولو أنه بقي حيّا لما باحت بسرّه ولما أقلقها أمره (2) . وفي الفترة التي عاشتها في قصر ابن أخيها، وكان ذلك بعد وفاة زوجها الثاني، لم تأكل اللحم لا من السوق ولا ممّا كان يذبح في القصر تعففا وزهادة إلى أن توفّيت (3). ويتّضح ممّا ورد في « الفتح المنير » أن وفاتها كانت بعد سنة (1542/949) وهي سنة ولاية محمد ابن أبي الطيب ، وقبل سنة (1557/965) وهي سنة مقتل ابن أبي الطيب وسقوط دولته، ويمكن أن نقترب من التاريخ المحتمل لوفاتها اذا لاحظنا أنها عاشت في قصر ابن أخيها فترة ليست بالقصيرة، نقدر أنها لا تقل عن عشر سنوات ، ومعنى هذا أنها توفيت حوالي سنة (1551/959) .

وبالرغم من أن « صاحب الفتح » المنير يقطع بأن أمة العزيز هي البنت الوحيدة لابن مخلوف فإننا نعتقد أن ابن مخلوف قد رُزق بنتا توفيت في

---

1) ص 63 — 64.
2) المصدر ذاته، ص 64.
3) المصدر والصفحة ذاتهما .

حياته حسبما تؤكده رسالة رد بها على تعزية وردت إليه من إحدى المريدات وفيها « اللّهم أجِرنا في مصيبتنا واخلِفنا خيرا منها » (1) مع العلم بأنّ أمة العزيز توفّيت بعد موت والدها بمدة طويلة .

ولادة سيـــدي عـــرفة :

لم تذكر المصادر المغربيّة والمشرقية على السّواء تاريخ ولادة سيدي عرفة في حين انفرد مصدران مشرقيان « شذرات الذهب » و « جامع كرامات الأولياء » بذكر تاريخ وفاته (2)، ولا غرابة في ذلك فإن المرء يولد مغمورا، فإذا ما ذاع صيته بدا من المألوف حين تدركه الوفاة ضبط تاريخ وفاته . تلك ملاحظة نستطيع أن نقف بها على حقيقة هذا الإغضاء الاّ أنّه من المفيد أن نشير إلى أنه ينبغي أن تسحب هذه الملاحظة بالدرجة الأولى على المصادر المشرقية ، وفيما يخص المصادر المغربية وفي مقدمتها المصدران الأصليان ، «الفتح المنير» و«المؤنس» ، فإن اغضاءها يجب أن يعلّل بأبعد من ذلك، وابتداء فإن « المؤنس » ظلّ المصدر الأصلي للمؤرخين التونسيين الذين تناولوا تاريخ الشّابية لأنّ مؤلفه اعتمد في إيراد أخبار سيدي عرفة على الذكريات الشّائعة في تونس آنذاك ولأنّ هؤلاء المؤرخّين لم يطّلعوا على « الفتح المنير » لحفيد سيدي عرفة محمّد المسعود الشّابي، وهو المصدر الأصلي لدراسة سيرة سيدي عرفة تاريخ أسرته في مدى 193 عاما، تبدأ من سنة (1431/835) سنة ولادة أحمد بن مخلوف وتنتهي سنة (1618/1028) سنة وفاة المؤلف. لقد صرّح ابن أبي دينار بأنّه اعتمد في الحديث عن أواخر الدولة الحفصية ابتداء من الحسن الحفصي على ما تلقّاه من أهل الحاضرة وأنّه أورد إجمالا لا تفصيلا ودون أن يتقيّد بضبط التواريخ ونصّه: «ولم أقيّد نفسي بتاريخ الوقائع لقلّة الضبط ولم أجد من له اهتمام بهذا الأمر » (3) . وهو بهذا قد

1) ابن مخلوف : مجموع الفضائل (مخطوط بمكتبتي)، ص 155.
2) ابن عماد : شذرات الذهب، ج 8، ص 277. النبهاني : جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص 151، وسنتناول تحليل ذلك فيما يأتي .
3) المؤنس، ص 161 .

مهّد مباشرة للحديث عن سيدي عرفة وصراعه ضدّ الحسن الحفصي والإسبان وعن أخبار الشّابّية من بعد ذلك، وبما أنّه لم يتقيّد بذكر التواريخ فمن الطبيعي أن لا نجد ذكرا لتاريخ ولادة سيدي عرفة، وكذلك فعل من قفّوا على أثره، وكان يمكن أن نجد هذا التاريخ في « الفتح المنير » إلا أن وجهة صاحبه الصوفية في كتاب قصد به شرح الطريقة الشّابية التي أسّسها ابن مخلوف وأعْلى شأنها ابنه سيدي عرفة جعلته لا يهتمّ بالتواريخ فجاءت أخبار سيدي عرفة على أهميتها مجرّدة منها .

لذلك عمدنا إلى البحث عن سبيل نستطيع بواسطتها الوصول إلى ضبط تاريخ تقريبيّ لولادة سيدي عرفة فوجدناها في الاعتماد على مصدر لم يكن قصد مؤلفه أن يؤرخ لسيدي عرفة ولا لوالده ابن مخلوف، وإنّما كان قصده توضيح مناقب التباسي التوزري فقد ألف أبو الحسن علي بن ميمون المغربي المتوفى سنة (1514/920) (1) كتاب « مناقب التباسيّ » جلّي فيه غامضها ووضّح مبهمها ودقق في ضبط مراحل حياة أحمد الغوث التّباسيّ المتوفّى سنة (1523/390)، وهو تلميذ ابن مخلوف وصديق سيدي عرفة، فوضع أبو الحسن هذا، وهو تلميذ سيدي عرفة والتباسيّ معًا، قائمة تاريخيّة لأهمّ أطوار حياة شيخه جاء فيها أن التباسيّ رجع من سياحته، وآخرها حجّه، إلى إفريقيّة سنة (1475/880) (2)، ومن جهة أخرى جاء على لسان التباسيّ في المناقب أنه تعرّف على عبد الوهاب الهندي وأحمد بن مخلوف الشّابي عند عبد الكبير اليمني في مكّة، وإثر هذا اللّقاء أقام « الهندي وخليفته « الشّابي » نحو شهر في الحرم الشريف ثم انصرفا بعد تحقيق المعرفة بهما، وبقيت ملازما لشيخنا عبد الكبير شرذمة من الزمان ثم أمرني بالانصراف إلى أرض إفريقيّة » (3)، وإذا عرفنا أن هذه الشرذمة

1) راجع بشأنه، شذرات الذهب، ج 8، ص 81 — 84، وقارن تاريخ وفاته بما ورد في، جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص 151 .
2) مناقب التباسي، مخطوط بمكتبتي، ص 39.
3) مناقب التباسي، ص 18.

طبقـا لما يفهم من الجدول التاريخيّ المتعلق بحياة التباسيّ لا تعدو السنتين أدركنا أن هذا اللقـاء بين التباسيّ وابن مخلوف تمّ سنة (1473/878)، وانطلاقا من هذا التاريخ نستطيع أن نتلمس سنة ولادة سيدي عرفة .

جاء في « الفتح المنير »أن ابن مخلوف عرف وهو في جبل عرفات، صحبة اليمني والهندي وأبي بكر الصميلي، أن زوجته وضعت مولودا ذكرا وأن اليمني قال له سمّه « عرفة » ففعل ابن مخلوف لمّا عاد إلى القيروان(1). ومعنى هذا أنّ سيّدي عرفة ولد سنة (1473/878)، وتبعا لهذا نستطيع أن نردّ باطمئنان السنة التي اقترحهـا مونشيكـور لولادته وهي (1463/868) لأنّه أورد سنـة وفاتـه، وهي (16/949 أفريل 1542 ـ 5 أفريل 1543)، وقـال إنّه عـاش كأبيه إحدى وثمـانين سنة(2) ومعنى هذا في نظره أنه ولد سنـة (1463/868).

طفـولتـه، وتعلمـه :

عاش سيدي عرفة في فترة عصبية في تاريخ إفريقية ازدحمت بتمرّد الأعراب وترددهم، وانقضاضهم على المراكز الحضارية، والسيطرة على الطرق للإغارة والسلب. وتغلغل الخوف في النفـوس، فهبّت الدولة لمنافحتهم والكسر من سطوتهم، وكانت توفق تارة وتستجيب لمطامعهم أخرى، وبالرغم من أن أبا عمرو عثمـان استطاع الإيقـاع بهم حين هاجموا الحاضرة وألحق بهم هزيمـة نكـراء فإنهم مـا انفكـوا يعتصمون بالثـورة كحل لا بديل له لحلّ مشاكلهم الاقتصادية .

وتمتلأ كتب المؤرخين والفقهاء التونسيين بشجب صنيعهم وبتحديد موقف السلطـة والشريعـة منهم إلى حدّ أصبح فيه البحث في « الحرابة » و« الغصب » و« السرقة » في الكتب الفقهية أمرا رئيسيا، وإطلاق صيحات

1) ص 63، وراجع، أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، ص 30 ـ 31.
2) القيروان والشـابية، ص 69، راجع منـاقشتنا له في التـواريخ المتعلقة بحياة ابن مخلوف وفي سني عمره، في، أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، ص 30 ـ 31.

الفـزع والأسى والإعراب عن الغبطـة كلما نزلت بهم هزيمـة لا تتخلّف في كتب الفقهاء والمؤرخين على السّواء؛ فهذا البرزلي يتناول في النوازل « الحرابة » وما اتصل بها في دقة تكشف عن عميق تقصيه لما بـدر مـن الأعراب في إفريقيـّة في القرن التاسع و« يدعـو عليهم بدعوات مبتكـرة غيـر مستعملـة فاستجاب الله دعـاءه فأخـذوا وأخذت أموالهم وديـارهـم » (1) ، وهـذا ابن أبـي دينار يعلق على إيقاع أبـي عمرو عثمـان بهم في قوله « هؤلاء العرب (الأعراب) أذاهم بالطبع مثـل العقـرب ولـو قطـع ذنبهـا لا يبطـل لدغها ، وإلى زماننـا (أي سنـة تأليف الكتاب 1687/1099) نحن منهم على وجل نسأل الله أن يحسم هذه المادة بمنـه » (2) ، كمـا أن محمدا المسعود الشّابـي أفاض في الحديث عـن الحـرابـة والسرقـة والغصب فـي كتـابـه « المقرب المفيد » من خلال الوقائـع التي ازدحمت بها إفريقيـّة إلى مطلع القرن الحادي عشر الهجري لأنّـه أتم تأليف كتابه سنة (1597/1006) (3) .

ونتـج عـن كـل هـذا اضطراب فـي الأمـن وخلل فـي الدورة الاقتصادية ونقص في الأغذية، كما اتسع المنتصف الثاني للقرن التاسع الهجري وهو الذي عاش فيه سيدي عرفة طفـولته وشبابه لأوبئة كانت سببا في اقتناء عدد كبير من الناس وفي إحكام أسر المجاعة في المدن والبوادي، من ذلك ما حدث في سنة (1468/873) في عهد أبـي عمرو عثمان ، وفي سنة (1493/899) قبيل وفاة أبي زكرياء يحيى، ففي الأولى عظم الوباء بتونس حتى بلغ عدد الموتى حسب ابن أبي دينار (4) نحو خمسمائة ألف . وفي الثانية مات بسببه كثيرون من بينهم السلطان نفسـه ، وبين هذه وتلك سادت الفوضى وعمّ البلاء وشهدت المدن زحفا من الأعراب لم تخفـّف من حدّتـه جهود الدولـة .

---

1) المؤنس، ص 158 .
2) المصدر والصفحـة ذاتهمـا .
3) المقرب المفيد، المجلد الثاني، ج 3، ص 282 — 343 .
4) المؤنس، ص 158 .

ولم تكن القيروان بأسعد حالا من تونس ، لأنها كانت لقيمتها الروحيّة مركزا حضاريا يستقطب طلاب الهداية وممتهني الإغارة ومحترفي الحرابة ساعة العسرة واشتداد المسغبة، وتبعا لذلك تقلصت الحياة الاقتصادية وساء حال ساكنيها، وأصبح من سماتها المميزة طيلة القرنين التاسع والعاشر خاصة النقص في المواد الغذائيّة وتقهقر الصناعات اليدويّة ممّا انجرّ عنه فقر مدقع لذويها ، وقد أدرك Marmol ذلك في زيارته لإفريقيّة في أواسط القرن السادس عشر ، حين لاحظ اكتساح الأعراب لها فبدت بعد أن كانت في ماضيها كباريس عند المسيحيين موئلا للخراب والفقر، ولم يبق لساكنيها الفقراء إلا امتهان صناعة الأقمصة الصوفيّة التي يصعب تسويقها لأنّه لا يقدر على شرائها إلا الامراء وذوو المكانة المرموقة من الأعراب (1) ، كما أن الحسن بن محمّد الوزّاني الفاسي Léon l'Africain وصف القيروان في زيارته لها سنة (1516/922) فقال إنها أصبحت مأوى للفقراء من أصحاب الصّنائع الذين أثقلتهم الضرائب التي يؤدونها لملك تونس فألقت بهم بين أحضان الكوارث (2) .

في هذا الجوّ عاش سيدي عرفة، بيد أن اليسر الذي أدركه والده ابتداء من سنة (1474/879) بسبب جهود الداعيَيْن التّباسي والمقنعي وبخاصّة الأخير حقق لسيدي عرفة طفولة منعّمة، ذلك أن أعراب إفريقيّة وبخاصّة الحنانشة منهم بدأوا يوافون شيخهم ابن مخلوف منذ ذلك التاريخ « بالفتوح » وبالزّكاة كل سنة ، فانقضى العسر الذي كان يأسره من قبل، وحسنت حاله، وكثر ترددهم عليه طلبا للهداية والإرشاد، كما تتالت

1) مرمول : افريقيا، ج 2، ص 533 .

2) Léon l'Africain : Description de l'Afrique, trad. A. Epaulard, Paris, VI, 1956, T. 2, P. 398

سنشير هذا المصدر فيما يأتي بـ (الوزاني الفاسي : وصف افريقيا) .

زياراته لهم في مواطنهم للوقوف على أمرهم وتلقينهم أصول الطريقة الشابية ، وقد حدّث سيدي عرفة نفسه بذلك متعرضا لطفولته حين كان يرعى البقرات التي أعطيت لوالده من طرف مريديه بالحنانشة في إحدى زياراته لهم، ولما كان يناله أثناء رعيه لها من ضرب من لدن جار لهم قرويّ ظلّ كلفا بصنيعه كلما رمت البقرات الزبل أمام داره، ومعقبا على إلحاح والده في إكرام هذا الرجل رغم إساءته بالاعراب عن ابتهاجه لامتلاكهم داره من بعد ذلك، ونصه من « الفتح المنير » : « قال (سيدي عرفة) كان والدي في في ابتداء أمره فقيرا لا مال عنده فلما أراد الله إظهاره أتاه الفقير أحمد بن نصر المقنعي وأخذ عنه أمدّه الشيخ وقدّمه فصار يدعو النّاس ويدلهم على الشيخ حتى أخذ عنه جملة من الفقراء، فصاروا يذهبون بالشيخ إلى أهلهم تبركا به ويعطونه الزكاة ويدعون الخلق الى الدخول في الطريقة فأتى الشيخ ببقرات إلى الدار للحلب، قال سيدي عرفة : وصرت أرعى بها، وكان رجل من أهل البلد جارٌ لنا، فإذا مررت بالبقرات على باب داره رمت الزبل فيضربني فإذا رجعت فعلت ذلك فيضربني، فأجيء إلى والدي أبكي فإذا جنّ الليل جعل من القمح شيئا ومن اللبن والزبدة وقال لي : امض إلى ذلك الرجل، فأقول في نفسي : هو يضربني وأنا أؤدي له هذا، فلا أمشي إليه إلا كرها، فآل الأمر إلى أن ورثنا الله داره لصبر الشيخ (ابن مخلوف) على إذايته وحسن نيّته » (1) .

ويتضح من الفتح المنير شدّة ملازمة سيدي عرفة لوالده وعمق تأثره به كما يتضح إعجاب الوالد بابنه منذ الصغر لما أوتي من خصائص ومواهب لم تتوافر لغيره من إخوته ، وأورد أن سيدي عرفة أعلمه والده أن تخلفه عنه في الطريق ذات مرّة إنما كان بسبب الإطناب في الحديث مع أحدهم عن نباهته ومحامده (2) . حفظ سيدي عرفة القرآن وتتلمذ لوالده

1) الفتح المنير، ص 72.
2) ص 95.

الذي كان منتصبا للتدريس والإرشاد كما تلمذ لغيره ، لكنّه كان مدينا بالدرجة الأولى لوالده ، أخذ عنه الفقه فبرع فيه لذلك لقبه المشارقة بالمالكي ، وكان الوالد ، كما قال عنه جدّ عبد الله عمري الذي حضر مجلسا للشيخ، يسأل عن المسألة الفقهية التي يقرأ المفتي للإجابة عنها كتبا عديدة فيجيب عنها في سرعة ملحوظة (1). كما تعلّم التوحيد على يدي والده، وكان هذا قبلة الدارسين في سائر أنحاء إفريقيّة إذا ما استعصت عليهم مسائل كلاميّة ، وتلمذ له في التصوف وأصول الطريقة الشابيّة فبدا صورة حيّة لأشواق والده الروحيّة وحبّه الإلهي الموصول ، هذا الذي كان يستبد بابن مخلوف في خلوته فتتفجّر في قلبه بحور العرفان (2) .

ويدل ما ورد في « الفتح المنير » و « الدر الفائق » على أنّه كان بارعا في التفسير والحديث. كان مفرط الحساسيّة، أدكه الطموح منذ يفاعته وانطبع بمنافحة والده لأعداء الطريقة الشابيّة من أتباع الزوايا التي كانت تعجّ بها القيروان، وفي مقابل ذلك ألحف في توثيق صلته بمريدي والده حين كانوا يفدون إليه، وما ان بلغ العشرين من عمره حتى أقرّه والده، بالرغم من أنه ترك المشيخة في ابنه الأكبر محمّد الكبير، على مدّ يده للفقراء واعطائهم العهد .

أبناؤه :

لسيدي عرفة ثلاثة أبناء هم أحمد ومحمّد الزفزاف والطّاهر وبنت لم نعثر على اسمها، ويتضح من النصوص الواردة في الوثائق الإسبانية وفي « الفتح المنير » أن سيدي عرفة قد وفّق في تربية أبنائه وفي إعداده للمهامّ الخطيرة التي كلفهم بها أثناء تهيئة القبائل الموالية للحرب وتجنيدها

1) المصدر ذاته، ص 179.
2) علي بن علوان الحموي : مجلى الحزن عن المحزون، نقلا عن الأزهري فياليواقيت الثمينة، ص 15.

وإقحـام قبائـل أخرى في الدعـوة، وكذلك عقب تجنيده لفـرقـة من المرتزقـة الأتراك والأروبيّين الذين مهروا في استخدام الأسلحـة النّاريّة وهي الأسلحة العصريـة آنـذاك .

1 ــ أبو العبّاس أحمـد الشّـابّي :

ليس غريبا أن نجد في « الفتح المنير » عزوفا مطلقا عن ذكر أكبر أبناء سيدي عرفة وهو أحمد، الذي قاد الجيش في وقعـة المنستير (12 نوفمبر 1540) لأن المؤلف قصر اهتمامه على التصوف، ومن ثمّ على الطريقة الشّابية وأقطابهـا، أما من خلص من الشّابيّة للسياسـة وللحرب كأحمـد ومحمّد ابن ابي الطيب وعبد الصّمد وعزفوا عن التصوف فلم يترجم لهم ولا أورد أخبارهم. فقد كان يخشى ظلم الأتراك لو ترجم لهم وهم الذين رفعـوا لواء الحرب والعـداوة للأتـراك الغـزاة في فتـرة كان أغلب المسلمين يتخيلـون فيهـا أن الأتـراك هم حمـاة ديار الإسـلام. ويـرجع الفضل في معرفتنا بأخبار أحمد الشّابي إلى الوثائق الإسبانيّة التي هي عبارة عن تقـارير موجّهة من قـادة الجيش الإسباني بتـونس إلى شارل الخامس وعن مذكرات وكتب رحلات ومؤلفات تاريخيّة .

لأوّل مـرّة يظهر أحمد الشّابي على مسرح الأحداث في وقعـة المنستير. لقد بدا القـائد المحنّك لاثنين وعشرين ألف فارس وخمسة عشر ألفـا من المشـاة ولفـرقـة من الأتـراك والأروبيين الذين مهروا في استخدام الأسلحة العصرية، وكـانت تعُدّ ستمـائة جندي . اتخذ مساعدا له مملوكـا أروبيّا كان قد أسلم واسمـه (Cachazo) وهو ابن جـزّار بمالقة، وقـد استطاع أحمـد الشّابّي بحنكته تلك وبخبرة مساعده هـذا أن يلحق بجيش الحسن الحفصي وحلفـائهم الإسبـان هـزيمـة نكـراء وذلك باستخدامه وسـائل أظهـرهـا :

1) نصبه لكمين وسط غابة زيتون قرب الوردانين بدّد به جيش العدوّ عقب مبادرة هذا بالهجوم على مواقعه كما وضّحه Sandroval (1)

2) إطلاق جيشه صيحة (الله أكبر) في بداية المعركة .

وقد نتج عنهما فرار الحسن الحفصي وبعض أعوانه الى سوسة وانضمام أغلب جيشه لجيش الشّابّي الذي رفع لواء الجهاد ضدّ من اعتبره سيدي عرفة مرتدّا لاستنجاده بالمسيحيين واعتماده على جيوشهم للقضاء على أهل ملّته بغية الاحتفاظ بعرشه المهتزّ، كما نتج عن هذا تقهقر الجيش الإسباني بقيادة Alvar de Sande إلى المنستير بسبب ملاحقة فرقة المرتزقة من جيش الشّابيّة له . ذاعت شهرة أحمد الشّابي عند الإسبان فسمّوه Hametalfa وحسب مونشيكور فقد أخطأ Pedro de Salazar في تحديد وفاة هذا القائد سنة (1550) ، وهو قد توفي في الحقيقة سنة (1543) أي قبل التاريخ الذي حدده بسبع سنوات، وهذا الخطأ في حدّ ذاته يدل على أنّ ذكره وسيرته البطوليّة ظلا ذائعين بعد وفاته في البلاد الأوروبّية (2) .

وتصوره إحدى الروايات الشعبية بالقيروان على أنه شديد القسوة مع مناهضيه من القرويين ممن تخلوا عن نصرته، يغرب في تعقّبهم وفي تسليط أقسى العقوبات عليهم، وهم بدورهم يهفون الى الانتقام منه والتنكيل به ولو خيالا، وحسب محمّد جمال الدين بن بلقاسم المصراتي القيرواني (من أهل القرن السادس عشر) نقلا عن جدّه أحمد بن علي بن خلف فإن أحمد الشابي قد أمعن في العسف بجماعة ابن خلف لتواطئهم ضدّه أثناء ثورة القيروان على الحسن الحفصي، وعندئذ ذهب أحمد بن علي إلى زيارة قبر بلقاسم بن خلف، عمّ أبيه، طالبا حمايته وعونه،

---

1) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 63.

2) القيروان والشابية، ص 103.

فهبّ لنجدته إذ تحوّل ليلا إلى أحمد الشّابي في نومه فضربه بين كتفيه بعصا فجرح وتسمّم جرحه ومات متأثرا به بالرغم من إبداء الندم وطلب العفو والتوسّل الذي جاء بعد فوات الأوان (1). وإذا تجاوزنا هذه الغلالة من الخيال ونفذنا إلى عمق إحساس قائلها استطعنا أن نلمس مدى الحقد الذي كانت تكنّه بعض العائلات القرويّة التي رفعت لواء التصوف للطريقة الشّابيّة ولقادتها الثائرين، وهو حقد ظل يستشري أكثر فأكثر كلما ازدادت مكانة الشابيّة رفعة، ونما خضوع القبائل لهم وارتفع عدد مريديهم وأصابوا لهم نصرا جديدا، وقد بلغ هذا الحقد أوجه باستنجاد هذه العائلات بالعثمانيين ، تحريضا لهم على الإيقاع بالشّابيّة، فهجموا عليهم وأطاحوا بهم وبدولتهم سنة (1557/965) .

تذكر الوثائق الإسبانيّة أحمد الشّابي كذلك عند حديثها عن زواج بنته خادم الله (تسمّيها النسوة الشّابيّات لَلّه خدّومة). وفي اللغة الإسبانيّة (Gudemala) من محمد بن الحسن الحفصي آخر الحفصيين بين سنة (1547) وسنة (1550)، وهي التي أنجبت منه عبد الرحمن الحفصي(2)، وكان قد زوّجه منها ابن عمّ والدها محمّد بن أبي الطيب أمير القيروان أثناء إقامة الحسن الحفصي لاجئا لديه ، كنيتجة للارتباط الذي حدث بين العائلتين بسبب زواج أبي سلامة القليعي من بنت لسيدي عرفة. وتدلّ قبرية ضريح أحمد على أنّه توفّي سنة (1543/950) أي بعد وفاة والده بسنة واحدة، وممّا جاء فيها :

هذا ضريح أبو العبّاس سيدنا ... ابن الولي بحر عرفان لمن يردُ
ابن الإمام أبو العبّاس شهرته ... يعني ابن مخلوف نعم الجد والسندُ
في عام خمسين في آخر جمادى قضى ... للتسعمائة يغفر ذنبي الصّمدُ

1) المصدر والصفحة ذاتها.
2) المصدر ذاته، ص 242.

أنه لم يعش أكثر من خمسين سنة وأن ولادته لذلك كانت حوالي سنة (900/ 1494) ويوجد قبره في مقام والده بمقبرة الجناح الأخضر بالقيروان.

2 ـ محمّد الزفزاف (لوثر الإفريقي حسب المسيحيين) :

هو سادس شيخ للطريقة الشابية وحامل لواء الثورة على الأتراك وعلى أحمد سلطان الحفصي بعد سقوط الدولة بالقيروان، وتذكّر شخصيته بشخصية والده سيدي عرفة، فقد جمع بين الرئاستين الروحية والزمنية فأعاد للطريقة الشابية حيويتها بعد أن خفتت جذوتها الرّوحيّة على يدي أحمد بن عرفة ومحمّد بن أبي الطيب اللّذين انصرفا كلّيا للسياسة والحروب.

وردت أخبار الزفزاف (Çef Çef في اللغة الإسبانية) في رسالة مؤرخة في 3 مارس 1560 أرسلها Alonso de Gueva إلى ملك اسبانيا ضمّنها معلومات سرية متعلقة به وبأحمد سلطان الحفصي وبالأتراك أثناء صراعهم المحتدم أفاده بها أحد جواسيسه على البلاط الحفصي خاصّة، كما وردت أخباره في « الفتح المنير ». ومن الجدير بالملاحظة أن سبب عناية المؤلف بالزفزاف يكمن في تألّق شخصية الزفزاف أيضا، لذلك لم يجد غضاضة في الوقوف على أخباره التي تبرز من خلالها تحليله للموقف السياسي والعسكري وتحديده لملامح المستقبل في المنطقة وتصميمه على مقاومة الأعداء. لقد أضاف إلى أنصار الطريقة أنصارًا جُددا في المدن وفي الأرياف على السّواء، وشدّهم إليه بحسن توجيهه ووافر إرشاده وفيض علمه، وكان يتردّد عليهم في مواطنهم مهما نأت، فهو تارة في تونس، وأخرى بواد مشنتل وتيزڤرارين بالجزائر، يرشد هذا ويعلّم ذاك، ويوضّح للجميع أصول الطريقة الشّابية في عصر ازدحم بالطرق والزوايا، وما كان يتردد في تهجين المريد حين يهمّ بالخروج عن الطريق السّويّة، من ذلك أنه ذهب إلى تونس لملاقاة مريديه بها، وخلال إقامته بينهم كان يراقبهم ويلتمس أخبارهم لمعرفة سلوكهم، وذات يوم لقي أحدهم وقد

وطّن نفسه على ارتكاب فاحشة موصوفة فنهاه وقال له « يا بقر إلى متى يتعرّض لكم محمد بن عرفة في الأزقّة » (1)، ومع هذا فقد كان الشيخ محبوبا لدى تلاميذه وكانوا يعتبرون أنفسهم أولاده (2)، حاربوا بقيادته ونصروه ساعة العسرة .

بعد أن سقطت الإمارة سنة (1557/965) وآلت القيادة إليه اختار أن يفرّ بفلول جيشه وبأسرته الى الجنوب الغربي فطارده الجيش العثماني وأتباع الزاوية الغريانيّة حتّى عين النشوع بحامّة الجريد . ثم اتخذ المنطقة الممتدّة من توزر الى مشارف بسكرة مسرحا لنشاطه . وبرغم أن تلميذه وخليفته بدر الدّين الشّابّي المنقطع للتصوف حاول أن يثنيه عن الثورة فإنه لم يصغ إليه وآثر أن يخوضها حربا ضارية ضدّ الحفصيين والعثمانيين معا . أورد محمد المسعود الشّابي أن شيخه بدر الدين قال له : قلت للشيخ الزفزاف « رغبتي أن سيدي الشيخ لا ينصرف الى هذا الأمر (الى الحرب) وإنما نحن معروفون بالفقر (التصوّف) و(بإعطاء) العهد (للمريدين) ، فقال لي يا بدر الدين : أما أنت فقد وجدت ما طلبت (أي الحياة الصوفيّة الخالصة) وأما نحن فلم يكن لنا منه (القتال) مخلص حتى نلقى الله ، فكان الأمر كذلك » (3) .

وقد قال عنه Alson de la Gueva في نفس تلك الرسالة إنه يعتبر لدى معظم أتباعه كلوثر (Luther) لدى المسيحيين ، وإصرارا منه على تأكيد هذا المعنى اعتبره (لوثر افريقيّا) (4) ، ومعنى هذا أن الزفزاف

---

1) الفتح المنير ، ص 109. شاعت الفواحش في تونس آنذاك، وقد لاحظ الوزاني الفاسي أثناء زيارته لها سنة (1516/922) كثرة البغايا والمنحرفين الذين يبيعون شرفهم بأبخس الأثمان، راجع، وصف افريقية، ج 2، ص 385 .

2) الفتح المنير، ص 109.

3) المصدر ذاته، ص 110.

4) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 169 . Luther Martin (1583 – 1556) مجدد مسيحي بألمانيا، ثار ضد التسامح الذي ظهر لدى البابا في بيعه لصكوك الغفران، وناصر الفلاحين في ألمانيا، ترجم الانجيل إلى الألمانية، راجع بشأنه، فريديريك انجلر : حرب الفلاحين في المانيا. تعريب محمد أبي خضور، دمشق، دون تاريخ » .

بتدينه وبمناهضته ومحاربته للخلافة العثمانية واعتماده على الأعراب في تلك الفترة يشبه معاصره « لوثر » رجل الدين في ثورته على سلطة البابا الروحيّة وانتصاره للمعدمين في بلاده . وحسب هذه الوثيقة الإسبانيّة فإن سقوط القيروان سنة (1557/965) لم يفقد الشّابيّة نفوذهم في داخل البلاد بواسطة القبائل التابعة لهم، وأكثر من ذلك فقد استطاع محمّد الزفزاف القضاء على الحامّية التركية ببسكرة المتحالفة مع أحمد سلطان الحفصي، وذلك سنة (1560/968)، وتحت وقع هذه الهزيمة لم يسلم أيّ واحد من من الأربعمائة الذين تتكوّن منهم تلك الحامية من الضياع بين سيوف الرمال، واتجه إلى توزر التي كان قد احتلها منذ سنوات السلطان الحفصي، فاستولى عليها دون عناء لأن حامية السلطان الحفصي قد آثرت الفرار، ثم زحف الى قفصة فضمّها لنفوذه ومن ثمّ أصبحت توزر أو قفصة عاصمة للطريقة الشّابيّة بدلا من القيروان المفقودة .

ويحدثنا صاحب « الفتح المنير » عن الزفزاف إبّان إقامته في قفصة فيفيدنا ، نقلا عن محمّد بنّور نائب الزفزاف ، بما يؤكّد تحليله الصائب للأوضاع ، فحين عرض عليه محمّد بنّور الهجوم على القيروان لاستعادتها من أيدي الأتراك بالرجال والأسلحة التي بين يديه أبى ذلك وأشار عليه بأن يرسل السّلاح الى دريد أتباع الشّابيّة لإخفائه والإفادة منه وقت الحاجة لاستحالة تحقيق النصر آنذاك (1) .
« وقد أشار لي مرّة أخرى في زمن إقامته بقفصة وكنت نائبا بين يديه وكنت قد أحضرت ذات يوم خمسين بندقيّة بآلاتها وأنا واقف في البيت التي هو فيها فدخل عليّ فقال لي : ما هذا ؟ فقلت : يا سيّدي « مكاحل » أريد أن أعطيها لخمسين رجلا يمشون بين يديك ونتوجّه الى بلادنا (القيروان)، فقال لي : يا بنّور، أدلّك ! فقلت نعم، قال : ابعث بتلك

1) الفتح المنير، ص 110.

المكاحل إلى بلاد دريد (السرس) واتركها هناك فإنّك تصيبها، فقلت له : نتسلّح بها الى بلادنا لعلّ الله أن يسهّل لنا فيها ، وحين نرجع نرسلها، فقال لي : بلادكم (القيروان) ما تصيبونها، وأنا إنما أفعل لعلّي أموت بقربها فأدفن فيها عند والدي، وأنا أموت وأنتم تخرجون من هذه البلاد (قفصة والجريد)، ولا بدّ أنّك تندم على هذا، وتقول لعلّني فعلت ما أمرني به، فكان الأمر كذلك، فلما توفّي رحمه الله خرجنا من بلاد الجريد، وأتيت الى واد بجرّ، فندمت وقلتُ: ليتني فعلت » (1)
وكان لا يخفي خشيته من الأتراك على الشّابّية، وهفا في زيارتيه الى تيزڤرارين أن تكون القلعة الموجودة بها مقرّا لأولاده لأنّها حسب تعبيره « ما تمنّع من التّركْ إلا هي »، وفي المرّة الأولى بادره مريدوه ممّن كانوا معه بالقول : نحن أولادك ؟ فردّ عليهم : الكبير منكم أخي والصغير ولدي، وأنا أريدها أن تكون لأولاد صلبي، فقالوا له : ماؤها بعيد فأجابهم يسقون من تلك (الجرعة) (2) .

ولا غرابة بعد ذلك في أن نجد محمّدا بنّور ومن معه ينتقلون الى هذه القلعة ، بيد أن هذا لم يفد محمّدا بنّور فإن الأتراك جدّوا في تعقّبه وملاحقته إلى أن أسّروه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى القائد التركي كما أنّ عبد الصمد اتخذ منها برغم ما وقع لأبيه معقلا حصينا استعمله منطلقا لشنّ حروبه وغاراته على الأتراك فتمكّن من تخضيد شوكتهم ومن تكوين إمارة بدويّة في القسم الغربي لإفريقيّة دامت أكثر من مائة سنة (3) .

وحوالي سنة (1577/985) توفّي الزفزاف في مكان يقال له (زبّاس) قرب المكناسي فنقل الى القيروان ودفن بجانب والده طبقا لوصيّته .

---

1) المصدر والصفحة ذاتهما .
2) الفتح المنير، ص 109 — 110.
3) راجع، علي الشابي : علامة الشابية بالاتراك العثمانيين . . في، المجلة التاريخية المغربية تونس، جانفي 1980، عدد 17 و18، ص 76 — 77.

3 ـ الطّــاهر :

انفرد حفيده مؤلف « الفتح المنير » بالتعرض له، فأورد أن الطاهر انصرف إلى الدعوة للطريقة الشّابّيـة بجبـل غريان حرصا منـه على إحياء السنّة وإظهـار دين الله (1) بين الإباضيّة الذين قوي أمرهم هناك منـذ قرون، ويبدو أنـه أكثر من التـردّد عليهم كما يدلّ على ذلك النّداء الذي أطلقـه أحد مقدّميـه، وهو سباع الفجاتي من أعلى ربوة مشرفـة على مواطنهم قبيل حلول الطاهر بينهم بوقت قصير، وهذا النداء هو « الطاهر بن سيدي عرفة قادم هذه الليلة » وقد أطلقه ثلاث مرّات بوصيّة من الطاهر نفسه (2)، وفي الموعد المضروب أسرع النـاس لملاقاة شيخهم في موكب بهيج فحظي بينهم بحفاوة متميّزة هي آية على أن صلتهم بـه ليست بالمستحدثـة واستمال جانبا منهم لطريقتـه بحسن إرشـاده وعميق معرفته بأصول مذهبهم وقدرته على الإقناع .

لم تتعرض له الوثائق الإسبانيّة، وهذا يدلّ على أنّه لم يسهم في أحداث عصره السيـاسيّة والحربيّة وعدا مـا سبق ذكره فإننا لا نعرف من أخباره سوى أنّه أنجب بنتـا وابنـا، همـا (خديجـة) والدة محمّد المسعود الشّابي مؤلف « الفتح المنير » و(محمّد) أحد رواة أخبار سيدي عرفة .

4 ـ بنت لم نعثر على اسمها :

تفيد الرواية المتواترة لدى الأسرة كما نقلها لنا الأستاذ عبد العزيز الشّابي عميد المحـامين الأسبق أن سيدي عرفة زوّج أبا سلامة القليعي المستبدّ بسوسة بنته حتى يخفف من جبهـة أعدائه، وكان القليعي قد أصهر قبـل ذلك للحسن الحفصي، وفي « المؤنس » ما يؤكد صدق هذه الرواية، فقد بيّن

1) المصدر ذاته، ص 108.
2) المصدر والصفحة ذاتهمـا.

ابن أبي دينار أن القليعي هرب بصهره الحسن ليلا من تونس الى القيروان حتى يخلصه من تعذيب ابنه (أحمد سلطان) له (1) . ومن الواضح أن القيروان كانت واقعة آنذاك تحت نفوذ أصهاره الشّابيّة، وقد اصطفاها القليعي ملجأ للحسن نظرا إلى هذا المعنى .

ـ وفاة سيدي عرفة :

لم تحدّد المصادر التونسيّة تاريخ وفاة سيدي عرفة، وابتداء فإن هذا الإغضاء يجعل البحث في أمره من الوجهة المنهجيّة وبصورة مبدئيّة عسيرا، لأنّ هذه المظانّ الأصلية قد آثرت أن تتحدث عن المترجم من غير ضبط للتواريخ، وسبق أن أشرنا إلى أن صاحب « الفتح المنير » لم يذكر تاريخا واحدا للوقائع في كتابه، كما أن ابن أبي دينار صرّح في تقديمه للحديث عن أخبار سيدي عرفة والشّابيّة بما نصّه « ولم أقيّد نفسي بتاريخ الوقائع لقلّة الضبط » (2). أمّا الحربي في كتابه « شفاء الأبدان في المتأخرين من صلحاء القيروان » فقد قال في حديثه عن سيدي عرفة « ولم أقف على تاريخ وفاته، وأمّا قبره فمعروف عندنا بالقيروان » (3)، وبيّنٌ لذلك أنّه لا يمكن أن نظفر بهذا التاريخ في التآليف التي نقلت عن هذه المصادر مع العلم بأنّ معظمها نقل عن ابن أبي دينار .

بيد أن مصدرين مشرقيين وهما « شذرات الذهب » و « جامع كرامات الأولياء » قد حدّدا لوفاة سيدي عرفة تاريخين متقاربين وهما (949) في الأوّل و(948) في الثاني، ونعلم أن كليهما كان ينقل في ترجمته لسيدي عرفة عن « تحفة الحبيب » لمحمّد بن علوان الحموي، وكان هذا من أتباع الطّريقة الشّابيّة التي نشرها في المشرق علي بن ميمون المغربي المتوفّى قبل سنة

---

1) المؤنس، ص 167.

2) المصدر ذاته، ص 161.

3) النقل عن تكميل الصلحاء، ص 40.

(1514/920)، ومن بين من دانوا بهـا من أهل الشام علوان الحموي صاحب « نسمات الأسحار » و « شرح تائيـّة ابن حبيب الصفدي »، وقد أمعن هو بدوره في نشرهـا بين النـّاس وعمل (مقـدّما) لهـا في بلاد المشرق، فاعتنقهـا على يديـه كثيرون في مقدّمتهم ابناه (علي) صاحب « مجلي الحزن عن المحزون » و(محمّد) صـاحب « تحفة الحبيب » وهو الذي نقـل عنه ابن العمـاد والنبهـاني في أخبار سيدي عرفـة، وواضح كذلك أنهمـا نقـلا عنـه تاريخ الوفـاة، ونظرا إلى أن الكتاب مفقـود فإنـه يستحيل علينا معرفة التّاريخ الحقيقي الذي حدّده المؤلف. وعلينا أن نتّجـه إلى تلمّس معرفة أيّ من التاريخين يمثّل السّنة الحقيقيّة لوفاتـه، ولا يتأتى هذا إلا بالاعتماد على أدلـة تقف بنـا على جليـّة الأمر.

إنّ السنة الهجريـة (949) المقترحـة في « شذرات الذهب » توافق السنة المسيحيـّة الممتدّة من (16 أفريل 1542 — 5 أفريل 1543) ولنا في الأخـذ بها دليـلان :

أ — الرواية المتواترة لدى شابـّية توزر ومفادهـا أن سيـّدي عـرفة توفي في هذه السنـة بالـذات.

ب — مـا جاء في إحدى الرسـائل التي كان قد وجهها الحسن الحفصي إثر هزيمته في وقعـة المنستير على يد سيدي عرفة إلى شارل الخامس يستنجد به ويحرّضـه على « شابيـّة أولاد عـرفة »، والرسالة مؤرخـة في (27 أوت 1542)، ولو أن سيدي عرفة كان حيّا حتى هذا التاريخ لما حرضـه على شابـّية أولاد عرفة ولاكتفى بدلا من ذلك بتحريضه على سيـدي عرفـة دون غيره، ومعنى ذلك أن سيدي عرفـة توفي سنـة (949) أي بين 12 أفريل و26 أوت لسنـة (1542م) (1).

1) راجع مونشيكور: القيروان والشـابية، ص 69. محمود بو علي: الثورة المستمرة في البلاد التونسية، ج 1، ص 160.

لذلك فإننا نردّ السنة المقترحة في « جامع كرامات الأولياء » وهي (948) بالرّغم من أن شابية ورغة يقولون بها. وقد قرّر مونشيكور أن سيدي عرفة عمر فعاش إحدى وثمانين سنة، وهو في هذا قد قفّى على أثر النبهاني حين قال « وطال عمره » (1). وأخذ بقول المرحوم الشّيخ أحمد بن سعيد الشّابي في جعله سنة (803) تاريخا لولادة أحمد بن مخلوف الشّابي، وهو تاريخ بيّنا خطأه بالدليل القاطع(2)، وترتب على ذلك عند مونشيكور الأخذ بنتائج من بينها أن سيدي عرفة ولد سنة (1463/868) بدلا من السنة الحقيقية وهي (1473/878)، وبناء على أنه توفي سنة (949/ 1542) فقد عاش إحدى وثمانين سنة (3) . ونرى أنّه لم يعش أكثر من إحدى وسبعين سنة بدأت بـ(1473/878) وانتهت بـ(1542/949)، ودفن بمقبرة الجناح الأخضر بالقيروان وشيّد له مقام من طرف أبنائه وخليفته ابن أخيه محمّد ابن أبي الطيب، ودفن الى جواره أخوه محمد الكبير ومحمّد الزفزاف بن عرفة وبعض أبنائه، وأحمد بن عرفة وخادم الله بنت أحمد بن عرفة وثلاثة من مريدي سيدي عرفة واثنان مجهولان، كما دفن حديثا بالمقام رمضان بن محمّد الطيّب الشّابي وكتب على مشهد سيدي عرفة، وهو حاليا منفصل عن القبر، كتابة طمس بعضها واختفى جزء منها للكسر الذي أصاب المشهد من أسفله ولم يبق منها إلا ما نصّه « بسم الله الرحمان الرحيم. صلى الله على سيّدنا محمّد. الحمد لله الذي تفرّد بالوحدانيّة واحتجب بالعظمة في الدنيا أن يرى. توحّد بالأحديّة في قدمه تعالى عن قول الجاحد وما افترا. حكم حكم القضا على الوجود بالفنا. فنفذ أمره بما اقترا. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا. هذا قبر الشيخ الولي . . لله . .) . وما يزال مقام سيدي

---

1) جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص 151.

2) راجع كتابنا: أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، ص 29 – 30.

3) القيروان والشابية، ص 69.

عرفة مزارا لأبنائه وللقرويين وللمريدين من فطناسة خاصّة . وحتى الأربعينات من هذا القرن كان يعيّن وكيل المقام من طرف شيخ بيت الشريعة بتوزر[1] .

ثقافته :

برع سيدي عرفة في التصوف وفي العلوم العقلية والنقليّة وأخلص لتاريخ افريقيّة وحضارتها فبدا بحقّ شخصيّة افريقيّة فذّة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وإحدى الشخصيات النادرة التي عرفتها تونس على امتداد التاريخ ، فلم يكتف بتلقين العلوم نقليّها وعقليها ، ولا خلص للإرشاد النّظري المحض الذي لا صلة له بالواقع المعاش ، ولا انكبّ على التأليف متخذا منه الطريق المفضّلة لإصابة تساميه على مشاكل عصره ، وانما سخّر التدريس والإرشاد والتأليف لغايات عمليّة ، تتمثّل في القضاء على أدواء المجتمع وعلله المستشرية ، وفي إحياء الإسلام من جديد في نفوس الأعراب بعد أن رانت عليها الردة وأوطن فيها التمرد واليأس طيلة القرون الأربعة المنقضية ، وفي القيام بعملية بعث قوميّ لإفريقيّة دعامتاه العروبة والإسلام في فترة ازدحمت بخيانة الحسن الحفصيّ وبالحضور العسكريّ التركيّ والإسبانيّ .

إن العلوم النقليّة والعقليّة لم تكن عند سيّدي عرفة ترفا كما لم يكن التصوف عنده متعة ذوقية تنافر العقل وتتجاوزه وسفرا روحيّا لا عودة من ورائه وإيغالا في المطلق يزداد توتّره وتعنف سورته كلما غذّ به المسير . من خلال سيرة سيدي عرفة وصلته بمريديه وما وصل اليه نلحظ بيسر أنه ما كان يعتبر العلم علما إذا لم يستحل إلى سلوك يحقّق طِلْبةَ الفرد

1) أفادنا بهذا الأستاذ عبد العزيز الشابي الذي ذكر لنا أن والده الشيخ أحمد بن سعيد الشابي الشيخ الثاني والعشرين للطريقة الشابية (بيت الشريعة) كان قد عين (محمد بن زغدان) الشابي وكيلا لمقام سيدي عرفة.

ومناعة المجتمع ، ولا التلبّس بالطريقة الشّابيّة تصوفا إذا لم يحمل المريدين على امتشاق السلاح لطرد الأتراك والإسبان بغية تحقيق الاستقلال القومي. وإذًا كيف كان الطريق الى ذلك ؟

باديء ذي بدء نشير إلى أن صاحب « الفتح المنير » صرّح بأنه كلما أورد كلمة (الشيخ) عَنَى سيدي عرفة باعتباره قطب المربين وقدوة السالكين وشيخ العارفين (1) ، وقد أفاض في تعظيمه في سائر كتبه واتخذه مثاله المحتذى وشيخه الذي تقصر دونه الهمم واستاذه الفذّ، وعكف على الأصول التي أضافها الى الطريقة الشّابيّة بعد ابن مخلوف يفصّل أمرها ويوضّح ما غمض منها. ومحمّد المسعود لذلك، يعتبر امتدادا لمدرسة سيدي عرفة. وواضح أن كلمة (الشيخ) في إطلاقها على سيدي عرفة تعني عند مؤلف « الفتح المنير » العالم في الفقه والتوحيد والتفسير والحديث والتصوف والتربية بمعنى الجامع بين علوم الظاهر وعلوم الباطن في وقت احتدّت فيه الخصومة بين الفقهاء والصوفية .

حفظ القرآن ودرس الحديث واعتبرهما شرطا أساسيّا لحصول القدوة وفق ما تقتضيه عبارته « من لم يحفظ القرآن ولم يهتد بالحديث لا يقتدى به في هذا الأمر (الطريقة الشّابيّة) لأنّ علمنا مقيّد بالكتاب والسنّة » (2) . وتعمّق في دراسة الفقه فتفوّق على إخوته ، وسبق أن مرّ بنا ما قاله والده قبيل وفاته حين ترك مشيخة الطّريقة في ابنه الأكبر بناء على تقدّمه في السّنّ وهو : « ما أنت أفقه من عرفة ولا أعلم منه ولا أحسن منه » وفي ذات الوقت أذن لعرفة معه في مدّ يده للفقراء ، وهذا كاف للدلالة على صدق قول مؤلف « الفتح المنير » : « وكان الشيخ سيدي عرفة أفقه منه لأنه درس العلم وتفقّه » (3). إن الطريقة الشّابيّة التي أرسى

1) الفتح المنير ، ص 182.
2) المصدر ذاته، ص 114.
3) المصدر ذاته، ص 73.

أصولها أحمد ابن مخلوف وابنه سيدي عرفة وشرحها الحفيد محمّد المسعود اعتمدت الفقه كأحد هذه الأصول. جاء في « الفتح المنير » : « فالمطلوب أن يكون الصوفيّ فقيها ليجتمع عنده الظاهر والباطن فيكون في غاية الكمال لأنّ أكابر الأولياء كلّهم كذلك » (1). ذاعت شهرة سيدي عرفة فتكاثر المعجبون به والمحرّضون عليه في القيروان وتونس وفي غيرهما، من ذلك ما أقدم عليه أحد فقهاء تونس، وكان حسب « الفتح المنير » رأس بلده في العلم الظاهر(2) حين ذهب الى القيروان لمناظرة سيدي عرفة، فقد نزل ضيفا عليه أياما فبالغ سيدي عرفة في إكرامه، وآثره بالكرسيّ الذي كان يجلس عليه تواضعا منه وتقديرا له، وكان يجلس هو على يمينه أرضا، وذات يوم أثار ذلك العالم مسائل علمية بقصد إفحام سيدي عرفة لكنّ هذا أبدع في تناولها والإفاضة فيها، وبدا — حسب « الفتح المنير » — بحرا لا يحاط به، فبادر الضيف بالتخلي عن الكرسيّ لفائدة سيدي عرفة وقال له : « ظننت أنك لا تقوى على مناظرتي في العلم فسلّم له واعترف بفضله » (3).

إن شهرة سيدي عرفة العلمية وتأكّد نفوذه في بوادي إفريقيّة ومدنها، ومن بينها تونس، بسبب الإقبال على دروسه واعتناق طريقته قد أثارا ثائرة البعض من علماء الحاضره وحملاهم على اتخاذ مواقف ضدّه، أدناها مناظرته في عقر داره لإفحامه أمام أتباعه، وأقصاها الوشاية به لدى السلطان أبي عبد الله محمّد الحفصي للقضاء عليه نهائيا، وكان قد أوشى به حظّي البلاط الحفصيّ محمّد بن محمّد التونسيّ الملقّب بمغوش والمتوفى بمصر سنة (1540/947).

1) ص 124.

2) المصدر ذاته، ص 118.

3) المصدر والصفحة ذاتهما.

كان مغوش هـذا كبير علماء بلاط محمّد الحفصيّ والحسن الحفصيّ ، وقد تمتّع بحظـوة كبيـرة لديهمـا فألف تهجين كل المناهضين لحكمهما حفاظا عـلى منزلتـه عنـدهما ، شُهر بتضلعـه فـي المنقـول والمعقـول وتولى قضاء العسكر ، ولما غزا خيـرالديـن تونس سنـة (1534/941) بـادر بنفـي مغوش لخوفـه منـه نظرا إلى علاقتـه الوثيقـة بالحسن (1) ، وفي إقامتـه بالقسطنطينية ولاّه السلطـان سليمـان القانوني قضاء العسكر العثماني ، ثم سافر الى مصر وانقطع الى العلم .

لم يفد الفقهاء من مواقفهم ضدّ سيدي عرفة ولا قلّصوا نفوذه وأهميته في فترة بدا لهم فيها أن ممالاة البلاط الحفصيّ الخائن الذي باع الوطن والدين للإسبان أجدى لهم من مناصرة الحقّ ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأدعى للكسب والنـوال. إن تضلع سيدي عرفـة في الفقـه المالكيّ جعـل مترجميـه في المشرق ينعتـونـه بالمالكيّ باعتباره أحد أقطاب المالكيّة في المغـرب، وهو تضلـع يحملنا على التساؤل عن مصادره الفقهيـة التي اعتمدهـا في دراستـه والتي ألف الالتجاء إليهـا وإحـالـة تلاميـذه عليهـا ؟ بالإمكان ضبط قـائمـة لمصادره من خلال كتب حفيده محمّد المسعود الشّابـي الذي أخلص في التتلمـذ لآراء سيدي عرفـة ومصادر فكره ، وقاد الطريقة الشابية حين آلت إليـه بعد وفاة شيخـه بنحـو خمس وخمسين سنـة بنفس الروح والأسلوب اللذين أرادهما لها قدوته، وبتصفح « المقرّب المفيد » (2) و « شرح المختصر الصغير » (3) نستطيع أن نضع هذه القائمة، بيد أننا نكتفي بذكر بعض من كثر ورودهم، وأظهر ما نلاحظه بشأنهم أن أغلبهم ينتسب الى المدرسـة المالكيّة الأولى والمدرسة المالكيّة المغربيّة، ففضلا عن مالك

1) لمزيد الاطلاع على ترجمته، راجع، شذرات الذهب، ج 8، ص 270 — 271 . المؤنس ص 163.
2) سبق التعريف به.
3) مخطوط بمكتبتي، في 516 صفحـة، يبدأ بباب الطهـارة وينتهي بالحج وبه نقص في أوله وآخره.

وأشهب وابن القاسم نجد سحنونا وابن أبي زيد وابن عرفة وخليلا وشرّاحه والرصّاع وابن الحاجب .

كان من أكبر المتكلّمين في عصره وأعظم مربّ عرفته افريقيّة في القرن العاشر، كلف بتهذيب النفوس وتعليم العامّة قبل الخاصّة ، علم التوحيد لإحياء الضمير الديني في اللهجة العامّية وبالأساليب السائدة بين العامة، وذلك إيمانا منه بأن علم التوحيد أصل الإيمان وكأس الحبّ وشراب اليقين ، من لم يعرفه جهل ولم يحصل له الإيمان (1) . وقد انتقده الفقهاء لعنايته بالعامّة وكلّفه بتبسيط المسائل الكلاميّة لهم قائلين « إن عرفة يعلّم التوحيد لرعاة البقر » (2)، وهم يقصدون برعاة البقر مريديه من أبناء القبائل الإفريقيّة : **طرود والهمامة ودريد والنمامشة وأولاد سعيد وأولاد بالليّل وأولاد مهلهل والحراكته والنّبايل والحنانشة والقبائل الموالية لها (خمير وورغة وشارن وأولاد بوغانم والفراشيش)،** وتصوروا أن العلم ترف لا يناله إلا الخاصّة ورياضة فكرية لا صلة لها بالعلم وحلية يكسبون بها عطف السلطان الحفصيّ ونواله، وأن بين العلم والواقع المعاش قطيعة كاملة بها يتحقّق أمنهم مهما استعصت ظروف الحياة واحتد ظلم الحفصيين وطمى سيل خيانتهم ،

إن عمل سيدي عرفة استهدف كما قلنا إحياء الضمير الدينيّ وتحريك عنصر الايمان في النفوس بمفهومه الثبْت لمعالجة الواقع والسيطرة عليه ، فقد لقّنهم تهجينه للإرجاء باعتباره إيمان كفر لا غناء فيه، ذلك أنه قسّم الإيمان إلى أربعة أقسام : إيمان كفر، وإيمان جحود، وإيمان بدعة، وإيمان كامل . فإيمان الكفر قول بلا عمل، وإيمان الجحود قول وعمل بلا نيّة، وإيمان البدعة قول وعمل ونيّة بلا موافقة السنّة،

1) الفتح المنير، ص 114.
2) المصدر ذاته، ص 169.

والإيمان الكامل قول وعمل ونيّة وموافقة السنّة ، وهو أتمّ الإيمان وأنفسه وأفضله . وقرّر أن لا منجاة للمؤمن إلا باعتماد مفهوم الإيمان الكامل في حياته لتتوافر فيه خصال ثلاثة : إنّ تحدّث صدق، وإن وعد وفى، وإن أمّن فلا يخون (1) . كان سيدي عرفة يقدّم للعامّة نصوصا في التوحيد بالعامّية سهلة الحفظ يسيرة التّداول بعيدة التأثير ، وكثيرا ما كان يركّز فيها على القلب باعتباره منطلقا للمعرفة الباطنيّة أي التوحيد الحقيقيّ الذي تقصر دونه همم الفقهاء ، من ذلك قوله : « اعمل قلبك لوحك واقرأ فيه التوحيد باش تشاهد ربك العزيز، تموت شهيد،اعمل في قلبك جامع، واعمل في الجامع حضرهْ، واعمل في الحضرهْ فِكرَهْ، واعمل في الفكرهْ سلّوم، به ترقّى للعلوم، يا فقهاء أنتم قْريتُم، والفقير بْعينه تْحقّق، واش من تْوَهّمْ، كيفْ منْ نظرْ وصدّق، يا فقهاء أنتم قرأتم في لوحات من عود، ونحن قرأنا في لوح اسم المعبودْ، جَانَا بْعيدْ منْ بْعيدْ بشيء مشهودْ » (2). وبهذا يتضح المنطلق العملي للثورة التي قام بها سيدي عرفة من بعد ذلك بمنأى عن التسامي وممالاة الظالمين، وذلك بالاعتماد على جهود هؤلاء المؤمنين الذين لم يكن لهم في نظر أولئك العلماء الحقّ في التعلم. وقد اعتبر شارح الطريقة أن ضرر هؤلاء العلماء أكثر من ضرر قطاع الطرق لأنّهم أرادوا قطع العامّة عن منفعتهم التي أمرهم الله باكتسابها، وأكّد أنهم خلو من العقل والعلم الحقيقي، فعلمهم لم يتجاوز ألسنتهم ولم يشرق له نور في الجنان، لذلك فعلمهم رسم خياليّ لا حقيقيّ ، واستدلّ بقول مالك: « ليس العلم بكثرة الروايات وإنما هو نور يلقيه الله في القلب » (3) . ونميل الى القول بأن شارح الطريقة أمعن في تفضيل الصوفيّة على الفقهاء في مختلف كتبه،وبصورة تلفت الانتباه، انتصارا منه لشيخه الأكبر وقدوته

1) محمد المسعود الشابي : الدر الفائق في علم الطريقة والاشارات الى الحقائق (مخطوط بمكتبتي) ص 7.
2) المصدر ذاته، ص 13.
3) الفتح المنير، ص 169.

سيدي عرفة الذي أسرف الفقهاء في مناهضته. أورد في « المقرب المفيد » : « وكيف يُسوّى بين العارفين والفقهاء والعارفون أفضل الخلق وأتقاهم لله، وهو تعالى يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (1)، وأما قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (2) فالمراد به العارفون بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، ولا يحمل ذلك على الفقهاء ، لأنّ الغالب عليهم عدم الخشية . وروي هذا عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما ، وإذا استوى النّاس في المعارف فلا فضل لبعضهم على بعض إلا بتوالى العرفان واستمراره إذ متى غاب عن القلب غابت الأحوال الناشئة عن المعارف ففسد القلب بذلك وفسدت بفساده الأقوال والأفعال » (3) .

ومن البيّن أن سيّدي عرفة كان أشعريّ العقيدة صوفيّ التحليل، شأنه في ذلك شأن أغلب الصوفيّة السنّيين، ذلك أن العقيدة الأشعريّة قد استقرّت بينهم ، فلاذوا بها ومزجوها بأنظارهم الصوفيّة في التوحيد، واتسعت عندهم بعد القرن الخامس الهجري للحقيقة المحمّديّة ولوحدة الشّهود ووحدة الوجود . لهذا لا بِدْعَ في أن نجد سيدي عرفة يحمل على الفرق المناهضة ويهجّن من كلف الأشاعرة بتهجينهم وبخاصّة المعتزلة (4) .

وأساسا فإنّ أهمّية سيدي عرفة تكمن في تصوفه ورئاسته للطريقة الشّابّية، وهو تصوف يقوم على الشريعة والطريقة والحقيقة، فالشريعة عنده مقال، والطريقة أفعال، والحقيقة حال، أو كما قال: « الشريعة تعريف، والطريقة تكليف ، والحقيقة تصريف ، انها درجات ثلاث بدايتها هداية وواسطتها تحفّز ونهايتها فناء (5) . لو أردنا تبسيط ما قصد إليه سيدي

1) الحجرات : 13 .
2) فاطر : 28 .
3) المقرب المفيد، المجلد الأول، ص 138.
4) راجع مثلا الفتح المنير، ص 7
5) الدر الفائق، ص 10.

عرفة لقلنا إن الطريقة الشّابّية ليست إلا الجسر الرابط بين الشريعة والحقيقة ، بين المقال والحال . والتلبّس بالحال، وهو منتهى ما يطمح إليه الصّوفيّ، يبقى رهين الانقياد لما توجبه الطريقة، وحسب شارح أقوال سيدي عرفة فلا يصل بحر الحقيقة إلا من سلك البحرين وعبر الطريقين أي الشريعة والطريقة (1)، والطريقة مجاهدة وأخلاق ، وهي قائمة عنده على « التحلّي » و« التخلّي » : التحلي بالصفات المحمودة ، والتخلي عن الصفات المذمومة ، وفي هذا ترويض للنفس وكسر لشهواتها وتأهّب للسّفر إلى عالم الأحوال، وهو عالم يزخر بالرّؤى المتلاحقة، وحسب ابن مخلوف فإن المتذوق يصيب فيه علم التجلّيات (مجموع الفضائل، ص204). ودون أن ندخل في تفصيل مذهبه الصّوفيّ فهذا ما سنقف عنده في دراستنا لأصول تصوفه، فإنّ طريقته الصوفيّة مؤسّسة حسب تعبيره هو على الكتاب والسنّة، ومدينة لجهود والده أحمد بن مخلوف والجنيد وعبد الوهاب الهندي وعلي المحجوب وأبي الحسن الشاذلي وأبي يحيى ابن عقيبة القفصي وأبي مدين (2) . ومعنى هذا أن تصوفه تصوّف سنّي كما أن ثقافته الصوفيّة قد استمدّها من أعمال كبار الصوفيّة في الإسلام من أمثال الجنيد والقشيري والغزالي وأبي مدين وأبي الحسن الشاذلي وأبي العبّاس المرسي وابن عطاء الله السكندري وأحمد زروق وغيرهم .

هل له تآليف ؟

يجب أن نربط الإجابة عن هذا السؤال بالإطار التاريخي حتى نتمكّن من تجليتها حقّا بما يتّسق مع طبيعة الوقائع التي عرفها الشّابّية في تاريخهم إثر سقوط إمارتهم . لا نشكّ في أن سيدي عرفة وبعضا من أسرته ممّن تولّوا رئاسة الطريقة قد كتبوا تآليف في الكلام والفقه

1) الفتح المنير، ص 115.
2) المصدر ذاته، ص 117.

والتّصوّف كمراجع أساسيّة للمريدين ، يقفون من خلالها على أصول الطّريقة الشّابيّة إلا أن تشردهم في الآفاق الذي أعقب سقوط إمارتهم قد أتى على تلك التآليف وجعلها أثرا بعد عين، وبين أيدينا وثيقة تدلّنا على أن دور الشّابيّة بالقيروان قد انتهبت من طرف القرويين وسكان الضواحي عند هروب الشابيّة إثر الهزيمة، ونرى أن قادة الزاوية الغريانيّة وأتباعها هم الذين قاموا بهذا النهب لعميق حقدهم على الشابيّة الذين استأثروا دونهم لمدّة طويلة بالسلطة والثراء في القيروان، فهم قد حرضوا عليهم درغوث أولا ونهبوا دورهم ثانيا، وبيّن أنهم نهبوا من بين ما نهبوا المكتبة الشّابيّة وتآليف أقطاب الطريقة منذ نشأتها وهم أحمد بن مخلوف وسيدي عرفة وأبو الفضل ومحمّد الزفزاف وعبد العزيز وعبد الحفيظ وبدر الدين، وعمدوا إلى إتلافها حتى لا يبقى لذويها ذكر في القيروان.

بيد أنه بقي لسيدي عرفة كتاب صغير متداول على الألسن لشدّة تعلّق الشّابيّة والمريدين به لأنّه يحدّد أصول الطريقة الشّابيّة والحقائق التي يمكن الوصول إليها عن طريقها في لغة يسيرة تغلب عليها العامّية ممّا جعل منه كتابا سهل الحفظ، وقد عمد محمّد المسعود حفيد سيدي عرفة وثامن شيخ للطريقة الشّابية بعد وفاة سيدي عرفة بنحو خمس وخمسين سنة الى أن يلتقط هذه الرسالة من الأفواه فحافظ ما أمكن على صياغة سيدي عرفة وصاغ هو بنفسه بعضها ، وألّف بين أجزاء الرسالة من جديد وسماها «**الدّرّ الفائق في علم الطريقة والإشارات الى الحقائق**» . ونحن لا نذهب الى القول بأن المسعود هو مؤلف الرسالة كما ذهب الى ذلك ابنه علي الشّابّي تاسع شيخ للطريقة الشّابيّة والمتوفّى سنة (1663/1074) في كتابه « مناقب محمّد المسعود الشّابي » (1) لأنّ المسعود نفسه صرّح في شرحه « للدرّ الفائق » في الباب الرابع من كتابه

1) مخطوط بمكتبة الوالد المرحوم الشيخ عمار بن رمضان الشابي، ص 72.

« الفتح المنير » (1) بقوله : « وأمّا ما ربّى به [سيدي عرفة] تلميذه فهو ما رسمناه في « الدر الفائق » ، وإنما أتبع ألفاظه بشرح موجز بحسب الاستطاعة » (2) وفي شرحه (لفصل الله موجود) من « الدر الفائق » قال : « هذا مما ربّى به الشيخ [سيدي عرفة] التلميذ وجعله قريبا من أفهام الأميين وأظنه لم يسبق إليه » (3) ، وفي شرحه لقوله في « الدرّ الفائق » « ذاته قديمة وصفاته قديمة . . » قال ما نصّه : « هذا تدريب منه [سيدي عرفة] للمبتدىء وتمرين له على عقائد التوحيد لأنّه يغتفر في هذا العلم من التكرار ما لا يغتفر في غيره لأنّ الخطر فيه عظيم فينبغي فيه التبيين مع مزيد الإيضاح لا سيما كون الشيخ [سيدي عرفة] إنما جعل هذا للأمّيين فيغتفر في حقّ معلمه تكرار العبارة وتلوينها على حسب فهمه » (4)، وهذا كله يدلّ على ما قررناه آنفا من أن الرسالة من حيث معانيها هي لسيدي عرفة ومن حيث ألفاظها هي في أغلبها له والبقيّة لمحمّد المسعود .

تقع الرسالة في ستّ عشرة صفحة من القطع المتوسّط . مقاسها : 17×24 . مسطرتها : 25 . حالة النسخة : حسنة . خطّها : مغربيّ مقروء . النّاسخ : الشيخ أحمد بن بورقعة الشّابي . تاريخ النسخ : شعبان سنة 1320 هـ .

لهذه الرسالة قيمة متميّزة لأنها المصدر الأصلي لمعرفة الطريقة الشّابية ، وزاد من قيمتها هذا الشرح الوافي الذي وضعه لها المسعود في بابه الرابع من كتابه « الفتح المنير » ، ولسوء الحظّ لم يصلنا هذا الشرح كاملا

---

1) يبدأ هذا الباب الرابع وهو (في مبنى طريقتهم وسدادها وما ربوا به تلميذهم) من صفحة 118 ويقف النص عند صفحة 274 دون أن يتم هذا الباب، وهو اخر الكتاب في النسخ الثلاث الموجودة بين يدي.

2) الفتح المنير، ص 118.

3) المصدر ذاته، ص 243.

4) المصدر ذاته، ص 250.

بل إنّ ما نجده من الشرح لم يستغرق من « الدارّ الفائق » أكثر من أربع صفحات إلا عشرة أسطر، ومع ذلك فعدد صفحاته (156) مما يدل على ضخامة القدر الذي لم يصل إلينا من الشرح.

وبداهة فإنه لا تتأتّى دراسة الطريقة الشّابّية إلا بالاعتماد على ثلاثة مصادر أساسيّة: أحدها هو هذه الرسالة مع ذلك القدر من شرحها، ومن الملاحظ أن مترجمي سيدي عرفة، المعجبين به والمتحاملين عليه على السّواء دأبوا على نسبة الطريقة إليه دون والده، فمحمد المسعود قال في الحديث عنه: وفّقنا الله لاتباع طريقته » (1)، والفقيه عمر بن محمّد الكمّاد الأنصاري القسنطيني المتوفّي سنة (1552/960) ألّف كتابا في الردّ على سيدي عرفة سمّاه **« الردّ على الشّابيّة: المرابط عرفة وصحبه »** (2)، وهذا يدلّ على أن سيدي عرفة هو الذي أحكم صياغة هذه الطريقة وحدّد ملامحها القاطعة، وبجهوده خفت تأثير الطريقة الشاذلية والطريقة القادريّة لأنهما آثرتا العزوف عن السياسة في ذلك المضطرب من الأحداث، وأصبحت الطريقة الشّابيّة لمسلكها النضالي أكبر طريقة في إفريقيّة في القرن العاشر.

مكانته في عصره

لقد شغل سيدي عرفة عصره وملأ المسامع في المغرب والمشرق: سعة في العلم، وعرامة في التصوف، وبراعة في تربية المريدين، وتوثب في الطموح، وحدّة في الإحساس بتاريخ إفريقيّة وقيمها، ومنافحة للمتحلّين مهما تكن دياناتهم. كل هذه تآلفت في تكوين شخصيته لتجعل منه الرائد الحقيقي لإصلاح المجتمع وللثورة على العملاء والدخلاء في القرن العاشر دون مدافع، لقد خصّه مؤلف « الفتح المنير » بقوله: «وناهيك بمن

1) المصدر ذاته، ص 1.
2) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب لابن فرحون، ص 197.

أصلح الله به البلاد » (1). إن مصلحا كهذا حرّي بأن ينقسم المعنيون بأمره إلى قسمين : قسم يتملكه الإعجاب ويغذوه التأييد، وآخر يسيطر عليه الحقد وتتغلغل فيه الكراهية. ويمكن أن نتخذ أنموذجا للقسم الأول القبائل التي وقفت حياتها في وفاء واقتدار على نصرة الشيخ وعلى الحرب معه ضدّ أعداء إفريقيّة من الأتراك والإسبان والحفصيين وذلك من خلال ما نقله عنها محمّد الميسعود في « الفتح المنير » من روايات تمجّد كلها سيدي عرفة.

إنّ قيمته في هذا الصدد تتبدّى في أنه هو الذي أقحم هذه القبائل في سياق التاريخ وأتاح لها أن تلعب دورا نشيطا في صياغة الأحداث بإفريقيّة بعد أن ظلّت طيلة خمسة قرون بمنأى عن هذا السّياق، تعيش على الهامش وتمتهن الفوضى. لقد ظفرت بهويّتها القوميّة على يد سيدي عرفة الذي شحذ فيها الإحساس المشترك بوحدة التاريخ والوطن والقيم في وقت اختلطت فيه السّبل وبدا فيه للمسلمين أن الخضوع للأتراك هو من الدين وأن الوفاء لاحتلالهم هو الوفاء للإسلام نفسه، فتكوّن من هذه القبائل جيش قوميّ ليس له من هدف إلا تحرير إفريقيّة من الخونة والغزاة مهما تكن ديانتهم.

لقد كان محمّد المسعود وفيّا لمصادره، كلفا بالروايات التي احتفظت بها القبائل في شأن « **صاحب القيروان** » حسب ابن أبي دينار ومقديش، كما كان هو بدوره معجبا به الإعجاب كله باعتباره الصوفي الفذّ والمربّي القدوة الذي جمّع القبائل على التقوى والفداء بعد أن كانت أشتاتا تغلب عليها الردة والحرابة. حدّد في مقدمة « الفتح المنير » سبب تأليفه له فحصره في رغبته في الترجمة لشيخ الطريقة وإمام الحقيقة أحمد بن مخلوف ولأولاده وقد خص سيدي عرفة دون سائر الأبناء بمختلف أوصاف

1) الفتح المنير، ص 74.

الإجلال والإكبار، فهو خليفة والده « ووارث المقام الذي كشف عن وجه الحقيقة النقاب وأزال عنها الحجاب وشرع من بيتها الأطناب ! وتكلّم فيها بالعجب العجاب سيّد القوم وإمامهم وأعرفهم بالله وأدلّهم عليه) (1).

ويستطيع القارىء أن يلمس بيسر أن المؤلف ما ألف كتابه أساسا إلا للترجمة لسيدي عرفة وشرح أقواله والاستدلال بآرائه وللإحالة على انقياد المريدين له من مختلف القبائل مع إبراز مكانته في عصره وبعد عصره في مواطن الإسلام وبلاد النصارى على السواء. وبناء على أنه يؤكّد في مختلف أبواب كتابه على أن سيدي عرفة هو الباني الحقيقي للطريقة الشّابيّة فإنّه فصّل في الحديث عن عميق تأثيره وعن طبيعة رسالته في فترة عصيبة من تاريخ إفريقيّة فهو قد أصاب مكامن النجاح، فالطريقة قد تألقت بعد خفاء، وردّة القبائل قد اختفت بعد صولة، والإسلام قد أينع في القلوب بعد أن كانت مقفلة دونه، ووحدة العامّة قد تحقّقت على يده بعد طول تشتّت يقول : « فلما صار له الأمر فاق أهل العصر، وأظهر الله على لسانه الفتح وفي يده النصر، فأشرق الله به النور في قلوب المؤمنين، وفرّ من قربه الشياطين، وانتشر نوره حتى عمّ الأقطار، وكثر مريدوه في جميع الأمصار، فأظهر الله به الطريقة بعد خفائها، وأشرق نور الحقيقة بعد غيابها، وبصّر به أعينا بعد عماها، وألف به بين القلوب بعد تشتت آرائها، فشدّت إليه الرحال، وأسرع إليه الرجال، فكان للعارفين شمس سمائهم، وللسالكين نجم ابتدائهم، وللواصلين قمر اهتدائهم، فشرع من بيت الطريقة الأطناب ! وفتح من مغلقها الأبواب، فهو نور سناها. فكل من صافحه نجح، وكل من أخذ عنه أفلح، فما يكاد ينظر إليه المريد حتى يوصله الى الله في أقرب مدّة فأتى في الطريقة بالعجب » (2). وهو في إحيائه للعزائم وإيقاظه للهمم نسيج وحده (3). وقد ألح المؤلف كثيرا

1) ص 1 – 2.
2) المصدر ذاته، ص 73.
3) المصدر ذاته، ص 96.

على أن إسلام القبائل قبل سيدي عرفة لم يكن إلا إسلاما شكليا لا غناء فيه وأنّه هو الذي أعادها إلى حظيرة الإسلام فظهر من بينها من أصبح من الهداة المرشدين على نحو ما بيّنه قوله : « فقد أحيا الله به عبادًا لم تكن فيهم ولاية ، ولم يعرفوا علما وإنما يعمّهم اسم الإسلام فقط ، ولم يتّصفوا بشرط من شروطه إلا نادرا منهم حاشا صوم رمضان، فلما مشى فيهم واعترفوا به وأخذوا على يده شعشع فيهم نور الإسلام وانتشر، وخمد الباطل واندحر، وحقّقوا الإيمان، وبلغ من بلغ منهم إلى مقام الإحسان، فبلغوا في الشريعة وتكلموا في الطريقة ونازلوا الحقيقة فعرفوا اسم الأسماء والتخلّق بالصفات وعرفوا الأحوال وعبروا المقامات » (1) . وحسبنا مما أوردناه تبيّن مكانة سيدي عرفة لدى تلاميذه ومحبّيه أثناء تولّيه رئاسة الطريقة ورئاسة الدولة القومية ذات الطابع الصوفي التي أسسها .

إن اكتسابه لهذه المكانة مرتبط أساسا برئاسته للطريقة الشّابية إذ عن طريقها وثق صلته بالقبائل وأمعن في إرشادها وتربيتها روحيّا وسياسيّا فأسلست له قيادها، وسيرته معها ينطبق عليها بحقّ ما استخلصه ابن خلدون من قبل في تحديده لسبب انقياد الأعراب واجتماعهم لإصابة الملك، وهو منحصر في الوازع الديني الذي يبعثه فيهم النبيّ أو الوالي « والسبب في ذلك أنهم " الأعراب " لخلق التوحّش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمّة والمنافسة في الرئاسة، فقلّما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنّبوّة أو الولاية كان الوازع لهم في أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم. وذلك بما يشملهم من الدين المُذْهِب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبيّ أو الوليّ الذي يبعثهم على القيام

---

1) المصدر ذاته، ص 96.

بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلّب والملك » (1).

وإذن، كيف وصل إلى هذه الرئاسة ؟ وما هي سبل الاتصال التي سلكها لتوثيق صلته بالقبائل ؟. سبق أن أشرنا إلى أنّه بعد أن تولى محمّد الكبير رئاسة الطريقة إثر وفاة ابن مخلوف سنة (1492/898) أصاب الطريقة ركود بعد كل الازدهار الذي عرفته على يد مؤسسها وكانت تسلك ضمن الطرق الكثيرة التي تزدحم بها القيروان والتي كان يعوز قادتها الطموح والتخطيط ودعاتها أسباب التأثير فتكتفي غالبا بمريديها الذين انضموا لها متابعة منهم لأثر آبائهم ، وحسب « الفتح المنير » فلقد بقي محمّد الكبير رئيسا للطريقة سنتين ونصفا أو نحو ذلك ، دون أن يحقّق أي ضرب من ضروب النجاح، فصوت الطريقة في عهده قد خفت ونور الحقيقة قد احتجب (2). ولما أزفت وفاته أوصى بالرئاسة لأخيه عرفة وأذن له بإعطاء العهد ، وحين حدثت الوفاة حوالي منتصف سنة (1494/900) تولاها سيدي عرفة ، فانتقل بها نقلة جديدة أضفت عليها رونقها وأمدّتها بإمكانات لم تعهدها من قبل بيد أن هذا لم يحدث بيسر وإنما اقتضى ذلك من سيدي عرفة تسعا وأربعين سنة قضاها في مثافنة الصّعاب وتأليف القبائل من حوله بالتربية الروحيّة والسياسية وفي مواجهة المواقف الحاسمة، وأهمّها :

1 ــ منازعة قماش المسعودي الحناشي له في رئاسة الطريقة .

2 ــ سجن السلطان محمّد الحفصي له قبل سنة (1525/932) وهي سنة وفاة السلطان، وذلك بسبب وشاية من حظيّه العالم مغوش .

3 ــ حروبه ضدّ الأتراك والإسبان والحسن الحفصي .

1) ابن خلدون : المقدمة، ج 2، ص 626 .
2) الفتح المنير ، ص 73 .

وقد خرج منها كلّها ظافرا وتحقق ما كان قد هفا إليه ابن مخلوف في حياته حين قال : « أما زماننا فنور وإشراق وأما زمن عرفة ففتح وأرزاق » (1) .

إن أول موقف حاسم واجهه سيدي عرفة هو منازعة قماش المسعودي له في رئاسة الطريقة إذ بمجرّد أن توفي محمّد الكبير ادعى قماش المسعودي أنه أولى بالرئاسة منه، فجدّ خلاف بينهما لم يحسم بيسر .

ينتسب ڨماش المسعودي إلى أولاد مسعود بجهة سوق أهراس، وهم بطن من بطون الحنانشة الذين تشمل مواطنهم دوائر القالة والناظور وڨالمة وسوق أهراس وتبسّة (2)، وكانوا قد تحوّلوا عن نصرة البلاط الحفصي في القرن التاسع الهجري وأصبحوا أكبر أنصار أحمد بن مخلوف، وقفوا أنفسهم على التتلمذ له والعمل بإرشاده، وناصروه بعصبيّتهم وأموالهم فتأكّد نفوذه في مواطن كثيرة من افريقيّة، وكانوا يفدون إليه بالقيروان كما كان يتردّد عليهم في مواطنهم، ولقد تبنّى ابن مخلوف ڨماشا منذ الصغر وربّاه كواحد من أبنائه وعلمه فثقف الفقه والتوحيد وأصول الطريقة الشابيّة فبدا له بعد وفاة شيخه أن لا ينازع محمّدا الكبير لأنّه أكبر منه سنّا، ولمّا توفّي بادر سيدي عرفة بالذهاب إلى الحنانشة ليكسب مبايعتهم وكان في صحبته ڨماش فأسرع هذا بمنازعته فيها نظرا إلى أنه ابن روحيّ لابن مخلوف وأن هذا كان قد قدّم محمداً الكبير لكبر سنّه، فتصور أن هذا كاف لاستئثاره بالرئاسة دون سيدي عرفة فقد قال لسيدي عرفة أثناء وجودهما في وطن أولاد مسعود « المقام لي فأنا أكبر منك وأحْنا كلنا أولاد الشيخ فقال سيدي عرفة : أنا أولى منك،

1) المصدر ذاته، ص 95 .

2) لمزيد التفصيل، راجع أسفله .

أنا ولد الصلب والقلب فأنا أولى بالميراث، وأنتَ ولدُ القلب فقط، فلم يسلّم وتشاحّا في ذلك » (1) .

فانقسم أولاد مسعود بدورهم الى قسمين : قسم أيّد ڨماشا، وقسم أيّد سيدي عرفة . لكن ڨماشا لجأ إلى المكر فكلّف أحد أعوانه بقتل سيدي عرفة، وأعطاه « مخلبا » لتنفيذ خطته. فقصد الناحية التي اعتزل فيها سيدي عرفة، ولما وصل إلى مجلسه وبدت عليه سمات الاضطراب أدرك الشيخ أنه مرسل من طرف ڨماش ليقتله فكلّف من معه بإلقاء القبض عليه ففعلوا فسلبوه مخلبه واعترف لهم بالخطّة . وكانت هذه العمليّة سببا في مبايعته سيدي عرفة واختفاء ڨماش من الميدان .

وبيّن أن ڨماشا في منازعته تلك كان يعتقد من منظور قبَلي أن العصبيّة القبليّة هي التي ستحسم الخلاف لصالحه ، وأن العصبيّة الروحية ليست إلا شبحا لا يقوى على النّهوض ، أو طلاء لا يلبث أن يتبدّد أمام رغبة الحنانشة في التحكّم .

إن خروج سيدي عرفة ظافرا من هذه المحنة قد أتاح له مزيدا من الحركة والثبات والتوثّب نحو آفاق لم تنته إليها الطريقة الشّابيّة من قبل، وقد أفاد بحقّ من الأموال التي يقدمها له الحنانشة، وكانت تعطى لابن مخلوف باعتبارها زكاة شرعيّة، فحوّلها سيدي عرفة الى « عادة »، واستطاع عن طريقها أن يواجه تزايد الأنصار وما يطلبونه من نفقات حين كانوا يفدون إليه بالقيروان. ظل سيدي عرفة يجنّد القبائل لدعوته طيلة اثنتين وأربعين سنة تمتدّ بين سنة (1494/900) وسنة (1535/942) وهي السنة التي شهدت نجدته لأهل تونس الذين فتكت بهم جيوش شارل الخامس ، كما عرفت قيام الدولة الشابيّة، وقد أضاف الى الحنانشة وحلفائهم (خمير وورغة وشارن وأولاد بوغانم والفراشيش والنبايل والقاطنين بالجنوب

---

1) الفتح المنير، ص 97 .

الجزائري من الزيبان إلى تخوم نفطة)، وهم الذين جنّدهم أبوه؛ قبائل دريد وأولاد سعيد والهمامة وطرود وأولاد بالليّل وأولاد مهلهل ومرداس والنمامشة والذواودة والحراكتة وبني بربار ، وفرض عليها بدورها « العادة » فازداد ثَرَاءً إلى حدّ يمكن القول معه إن الأموال التي كانت بين يديه قبيل تولّيه السلطة بالقيروان كانت تفوق ميزانية الحسن الحفصي التي هي (150) ألف = **Doblas** دينارا ، حسب مذكرة Ochoa d'Ercilla المؤرخة في سنة (1533/940) (1) . وإن نفوذه كذلك كان قد قلّص ظلّ الدولة الحفصيّة قبل أن يجهز عليها ، إذ تأكد في منطقة السّاحل وفي وسط تونس وغربها وشمالها الغربي وجنوبها الغربي وفي منطقة قسنطينة إلى الأوراس وفي بلاد سوف. وهذا ما عناه سيدي عرفة بقوله الذي نقله عنه علي بن سلمان البرباري : « **واد بجرّ حارة من حارات القيروان وأرڤو حارة من حارات القيروان** » (2)، بمعنى أن هذين المكانين على بعدهما يخضعان لنفوذه كالقيروان تماما . وإذا أدركنا أن وادي بجر هو واد يشقّ جبل ششار على مقربة من تيزڤوارين والعامرة، وأن جبل أرڤو يقع بالقرب من جبل الجرف بولاية تبسّة، وكلاهما في الجزائر ، استطعنا أن نعرف المجال الجغرافي لهذه المناطق الشاسعة التي تكوّن مملكة سيدي عرفة قبل سنة (1535/942) .

إن اتصال المريدين بشيخهم كان يتمّ في شكلين :

الأول : وفادتهم عليه بالقيروان والبقاء في ضيافته مدّة قد تطول وقد تقصر للتتلمذ عليه والنهل من فيض تصوفه .

---

1) راجع،

Elie de Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574), in Revue Africaine, 1878, P. 269

سنشير الى هذا المصدر بـ(وثائق جديدة عن تاريخ الا حتلال الإسباني في إفريقيا) .

2) الفتح المنير، ص 106 .

والثاني : زيارته لهم في مواطنهم مهما نأت ليقف بنفسه على حقيقة ما كان يقوم به مقدّموه من الرجال والنساء الذين كان يعيّنهم لهذه المهمّة يداخلون العامّة ويرشدون النسوة ، وكذلك ليرشدهم بنفسه ويحضهم على نبذ الفرقة والتهيؤ لساعة العسرة .

وحسب مبارك الساري نقلا عن بدر الدين الشابي سابع شيخ للطريقة الشابيّة ، فقد بلغ عدد الذين صافحوا سيدي عرفة وأخذوا منه العهد(1) أربعة عشر ألفا وماثة ألف (2) ، وهو نفسه كان يدرك أهميّة عدد من اعتنقوا طريقته ، لذلك قال لتلميذه قاسم بن عيسى العكرمي انه هو الرجل الأول بالقيروان (3) .

إن وفادة تلاميذه عليه بالقيروان دون انقطاع وبعدد كبير يدفعنا إلى التساؤل : هل كانت له زاوية يستقبل فيها زواره ويباشر بها إرشاده وتربيته ، شأنه في ذلك شأن غيره من شيوخ الطرق الكثيرة في القيروان؟ لا نظفر بإجابة قاطعة في « الفتح المنير » ولكننا لا نعدم بعض القرائن التي تفيد بأن له زاوية كبيرة بالقيروان يستقبل بها المريدين ، منها أن عدد الزوار الذين زاروه ذات مرّة أربعة وأربعون ومائة ، وحين قدّم لهم « النواب = الوكلاء » الأكل بعد تقسيمهم إلى (دراز = جماعة) (4) تصوّر أحدهم أنّه لن يصيب أكلا في هذه الليلة لكثرة المريدين ، لكن سيدي عرفة الذي أشرف بنفسه كعادته على أكلهم فهم ما جال بخاطر مريده فأمر أحد النوّاب بأن يضع أمام هذا المريد (قصعة من الطعام = الكسكسي) (4)

---

1) نص العهد الذي يقوله سيدي عرفة للفقير عند مصافحته له (اللهم إني قد جئتك هاربا وجلست بين يديك تائبا ، اغفر لي ما مضى واحفظني فيما بقي وتب علي توبة صادقة انك أنت التواب الرحيم ، اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا فيما لا أعلم وأنت أعلم واستغفرك فيما لا أعلم ، هذا عهد الله وميثاقه أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا. فيقول الفقير : نعم الى اخر الألفاظ . ثم يقول [الشيخ] له وأن تصلي الصلوات الخمس وأن تفعل ما أمرك الله به وتنتهي عما نهاك عنه وارشد نفسك في طريق التصوف وأن لا تعصي الشيخ في معروف. والتوبة أولها جنون ووسطها سكون وآخرها فنون). الدر الفائق ص 9 .
2) الفتح المنير ، ص 74.
3) المصدر ذاته ، 103 .
4) النواب والدراز وقصعة من الطعام وردت في الفتح المنير ، 101 .

ففعل. ليس يهمّنا في هذا الصدد مبلغ الإكرام بقدر ما يهمّنا العدد الكبير من الزوار وما يقتضيه من مكان يتّسع لإيوائهم، ولا يكون هذا المكان بطبيعة الحال إلا مقرا للزاوية يوفر لهم الراحة التي يطلبون، ويجعل من وفادتهم إلى القيروان للإفادة من شيخهم أمرا ميسورا وممكنا باستمرار.

إنّ كثرة زوّار سيدي عرفة أصبحت ظاهرة لازمت القيروان، وقد تسبّبت غير ما مرّة في نقص فادح في المواد الغذائيّة وفي غلائها، كما توضحه الرواية المتواترة لدى الشّابيّة حتى اليوم. ومفادها أن أهل القيروان رفعوا شكواهم إلى سيدي عرفة لمّا انعدم اللحم بسبب كثرة زواره، فقرّر أن يلجىء بعض زواره الى مبارحة القيروان بوسيلة لم تتضح لهم حتى النهاية؛ لقد أخفى سيدي عرفة بالطابق الأوّل من منزله بعض الشياه وكلّف «النائب = الوكيل» بأن ينادي في الزوار بهذه العبارات: «بما أنّه لم يعد يوجد لحم في المدينة، فعلى من يحبّ الشيخ ويعتقد فيه أن يذهب الى داره ليضحّي بنفسه كي يقدّم لحمهُ للضيوف». فاستجاب منهم واحد فثان فثالث وهكذا الى السابع. وكلّما دخل واحد منهم أمر سيدي عرفة بذبح شاة عوضه، وبإسالة دمها خارج المنزل أمام العموم. وبعد السّابع نزل النائب ليجلب متطوعا آخر، فلم يجد في السّاحة أحدا إذ فرّ الجميع، عندئذ قال سيدي عرفة: «أراحنا الله منهم وأراح أهل المدينة».

وأكثر من ذلك فإننا نميل إلى القول بأن الزاوية لم تكن من إحداث سيدي عرفة وإنما كانت قائمة منذ عهد مؤسس الطريقة؛ لأنّه لا يعقل أن يستقبل أحمد بن مخلوف الحنانشة على كثرتهم إلا في مكان قارّ يتّسع لإيوائهم خاصّة، ونحن نعلم أن القيروان تزدحم بالزوايا لاستقبال أتباعها إلى حدّ بدا معه أن هذا الأمر تقليد لا يمكن التخلي عنه، وذلك بحكم قيام هذه الزوايا بمهمّتين متظافرين في الوقت نفسه: الإرشاد الذي يتولاه الشيخ، وتوفير الإقامة للمريدين من أبناء القبائل الذين يفدون الى القيروان

لقضاء حوائجهم في كثير من الأحيان، وفي هذا النطاق لا يتصوّر أن يكون لشيوخ الزوايا أعداء ابن مخلوف ، وبخاصة شيخ الزاوية الغريانيّة مقرّا للزاوية دونه ، إذ بدون الزّاوية لا يستطيع المحافظة على جميع أتباعه مهما تكن محبّتهم له ولا يتمكّن من تأليف أتباع جدد من حوله .

أهم القبائل الموالية لسيدي عرفة :

الحنانشة :

تتصدر هذه القبائل جميعا قبيلة الحنانشة والقبائل الخاضعة لها، ويعتبر انضمام الحنانشة للطريقة الشابيّة في عهد ابن مخلوف على يد أحد أبنائها أحمد بن نصر المقنعي تلميذه الوفيّ ومقدّمه الأثير مرحلة تحوّل حقيقيّة في تاريخ الطريقة الشابيّة . ومنذ أن انضمّت لشيخ الطريقة بعد سنة (1473/878) تاريخ رجوع ابن مخلوف من الحجّ بدت الطريقة القوّة الأولى في القيروان بما أتيح لها من كثرة الأنصار ووفرة الأموال .

فمن هم الحنانشة ؟ أثبت L. Feraud في دراسته القيمة عن الحنانشة التي أصدرها في « المجلّة الإفريقيّة » (1) أنهم يتكوّنون من ثلاثة عناصر اختلطت مع بعضها وهي :

أ ـ الشاويّة وهم بربر الأوراس من هوارة وحراكتة وبني بربار ونمامشة (2) .

ب ـ هوارة وإخوانهم أداسة وهم فرعان لشعب زناتة الذي كان يعيش في حالة بداوة بطرابلس، ومع الفتح الإسلامي تحوّل منها إلى المغرب.

---

1) الحنانشة، 1874 .

2) قارن، مونشيكور : القيروان والشابية، ص 39 .

ج – عرب بني هلال وبني سليم الذين حملوا على إفريقيّة في القرن الخامس الهجري .

وهذ الاندماج أدّى في النهاية إلى تعريبهم .

شهر الحنانشة بمناصرتهم للدولة الحفصية إلى نهاية المنتصف الأوّل من القرن التّاسع ولما انضمّوا للشيخ ابن مخلوف بعد سنة (1473/878) وناصروا أبناءه من بعده وبخاصّة سيدي عرفة مؤسّس الدولة أصبحوا أشدّ أعداء الحفصيين . وتضمّ المنطقة التي استوطنوها الشمال الغربي من البلاد التونسيّة المصاقب للجزائر والذي يقع على ضفّة مجردة ، وكذلك مقاطعة قسنطينة الى جبال الأوراس، وكانت تقع تحت نفوذها جملة من القبائل التونسيّة خمير وورغة وشارن وأولاد بوغانم والفراشيش، وبذلك كان الحنانشة قوّة حقيقيّة عزّ نظيرها في إفريقيّة . وظلّوا هكذا إلى القرن العاشر الهجري ، فقد اعتبرهم حاكم عنّابة الإسباني Alvar Gomez el Jazal في رسالته المؤرّخة في (13 سبتمبر 1535) إلى ملك اسبانيا القوّة الحقيقيّة في المنطقة المصاقبة لعنّابة ، وتحدّثت عنهم وثيقة اسبانيّة مؤرخة في (1536/943) بما نصّه « لقبيلة الحنانشة شيخان يقودان ألفا وخمسمائة من الرّماة : القائد الأوّل يسمّى المسعدي بن ناصر بن أحمد مرداس، رئيس ألف منهم، وخيامهم منصوبة بتبسّة بمنأى عن عنّابة بمسافة يومين . والقائد الثاني هو الشيخ عبد الله بن صولة ويقود خمسمائة » (1) . وفي منتصف القرن السادس عشر عدّهم Marmol من السكّان الذين لهم أهمّية ، وهم يقطنون في أرياف قسنطينة وعنّابة وبإمكانهم مع أولاد يحيى تجهيز خمسين ألف فارس (2). وأورد

---

1) وثائق جديدة عن تاريخ الإحتلال في إفريقيا، في المجلة الافريقية، عدد 123 ، ماي 1877 ، 1877 ، ص 219 .

2) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 39، وراجع أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية، ص 61 – 62 .

L. Feraud أن أراضي الحنانشة تعتبر الأراضي الأكثر خصوبة في إفريقيّة الحفصيّة ، فهي غنيّة بالحبوب وبالثروة الحيوانيّة ، لهذا دأب أهل إفريقيّة على الاعتماد عليها في معيشتهم ، وقبيلة الحنانشة قويّة كذلك بنفوذها لخضوع مجموعة من القبائل التونسيّة لها (خمير وشارن وورغة وأولاد بوغانم والفراريش) .

لقد استمرّ سيدي عرفة في توثيق صلته بالحنانشة بعد الذي تحقّق في عهد أبيه، وفضلا عن زيارتهم له بالقيروان،فقد كان يكثر من التردّد عليهم،وظلّوا في نظره كما كانوا في بداية أمره حين أعزّوه بنصرتهم وخصّوه بمبايعتهم ، فلم يؤثر عليهم قبيلة أخرى بالرّغم من أهمّية القبائل التي تحلّقت من حوله. كانت قبيلة الحنانشة درعه في حروبه ومعتمده في أمنه وثروته التي لا ينضب لها معين، وبالرّغم من النجاح الذي أصابه ابن مخلوف بينهم فإن ما قام به سيدي عرفة بينهم من مزيد الإرشاد لمن اعتنق الدعوة وإقحام من لم يدخل فيها قبلُ يعتبر كسبا فريدا اقتضى منه جهودًا استمرّت تسعا وأربعين سنة، وقد أثمر فيهم إرشاده فخفّت حدّتهم وحسن دينهم وركنوا إلى الانضباط، وكان الكثير منهم قبل لا يعرف من الإسلام الا اسمه فلم يتصف بشرط من شروطه إلا نادرا ولا أدرك ركنا من أركانه عدا صوم رمضان، وحسب تعبير صاحب « الفتح المنير » : « فلمّا مشى فيهم سيدي عرفة واعترفوا به وأخذوا على يده شعشع فيهم نور الاسلام وانتشر وخمد الباطل واندحر . وكذلك كان شيخنا، فقد أحيا الله به عبادا لم تكن فيهم ولاية، ولم يعرفوا علما وإنما يعمّهم اسم الاسلام فقط، ولم يتصفوا بشرط من شروطه إلاّ صوم رمضان ، فلما مشى فيهم واعترفوا به وأخذوا على يده شعشع فيهم نور الاسلام وانتشر وخمد الباطل واندحر ، وحقّقوا الإيمان ، وبلغ من بلغ منهم إلى مقام الإحسان فبلغوا في الشريعة ، وتكلّموا في الطريقة ، ونازلوا الحقيقة » (1) .

1) الفتح المنير، 96 .

ولقد سأله بعض تلاميذه عن مفهوم الكرامة فقال لهم: « ما بعد الاستقامة كرامة » . بمعنى أن الكرامة لا تعني عنده الا التلبّس بالاستقامة ونشرها بين النّاس. وقد استدلّ لهم على ذلك بما فعله في تلّ الحنانشة في إحدى زياراته لهم، فقد هدى الله به جماعة من الرجال والنّساء وجدهم عراة يلعبون، دون أن يكون لديهم حرج في ذلك، فأصبحوا بفضل توجيهه يعرفون كلام الله وسنّة رسوله، وتلك هي الكرامة (1). وبالرغم من أن سيدي عرفة قسا عليهم ذات مرّة حين هبّوا أثناء زيارتهم له للسلام على أبناء الشّابيّة كما يوضّحه قوله « الله الله يا فقراء، لا بدّ يجوكم لبلادكم وتعودون تدرّقون عليهم » (2) فإنّهم لم يتخلّوا عنه في وقعتي باطن القرن والمنستير .

ومن الملاحظ أن قادة الحنانشة هم أيضا كانوا يترددون عليه ويستمعون إلى إرشاده وإلى تحليله للأوضاع السياسيّة، وذلك بقصد تهيئتهم للثورة، إذ ليس من الصدفة زيارة أحد شيخيهم له ، وهما القائدان العسكريان للحنانشة بتبسّة. وهذا الشيخ ورد ذكره في الوثيقة الإسبانيّة التي أشرنا إليها آنفا (3) تحت اسم المسعدي بن ناصر بن أحمد مرداس قائد ألف من الرّماة، وقد ذكره صاحب «الفتح المنير» تحت لقب (المرداسي شيخ الحنانشة)، وينقل عن محمّد بن الطاهر بن عرفة أنّه سمع من المرداسي يقول: ذهبت إلى القيروان قبل أن أكون شيخا وزرت سيدي عرفة فقلتُ له : إن والدي ووالدتي يسلّمان عليك فقال لي سيّدي عرفة لماذا الكذب وهما لم يكلّفاك ؟ فخجلتُ، ثمّ قال لي (أنت شيخ الحنانشة) فكان كما قال (4). يتّضح من هذا أن المرداسي زار سيدي عرفة قبل أن يكون

1) المصدر ذاته، ص 97 .
2) المصدر ذاته، ص 105 .
3) وهي مؤرخة في 1536/943 .
4) الفتح المنير، ص 102 .

شيخا ، أي قبل سنة (1536/943) سنة تاريخ الوثيقة ، وبلا شك فإنه حين تولى المشيخة وقد أمل له فيها سيدي عرفة ، أمعن في مناصرة شيخه وفي القتال الى جانبه في وقعة باطن القرن سنة (1535/942) وهي الوقعة التي شهدت اندحار الحسن الحفصي وقيام الإمارة الشّابيّة .

ومن الثابت تاريخيّا أن الحنانشة، وفي مقدّمتهم المرداسي، أسهموا في هذه المعركة الفاصلة إسهاما بينا، وذلك بالرغم من المساومات التي استهدفوا لها من طرف خير الدين سنة (1534/941) أي قبل تلك الوقعة بسنة حين عرض عليهم الانفصال عن الشّابيّة والانضمام له في مطاردته للحسن الحفصي، وكان قد أهدى إليهم كمية من البرانس من القماش الأزرق وعرض على كلّ من يلقي القبض منهم على الحسن مبلغ ثلاثين ألف Ducats(1). بيد أن هذه المفاوضات سرعان ما توقّفت حسبما سنوضحه في موضعه. ودخل جيش شارل الخامس الى تونس بالتماس من الحسن الحفصي الذي أشار عليه مملوك من جنوة اسمه (Ximea) بالاستنجاد بالإسبان، فتقهقر خير الدّين وجنوده إلى داخل البلاد ثم قصدوا عنّابة، ومنها اتجهوا إلى الجزائر وأعيد الحسن الى عرشه من طرف المسيحيين فأثار هذا ثائرة أهل إفريقية، وقرّر سيدي عرفة أن الحسن مرتدّ تجب الإطاحة به، وأخذ يهيّء للثورة فبادر الحنانشة بإرسال جيش الى من اعتبروه رئيسا دينيّا لهم وقائدا لم يتخلّوا عنه قطّ، فكان لهم شرف الإسهام في تحقيق النصر في تلك الوقعة الفاصلة(2). وقد أدرك الحسن إثر هزيمته الثانية على أيدي الشابيّة بالمنستير في 12 نوفمبر 1540 أن القوّة الحقيقيّة التي تأيّد بها سيدي عرفة ضدّه هي الحنانشة ، لذلك صمم على إصلاح علاقته معهم حتى يتمكن من

1) تزن (الدوكة) التي ضربها السلطان الحفصي 24 قيراطا، وهي تعادل (دوكة) أروبية وثلثا، راجع، الوزاني الفاسي : وصف إفريقية، ج 2، ص 388 .
وحسب حسن حسني عبد الوهاب فالدوكة تعادل الدينار الذهب (ورقات، ق 1 ص 464) كما تعادل عشرة أو اثني عشر فرنكا ذهبا (المصدر ذاته، ق 1، ص 462، حاشية 1) .

2) فيرو : الحنانشة، في المجلة الا فريقية، عدد 104، مارس 1874، ص 136 – 137 .

مواجهته في المستقبل ، فقد أعلم F. de Gonzague في رسالة له مؤرّخة في ربيع سنة (1540) أنه عمد إلى إصلاح ذات البين مع الحنانشة الذين قاتلوا ضدّه سنة 1540 (1) ، وحسب القانون الذي استخلصه ابن خلدون من سيرة القبائل العربيّة والبربريّة فإنّ الحنانشة قد استطاعوا بقوّة عصبيّتهم وسعة إمكاناتهم أن يضمّوا لسلطانهم القبائل المجاورة لهم (خمير وشارن وأولاد بوغانم وورغة والفراشيش)، وقد أفاد الشّابيّة من هذا الحلف منذ وقوع الحنانشة تحت نفوذهم .

ومع كل المناصرة التي لقيها سيدي عرفة من الحنانشة وأتباعهم فإنه لا ينبغي أن نغفل عن حقيقة بدت متجلّية في تاريخ الحنانشة وسائر القبائل بإفريقيّة وهي أنّها في آخر المطاف ظهيرة لمن هو أقوى ولمن يدفع أكثر؛ حين كانت ميزانيّة سيدي عرفة أقوى من ميزانيّة الدولة الحفصيّة كان الحنانشة أكبر أنصاره، وحين حدثت المأساة بسقوط الدولة الشّابيّة سنة (1557/965) انْفضّ الحنانشة من حول الشّابيّة وانقلبوا عليهم وانضمّوا للأتراك فسحقوا جيش عبد الصّمد الشّابّي في موقعه رهيبة قبل سنة (1592/1001) (2) .

أولاد سعيد :

إن تاريخ علاقة أولاد سعيد بسيدي عرفة والشّابّية تعتبر مصداقا لهذا الذي أشرنا إليه، فقد خضعت للمدّ والجزر وتداخلت فيها أمشاج مختلفة من المناصرة والمناهضة خاصّة حين تعقّدت الأوضاع السّياسيّة والعسكريّة في ظلّ الصراع الذي احتدم في الأربعينات من القرن العاشر الهجري في أرض إفريقيّة. وكان أولاد سعيد بدورهم يمثّلون قوّة

1) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 88 .

2) لمزيد الاطلاع، راجع، علي الشابي ، العلاقات بين الشابية والأتراك العثمانيين بتونس بين أواخر القرن السادس عشر ونهاية القرن السابع عشر، في المجلة التاريخية المغربية ، العدد 17 و18، تونس، جانفي 1980، ص 71 وما بعدها .

ذات بال لوجودهم في مناطق خصبة من تونس تقع في الشّمال وفي السّاحل . وحسب وثيقة اسبانيّة مؤرّخة في سنة (1536/943) فإن أولاد سعيد كانوا يخضعون لنفوذ ثمانية مشائخ أهمّهم بالضّياف وأحمد المرابط ، أمّا عدد فرسانهم فيرتفع إلى (2700) (1)، وقد أسهم عدد كبير منهم في القتال مع سيدي عرفة في وقعتي باطن القرن والمنستير، وممّا أورده Horace Nicola في كتابه بشأن مناصرتهم لسيدي عرفة : إنّ كتيبة بدويّة من جيش الشّابيّة في وقعة المنستير سنة (1540/947) كانت تقودها أرملة لواحد من أولاد سعيد(2). بيد أننا نجد أن أحمد المرابط شيخ أولاد سعيد بجهة الشّمال ينضمّ سنة (1541/948) للحسن الحفصي ضدّ سيدي عرفة، وينتصب الخصم الأوّل له، لكن لم تجد مناصرته الحسن الحفصي ولا تحريض هذا لـ F. de Gonzague للهجوم على سيدي عرفة ، فإنّ الوهن كان قد استشرى في صفوف الجيش الحفصي وبدا أكثر من أن يتدارك، وليس غريبا وقوف المرابط مع الحسن، ولا تحوّله عن سيدي عرفة ومزاحمته إيّاه، وليس غريبا كذلك مناصرته من قبل لخير الدين سنة (1534/941 — 1535) لأنّه أصبح آنذاك مثالا للمرتزق المتهافت على أطراف الصّراع ينضمّ لطرف بمقابل ويتحوّل عنه إلى آخر إذا أعطاه أكثر، ويبرحه إلى غيره إذا ما لوّح له بأزيد ممّا تحصّل عليه .

قبيلة طرود :

من القبائل القويّة التي ناصرت سيدي عرفة قبيلة طرود ، وقد جنّدها هو بنفسه وأقحمها في دعوته عن طريق من كان يتردّد منها إلى القيروان للاتّجار، وكانوا في تردّدهم يأتون في مجموعات شاكية السّلاح

1) راجع، وثائق جديدة عن تاريخ الاحتلال الاسباني في المجلة الافريقية، عدد 123، ماي 1877، ص 215 — 216 .

2) النقل عن مونشيكور : القيروان والشابية، ص 88 ، وراجع حاشية 5 بنفس الصفحة .

خوفا من قطّاع الطّرق ، ودأبوا على زيارة سيدي عرفة والاستماع إليه ، شأنهم في ذلك شأن الزّوار من مختلف القبائل، وبعد ذلك زارهم في مواطنهم بسوف وقام بإرشاد من لم يفد منهم إلى القيروان، كما عيّن لهم مقدّمين من بينهم لتوجيههم وإعانتهم على العودة إلى حظيرة الإسلام من جديد، وقد قال هو نفسه: إنّه زارهم في الصحراء فوجدهم يفطرون رمضان وليس لهم من الإسلام إلا الاسم(1) فأمعن في إرشادهم وتربيتهم إلى أن أصبحوا يعرفون كلام الله وسنّة رسوله . وكان الشيخ حفيّا بتلاميذه منهم، كلفا بتربيتهم ومتابعتهم كما يتّضح ذلك ممّا حدث به تلميذه بنّور الطرودي(2). وحين استوفى إحكام علاقته بطرود بدأ يبصّرهم بالوضع السياسي المعقّد الذي أناخ على إفريقيّة ويوضّح لهم خيانة الحفصيين وحقيقة الصراع الدّائر في إفريقيّة بين الأتراك والإسبان، وكان ذلك في سنة (1535/942) عقب إباحة جيش شارل الخامس لتونس، فاتّفق مع جمع منهم في إحدى زياراتهم له على أن يبلّغوا ذويهم بأن يكونوا مستعدّين لساعة الحسم وإن هم حاربوا معه أجرى لرؤسائهم مرتّبات وأعطى عامّتهم ما يرضيهم وخصّهم بالغنائم، وحين عادوا عرضوا الأمر على القبيلة فوافقت وأعلمته بذلك . وحسب العدواني فقد وجّه إليهم أحد رسله لإعلامهم بما عزم عليه، ومبلّغا إياهم قوله « إنّي على وشك القيام ولا يتخلّف منكم إلاّ العاجز، وحين سمعوا اتفقوا على من يذهب ومن يبقى يحفظ الأرض ومن يكون رئيسا على كلّ قبيلة » (3) ثمّ جنّدوا من بينهم ثمانمائة وأعدّوا خمسمائة فرس والتحقوا بسيدي عرفة، وحين وافوه قال لهم كلمته المشهورة : « يا طرود من نصرتموه انتصر ، ومن كسرتموه انكسر ، قليلكم كثير وكثيركم لا حدّ له » (4). وقد انضمّت هذه القوّة لجيش سيدي

---

1) الفتح المنير، ص 97 .
2) المصدر ذاته، ص 104 .
3) النقل عن إبراهيم العوامر : الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص 181 .
4) المصدر والصفحة ذاتهما .

عرفة الذي قرّر الإطاحة بالحسن الحفصي خائن الوطن والدّين، وكان جيشا جرّارا أسهمت كل القبائل الموالية له في تكوينه وتكاثرت إبله وخيوله حتّى سدّت النواحي حسب تعبير العدواني (1). وهجم الحسن الحفصي بجيش ملفّق من العربان (2) ومن المسيحيّين (3) وهدفه إباحة القيروان لشارل الخامس كما أباح له تونس من قبل في وقعة الإربعاء المشؤومة في السّنة نفسها (942/1535) باعتبارهما مركز الثقل الحضاري في إفريقيّة العربيّة المسلمة .

وفي باطن القرن فاجأ سيدي عرفة جيش الحسن الحفصي ليلا وأحاط به كالسّوار وأطلق جيشه شعار (الله أكبر) فانضمّ أغلب جيش الحسن له حسبما يؤكّد ذلك L. Feraud (4) ، واضطرّ الحسن وفلوله إلى الفرار وغنم الجيش القومي أمواله، وقد أطنب العدواني في إبراز طرود في هذه المعركة القوميّة الحاسمة فجعلهم الطّليعة الظافرة التي حمت الجيش القومي ، وممّا قاله « وحملوا حملة صادقة على جيوش الوالي فهزموهم ثمّ تتبّعوا أثرهم يأخذون الغنائم والأسارى » (5) . وبعد ذلك اتجه طرود إلى سوف مغضبين لأنّهم لم يأخذوا من الغنائم ما أرادوا . ولم ينقطع الشّابيّة بعد سيدي عرفة عن العمل على توثيق علاقتهم بطرود وإن كانت بطبيعتها خاضعة للمدّ والجزر على أساس المكاسب التي يمكن أن تتحقّق لطرود من هذه العلاقة، وقد رأى الشّابيّة أن الحفاظ على صلتهم بطرود يمثّل أمرا جوهريا في سياستهم مع أطراف الصراع في العهد التركي ، وهو أمر يندرج في نطاق الخطّة التي وضعها سيدي عرفة ، وبرغم المنافرة التي كانت تبديها طرود أحيانا فإن الشابية كانوا حريصين على عدم التفريط فيهم

---

1) المصدر والصفحة ذاتهما .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) فيرو : الحنانشة، في المجلة الا فريقية عدد 104 ، مارس 1874 ، ص 137 .
4) أنظر أسفله .
5) الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص 181 .

إلى حدّ محاربتهم إن اقتضى الأمر، وهي حقيقة يفسّرها قول محمّد المسعود الشّابي أثناء إقامته بسوف في بداية القرن الحادي عشر صحبة ابنه عليّ لإرشاد طرود « إن سيدي عرفة هو الذي أمر الشابيّة بالذهاب إلى إلى هؤلاء القوم لإرجاعهم إلى الإسلام »(1) وتفسّرها مواقف عبد الصّمد الشابّي وأبنائه طيلة العهد العثماني(2) .

قبيلة دريد :

كما أن دريدا اعتنقت طريقة سيدي عرفة وأخلصت في التتلمذ عليه وفي الحرب معه فأمدّته بالأموال والرّجال في حربيه الشهيرتين والتزمت بدفع « العادة » لسيدي عرفة واستمرّت تدفعها لأسرته من بعده، وقد لاحظ ابنُ أبي دينار في الحديث عن وقائع الشابيّة أن دريداً هم تلاميذ الشّابيّة كما أفاد بأنّ عبد الصّمد الشّابي المتوفى سنة (1616/1025) قد استحكم فيهم وشاخ عليهم (3) ، وكان دريد موزّعين أيام سيّدي عرفة في أماكن مختلفة من افريقيّة أهمّها السّرس وما صاقبها، ويوكّس التي أسّسوها قرب تبسّة، وكانوا يقومون بدور الحرّاس لسيدي عرفة ولأفراد أسرته من بعده، ولم ينفصلوا عن الشّابيّة ولا نازعوهم إلى أن استمالهُم حمّودة باشا المرادي المتوليّ سنة (1631/1041) ورسم طائفة عظيمة منهم في ديوان الجند سمّوا بالمزارقيّة ،

لكن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما خضّد شوكتهم بوزيّان الشّابي وأرجعهم إلى طاعته ، وتفيد رسالة مؤرّخة في (1265/1848 — 1849) وجّهها أمير لواء آغة الجريد أحمد زرّوق إلى مصطفى خزنة دار

1) راجع، تاريخ العدواني، ص 61 .

2) علي الشابي: العلاقات بين الشابية والأتراك العثمانيين . . في المجلة التاريخية المغربية ، العدد 17 و18، تونس، جانفي 1980 .

3) المؤنس، ص 162 .

أن دريداً كانتْ حتى ذلك التاريخ تتمتّع بالرّاتب المضروب لها على أهل الجريد بفعل الشّابيّة نظير خدماتهم وأنّ أهل الجريد لم يقدروا على الإيفاء بهذا الراتب في تلك السّنة لقلّة التّمور ، ولمّا حاول أحمد زرّوق صدّهم عن المطالبة براتبهم في هذه السّنة لذلك السبب بادروه بقولهم « إن هاته البلاد "الجريد ، إلينا "!" وأن هذا الراتب أجراه لنا السيّد الشّابي (عبد الصّمد) ، وتفضّل علينا وليس لأحد علينا فيه جميل » (1) .

النّمامشة وبنو بربار :

كذلك تلمذ النمامشة وبنو بربار لسيدي عرفة وأسهموا معه في حربيه بالرجال والأموال وفرض عليهم سيدي عرفة « العادة » فوفّوا بها واستمرّوا يؤدّونها للشّابيّة، وقد أورد صاحب الفتح المنير بعضا من أخبارهم مع سيدي عرفة، منها ما وقع لمبارك بن ساعي البرباري حين جلس إلى شيخه بالقيروان، ويتمثّل في أن هذا لم يخف إعجابه بشيخه ومطلق اعتماده عليه فما كان من الشيخ إلا أن نهاه قائلا له « أعرف مولاك الذي صوّرك وأنشاك وخلقني أنا وإيّاك » (2)، كذلك تأكد نفوذ سيدي عرفة في منطقة قسنطينة وفي عنّابة وفي الأوراس وفي أرض الزيبان وأصبحت هذه الأماكن في نظره برغم بعدها عن القيروان حارة من حاراتها بحكم خضوعها لنفوذه وتبعيّتها لعاصمته. القيروان حدّث علي بن سليمان البرباري قال : سمعت الشيخ يقول : « وادْ يجرْ حارة من حارات القيروان ، وإرقو حارة من حارات القيروان »(3)، ولم يشأ محمّد المسعود الشّابي إلا أن يوجّه هذا القول وجهة صوفيّة تجرّده عن حقيقته الزّمنية وتعزله

---

1) راجع ، وثائق خزينة الدولة التونسية، مراسلات القياد ، ملف رقم 277 ، إضبارة 20 ، رقم 60 .

2) الفتح المنير ، 105 .

3) المصدر ذاته ، ص 106 .

عن إطاره السياسي وتصرفه إلى مفهوم مستقبليّ يتحقّق به عرفان سيدي عرفة شأن المسعود في ذلك شأنه في كلّ ما كتبه عنه .

وما كان محمّد الزفزاف بن عرفة ليقول لقريبه بدر الدين الشابي حين طلب إليه أن يعينه مادّيا بعد قبوله الإقامة بجبل بني صالح قرب تبسّة بإشارة منه : « أعطيك رقاب الرجال وأنت تطلب البقر » (1) لو لم يكن نفوذ سيدي عرفة متغلغلا في تلك الأماكن . ولهذا المعنى أكثر الزفزاف نفسه إثر النّكبة من التردّد على واد بجر وجبل شرشار وتيزقرارين وهفا إلى أن تكون القلعة الشاهقة الموجودة بها مقرّا لأولاده إلى آخر الزمان لأنّها « ما تمنع من الترك إلا هي » خاصّة وهي المحاطة بالمريدين من بني بربار والنمامشة والذواودة والحراكتة.

قبيلة الهمامة :

كما أن الهمامّة أخلصوا في تتلمذهم له والوفاء لطريقته التي عرفوها إلى حدّ في عهد والده، بيد أنّه لم يحدث إقبالهم عليها بصورة جماعيّة إلاّ على يد سيدي عرفة ففضلا عن كثرة تردّدهم عليه وحلوله بينهم معلّما ومرشدا في مواطنهم الغربيّة بجهة قفصة ، والشرقيّة عند الرقاب والقيروان ، عيّن لهم مقاديم من بينهم للإشراف على تربيتهم ولإعانتهم على حلّ المسائل الدينيّة والصوفيّة التي تستعصي عليهم ، ومن يَنْبُه من بين الفقراء (المريدين) يتولّ هو بدوره القيام بتلك المهمّة تنفيذا لما كان لقّنه سيدي عرفة للمريدين من أن الفقير مسؤول على تعليم المريد الجديد أصول الطريقة ، فإذا ما تمكّن هذا علّم غيره وهكذا دواليك .

وقد ذكر مؤلف « الفتح المنير » أن من بين تلاميذ سيدي عرفة المخلصين ورواة أخباره قاسم بن عيسى العكرمي ، وقد روى ما قاله

---

1) المصدر ذاته ، ص 110 .

له شيخه حين تأكّد نفوذه بالقيروان ، وهو أنه الرجل الأول بها والذي لا يفوته شيء من أمرها ، ونصّه : « يا قاسم عندنا رجل بالقيروان ينظر من خلف كما ينظر من أمام » (1). وهذا يدلّ على أن الطريقة الشّابيّة، وقتها، كانت قد قلّصت ظلّ كثير من الطرق الصوفيّة الأخرى بالقيروان، وذلك بما تأتى لها من مناصرة الهمامّة وسواهم من القبائل صاحبة الشأن في إفريقيّة، وما كان يتلقّاه ابن مخلوف من عون مادّي من الهمامة في صورة «فتوح» ثم في صورة « زكاة » أصبح «عادة» تؤدّى لسيدي عرفة ، أي ضريبة خاصّة لا يمكن التخلّف عنها ، ومن بعده ظلّوا يقدّمونها لشيخ الطريقة ثم لشيخ بيت الشّريعة، وحين اختفت بيت الشريعة في سنة 1876 واقتسمت أسر الشّابيّة العادة المضروبة على القبائل في كلّ من تونس والجزائر كانت عادة الهمامّة من نصيب ثلاث عائلات (أبناء محمّد بن بورقعة وأبناء سعيد وأبناء حامد) .

ولقد أمعن الهمامّة في محبّة سيدي عرفة فحاربوا معه وخضعوا لسلطانه، وانصرفت فطناسة للتغنّي به في شعرهم الشعبي منذ ذلك التاريخ ولم ينفكّوا يفعلون هذا حتّى اليوم : سبك غنائي شفّاف ينمّ عن محبّة صادقة وإكبار لخصائصه الذّاتيّة وتمجيد لبطولته التّاريخيّة وحميّته الوطنيّة .

استعمال اللغة الدارجة للإرشاد والتعليم :

آثر سيدي عرفة منذ البداية أن يكون تصوّفه شعبيّا يتّجه الى العامّة قبل الخاصّة لذلك لم يتخيّر له لغة تقصر دونها أفهام الكثيرين ولا اصطفى أساليب صقلتها التجارب المتعاقبة لفرسان الفصحى ولا ركن إلى التراث الفصيح ينهل منه صوره وأخيلته بغية إصابة مكامن الإعجاز

1) المصدر ذاته ، 103

اللغـوي، وإنمـا آثر بدلا من كل ذلك اللغة الدارجة في القـرن العاشر ومـا يكمن فيها من صيغ وأمثلة وصـور يطرح بهـا قضايا تصوّفـه ليصل إلى أعمـاق القلـوب، وهو قد استجاب في هذا لحاجة الطبقة الشعبية التي سيطرت عليها الأمـيّـة في تلك الفترة وحرمت من التعليم لعـوامل مختلفـة يرفدهـا إيمان ممثّلي العلم بأن تبقى « المعرفة »، أي نوع من المعرفة، قصرا على الخاصّة. وكان وراء استجابته تلك وجهـة تربويّة واضحة تتمثّل في أنّه لم يكن يهدف من وراء تلقين المريدين أصـول مذهبـه الصّوفيّ تكـوين مرشدين مخلصين للطريقـة ومنقطعين عن الواقع المعـاش كما كان يفعـل نظراؤه من مشائخ الطّرق آنذاك، ممّن كـان تصوّفهم يتّسـم بالسّلبيّة بحيث لا تجد له صلـة بالأوضاع السّائدة، لم يكن سيدي عرفة مثلهم ولا كان تصوّفه كذلك. وإذا ما صحّ أن نستخدم اصطلاح محمّد إقبال قلنـا ان تصوّفه كان « إيجابيّا » لا « أعجميّا » يجنّح بصاحبه الى السّمـاء حيث الصفـاء والفـداء، لكـن سرعان ما ينـزل به الى الأرض ليقـاوم الظّـلم ويحقّق الظّفر ويبني الحياة . لقد وفّق سيدي عرفة في إثارة الإحساس القـوميّ والحميّـة الوطنيّة في نفـوس المريدين عن طريق تصوفـه، ومن ثمّ ارتبط مفهـوم التصوّف عنده بمفهوم الوطنيّـة، وهو مفهـوم جدّ تقـدّميّ في القـرن العـاشر كما كما سنبيّن ذلك في موضعـه، وحسبنا هُنا أن نؤكّد أن سيدي عرفة اختار اللغـة الدارجـة لغـاية تربويّة وا ضحة تتمثّل في انتشال أكبر قدر ممكن من سكّان افريقيّة من الجهـل وفي تكـوينـه تكـوينا صـوفيّا ايجـابيّا يغـرس التّديّن ويؤصّـل الوطنيّة .

أورد محمّد المسعـود الشّابي في أول كتـابـه قولا بالعـامّيّة لسيدي عرفـة عبّر فيـه عن خشيتـه من تقلّص نفـوذ الطريقـة بعـده وهو « إنّمـا أخشى على طريقتنـا من ثلاث : « زيـغ وحجم [إحجـام] وضيقة [مقاومة] » ثمّ شرحه ، فقال : « إنّ الزيغ هو ما وقع عند بعض التلاميذ من التحريف في الاعتقـاد واتّباعهـم لمـا أشكل من كلام أهل الطريقـة وتحـريفـه.

والحجـــم "الإحجام" هـو ما وقع بالطريقـة بعده من الفتور والبرودة .
والضيقة : قـريبة من هذا المعنى » .

بعـد أن أورد هـذا بـدا لـه أن يستخلص مـا نعتبـره ملاحظة منهجيّة بحقّ تفيـد في فهـم منهجـه في التصوف والوقوف على غمايته وتتمثّـل في احتضان لغـة الأمّيين واطّراح لغـة « الفقـه » أي اللّغة الفصحى التي لا يفهم بهـــا إلا القليل ، ونصّهـــا : « وعبّر لهم الشّيخ "سيدي عرفة" بمـا في لغتهم ليتبادر فهمـه إلى قلـوبهم تأسّيا بقوله « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومـه » (1) لأنّ أغلب تلاميـذه أمّيـون ، فلـو عبّر لهم بلسان الفقه وأصل اللّغـة لما فهمه إلاّ القليل لقصور فهم الأمّيّ عن لسان الفقه ولغلبة العجمة على الألسنة » (2) .

ومن تتبُّع سيرة سيدي عرفة يتّضح أنه يرفض أن يبقى العلـم لغـة للطّبقة المحظـوظة من أمثال الشّيخ محمّد مغوش في بلاط أبـي عبد الله محمّد الحفصي وبلاط الحسن الحفصي ، تحافظ بهـا على مصالحهـا وتفوّقهـا وتخاطب بهـا السلاطين والحاكمين لاستدرار عطفهم ونوالهـم . وهو قد عمـد إلى أن يجعـل منـه لغـة للطبقـة المهضومـة من أبنـاء المدن والأرياف ، إذ كان يحضّهم على طلب العلم ويستحثّهم على إصـابته ولو في سنّ متقدّمة ويحبّب لهم ذلك في لغـة دارجـة مستقرّة في وجدانهم ، تارة نثرا وأخرى شعرا ، تخلّص من قواعد العربيّة « حكي أنه كان يوما جالسا وبإزائه رجل فأتاه رجل ببطاقة ففكّها الشيخ ومدّها إلى ذلك الرجل الجالس بإزائه وقال له : اقرأ ، فقـال يا سيّدي : إني لست بقـارىء فقـال الشيخ :

إذا لم تكنْ تقـرأْ ولم تـكُ فاهمـًا ... نهـاركُ بطّـالٌ ولَيْلُكَ نَـائـمُ
كذلك في الدُّنيا تعيـش البهــائـمُ ... فمـوْتُكَ خيـر من حيـاتك دائم ؟

1) إبرهيم : 5 .
2) الفتح المنير ، ص 4 .

فنهض ذلك الرجل من حينه واشترى لـوحا وبدأ في التّعلّم من الألف ففتح الله عليه ولم يمت حتى حفظ القرآن ولم يفعل ذلك إلا وهو شيخ كبير »(1) .
وكثيرا ما كان يستدلّ بقـول الشّاعر :

العلم يبني بيـوتـا لا عمـاد لهـا والجهـل يخلي بيـوت العزّ والشرف

وذات مرّة ضرب لهم المثل بقريش بعد بعثة الرسول حين تأبّوا عن العلم فبيّن أنّ الله أذلّهم بعد عزّ، وفي مقابل ذلك اتّبعه ضعفـاء النّاس وأهل الصنائع(2) فأعزّهم الله بعد ذلّ وأغناهم بعد فقر، وما ذلك إلا أنهم تأسّوا بالرّسول وتتلمذوا عليـه، وسألهم بعد ذلك من هم أهل العزّ والشرف ؟ فقالوا لا نعرف، فقال لهم « أهل العزّ والشرف قريش، كانوا سادات العرب وأهل بيت الله الحرام وأهل زمزم والمقام فلما جهلوا الأمر هلكـوا مع الهالكين وحكّم الله في رقابهم المسلمين وملكهم أراضيهم وديارهم وأموالهم وما ذلك إلا بالعلـم الذي لاح في قلـوبهم ومعـرفتهم لرسول الله حتّى اتبعـوه، فقد ظهرت لك فضيلـة العلـم وخساسة الجهـل لأن الجهـل يؤدّي بالملـوك والعلم يرفـع المملوك إلى درجـة الملوك » (3) .

من خلال هـذا النص يتضح أن مجتمـع القـرن العاشر في نظر سيدي عرفة كان هو كذلك مقسّمـا إلى طبقتين :

1 ــ طبقـة الأشراف،

2 ــ طبقـة الضعفاء وأهل الصنائع ورعاة البقـر(4) ،

وكان كلّ همّه الارتفاع بهذه الطبقة إلى مستوى الأحداث بحيث يتأتى لها في النهـاية الإطاحـة بطبقة الأشراف وصيـاغة مصيرها الذي

---

1) المصدر ذاته ، ص 182 .
2) الاستعمال لسيدي عرفة ، الفتح المنير ص 160 .
3) المصدر والصفحة ذاتهمـا .
4) استعمـال رعاة البقر له أيضا، انظر، الفتح المنير، ص 169 .

تريد، وبلا شكّ فقد أثار ثائرة علماء الظاهر ممن احترفوا ممالأة الحسن الحفصي وهجّنوا مسلكه وجرّحوا الطبقة التي وقف سيدي عرفة جهوده على النهوض بها ولمّ شتاتها وتحريضها على الثورة ، فقالوا بأن عرفة يعلم التوحيد لرعاة البقر(1)، وقد تصدّى محمّد المسعود الشّابي للردّ عليهم في كتابيه «الفتح المنير» و«المقرّب المفيد»، فقرّر في «المقرّب المفيد» بعد بحث مستفيض تناول فيه من يجب عليهم تعلّم العقائد : أن قول القائلين بعدم تعليم العوّام علم التوحيد وبراهينه الواضحة والخفية بين الفساد لأنّ الأخذ بما ذهبوا إليه يؤدّي إلى عدم القول بوجوب تعليمهم فروع الدين من صلاة وزكاة وصيام ونحوها وهو باطل ، مع العلم بأن العمل بهذه الفروع يتبع صحّة الإيمان وإصابة قدر أدنى من البرهان، ومن ثمّ فإنّ ما انتهى إليه بعد استعراض أقوال المتكلمين في هذا الصدد هو أن الواجب على العامّة معرفة الدليل الجملي الذي يحصل به العلم والطمأنينة (2)، وفي « الفتح المنير » وقد ألّفه بعد سنة (1597/1006) سنة تأليف « المقرّب المفيد » حمل على هؤلاء العلماء وأبان عن تهافت منطقهم وتخرّصهم على شيخه موضّحا أن من هذا شأنه لا يمكن أن يكون عالما أو عاقلا، فعلمه الذي انتحله ليس إلا رسما خياليا لا حقيقيا وقلبه خلوٌ من النور، وإثمه أشدّ من إثم قاطع الطريق لأنّه قطع النّاس عن معرفة الله لا عن منفعتهم الدنيويّة(3) .

وبرغم تعقّد المسائل الكلاميّة فقد كان يبسّطها بالعامّية فتبدو هيّنة بالغة اليسر لا تستعصي على أفهام الأمّيين، وهو أمر لم يتخلّ عنه الشيخ في تربيته للمريدين ممّا جعل منه أكبر المربّين في تلك الفترة وربّما

---

1) المصدر والصفحة ذاتهما .

2) المقرب المفيد، المجلد الأول، ص 121 – 126 .

3) الفتح المنير ، ص 169 .

في الفترات السّابقـة ، قال محمّد المسعود :« وأظنّه لم يسبق إليه [أسلـوب تربيتـه للعـامّة] (1) .

وتطغى على أسلوبه التربوي في تعليم المريدين وإفهامهم ظاهرتان همـا :

1 ـ ظاهرة التكـرار ،

2 ـ ظاهرة الاعتمـاد على الأمثلـة والصيغ الشعبية والعـادات، وهي ظاهرة يمكـن أن تسلك فيمـا يُسمّى عند المنـاطقة بدليـل التمثيل والاستقراء .

ففي مواطن كثيرة من « الدّر الفائق » نجده يعمد إلى إعادة المعنى الذي يريد تركيزه في أذهان العـامّـة في أكثـر من موطن إيمـانا منـه بالأهمّية القصوى للقضايا التي يطرحها علم التـوحيد لأنهـا مرتبطة جميعا بالإيمـان، ولهذا ينبغي فيه تكرار العبارة وتلـوينهـا ليسهل الفهم على العـامـة وتنشرح صدورهم للإيمـان، فهـو قد تنـاول ذات الله وصفـاته وأسمـاءه في أكثـر من موطن ، وألحّ على وصفها بالقدم في كلّ ذلك حتى ترسخ في أذهانهم (2)، كما كان في دروسه يصبر علىمعاودتهم للأسئلة وإلقائهم لها في غير محلّها وعلى الخشونـة في العبارة والتّأخـّر في الفهـم، كلّ ذلك تأليفـا لقلـوب ضعفـاء المسلمين ورحمـة بهم وشفقة عليهم(3) .

وكان يعتمد على الصّيغ والعادات الشّعبية في إفهـام مريديه ويتخيّر أشدّها تأثيرا وأبعدهـا في النفـوس، ففي تقـريره أن المريدين يجب أن يربـيَ بعضهم بعضا بإشراف منـه وتوجيه وذلك بأن يدلّ مبتدئهم على من حُسن أمره من بينهم فيتولى هذا تربيته بما يسهل عليه معـرفتـه وتتّسع له

1) المصدر ذاته، ص 243 .
2) راجع مثلا ، الفتح المنير ، 243 ـ 250 .
3) المصدر ذاته ، ص 250 .

مداركه ولا يلبث بعد ذلك وفي ظلّ إفادته من مخالطة المريدين أن يقوم هو بنفس الدور فتتسع بذلك قاعدة المتعلمين وتتأكد أواصر الودّ بينهم قلنا في تقرير سيدي عرفة لهذا اعتمد على مثل عامي من نسجه قصد به التأثير في قلوب مريديه وهو قوله « مَكسوري يبرُوهْ الفقراء ومَكْسُورْ الفُقرَاء مَا نِبرْيِهْ »(1) بمعنى أن التلميذ المبتدىء الذي انتسب إليه يجد طلبته على أيدي الفقراء (المريدين) القدماء، فإذا لم يغد منهم استحالت إفادتي إيّاه، كما اعتمد في صياغة هذا المعنى على صورة ظفر بها من الواقع اليومي تروق العامّة وتستحوذ على أخيلتهم أطرافها : الدّبّاغ والمدبغة والدّباغ والجلد. والقصد من ذلك إفهامهم طبيعة العملية التربويّة وتهجين صورة الجاهل الذي لم يمسسه التعليم ولا أدركته التربية، ومن المفيد إيرادها بلفظها « يقول [سيدي عرفة] : الفقراء هم المدبغة ويمثّل نفسه بالدّباغ. والمدبغة هم الفقراء، والمبتدىء في الطريقة كالجلد الذي بشعره وعفنه ولا يزيل ذلك منه وينقّصه إلا المدبغة بما فيها من الدباغ، فالمدبغة وهي موضع الدّبغ هم الفقراء، والدّباغ هو التربية والتأديب والتعليم، والشيخ هو الدّبّاغ »(2)، وقد علّق محمّد المسعود على ذلك بقوله « وأكثر ما كان يربّي به الشّيخ العوائد لأنّها أقرب للفهم إذ العوائد مألوفة عند الخلق »(3) وفي أخذه بالجبرية المطلقة انطلق من صورة يوميّة صاغها في شكل مثل شعبيّ سيّار وهي « مَن لم يَنْظُرْ الخَلْقْ مْغَارفْ فليس بعارفْ » بمعنى أن الناس لا يملكون القدرة على الفعل، وأن اتّصافهم بالفعل ليس إلا اتّصافًا ظاهريا لا غناء فيه، وهم بالنّسبة للخالق كالمغارف التي يوزّع بها صاحبها الطّعام يحرّكها متى شاء، وظاهرها أنّها هي التي توزّع الطعام، فإذا ما تركها صاحبها لم تبدِ حراكا كذلك

1) الفتح المنير، ص 257 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) المصدر والصفحة ذاتهما .

الأمر بالنّسبة للخلق فهم محلّ للقدرة الأزليّة فعلا وحركة وإن فعلوا وتحرّكوا ظاهرا(1)، وحين همّ المريد قاسم العكرمي بقتل أحد القرويّين أساء الأدب في الطّريق مع سيدي عرفة، وكان ذلك قبل تولّيه الحكم في القيروان، منعه قائلا « يا قاسم : أنتم بادية ؛ قلت نعم، قال : كيف تفعلون بالعروسة، قلت يزفّونها ويحجبونها عنّا، فقال : صاحب العروسة، أيُحبُّ أن يطّلع عليها غيره، قلتُ لاَ، فقال كُنْ أنت كذلك، فاجعلني عروسة، هل تحبُّ أن يطّلع عليّ أحدٌ غيركَ ؟ وعلى أيّ شيء تقتل الرجل فتبت» (2). وقَصْدُ الشّيخ من صياغة هذه الأمثلة مدّ المريدين بزاد علمي وخلُقي يكون مرجعا لهم ، على أن هذه الصياغة كثيرا ما كانت تطرح قضايا معرفيّة تتعلّق بالتوحيد الصّوفي ، وبظاهريّة الفقهاء فتبدو جليّة لم يعرف التعقيد أو الغموض إليها سبيلا، من ذلك قوله في « الدرّ الفائق » مخاطبا المريد « اعمل قلبك لَوْحَكْ ، واقْرَأْ فيه التّوحيد بَاش تْشاهِدْ ربّك العزيز، تْمُوتْ شَهيدْ، اعمل في قَلبكْ جامعْ، واعملْ في الجامع حَضْرَهْ ، واعمل في الحضْرَهْ فكرهْ، واعمل في الفكرَهْ سَلُّومْ، به تَرْقى العلومْ، يا فقهاء أنتم قْرِيتُمْ والفَقير بْعينُهْ تحقّق، واشْ مِنْ تْوَهّمْ كيفْ منْ نْظَرْ وصدّق ، يا فقهاء أنتمْ قرأتمْ في لوحات منْ عُودْ، ونحن قرأنا في لوح اسم المعبود، جانا بْعيد من بعيد، بشيء مشهود »(3). وعلى هذا النسق ربّى سيدي عرفة العامّة ووطّن فيهم محبّة الله ومَقْتَ الجهل، وأثار فيهم الحميّة الوطنيّة واجتثّ منهم الخشية من الظالمين ، فكسب ودّهم وطاعتهم وصاغ منهم في ظلّ ولائهم له وللمباديء التي غرسها فيهم قوّة قوميّة في القرن العاشر عزّ نظيرها .

---

1) المصدر ذاته ، ص 260 .

2) المصدر ذاته ، ص 103 .

. 113

انتشار طريقته خارج افريقية :

يتّضح من قول محمد المسعود الشّابي (وله مقدّمون كثيرون في أقطار الأرض وانتشرت همّته في الغرب والشرق وذاعت دعوته في البلاد القصيّة) أن حركة الاصلاح الديني والسياسي التي قادها سيدي عرفة لم تبق محصورة في افريقية بل تجاوزتها إلى مختلف أقطار الاسلام تُحْيِي في بنيها الضمير الدّيني وتنبّههم إلى مخاطر الصّراع التركي والمسيحي على احتلال بلاد المغرب، وفضلاً عن تبصير سيدي عرفة للوافدين عليه من مختلف البلاد الاسلاميّة ولدعاته فيها بحقيقة الأوضاع ، فقد انبنى مفهوم الإيمان عنده على المزاوجة بين الاقرار بالتنزيه المطلق والعمل المتجذّر في الأرض الذي يستهدف التّغيير لصالح المجتمع .

لذلك تكاثر أتباع الطريقة الشابيّة وتعددت خلاياها ، وبرغم ازدحام المغرب الأقصى بالطرق الصوفيّة في تلك الفترة فقد آثر عدد كبير من المغاربة مذهب سيدي عرفة واعتبروه سبيل خلاصهم لأنّه رفض الانقطاع والذهول والانبتات والتصق بالعمل من خلال منهجه في بناء النفسيّة العربيّة الاسلاميّة . لقد قال أحد تلاميذه المغاربة لمحمد الزفزاف بن عرفة إنّه حفظ القرآن في بلاده ودرس العلم وحجّ ثلاث مرات إلاّ أنّه لو مات قبل لقاء سيدي عرفة والتّتلمذ عليه لمات جاهلا (1) . ودأب المغاربة في ذهابهم إلى الحجّ وقفولهم منه على المرور بالقيروان والاتصال بسيدي عرفة والاستماع إليه فما كان من أحدهم إثر رجوعه من الحجّ واتّصاله صحبة رفاقه بسيدي عرفة إلاّ أن تخلّف عن السّفر إلى بلاده حبّا في التتلمذ على الشيخ فاعتنق الطريقة في خدمة الشيخ خمسة عشر عاما ، وحين احتدّ به الشّوق إلى أهله ، وكانوا بأقاصي المغرب ، كاشف شيخهُ فأذن له بالذهاب وأوصاه إلى مقدّمه هناك ، ولما وصل بلّغهُ الوصيّة ثم قصد أهله ، ومن بعد ذلك لم يجد بدًّا

1) الفتح المنير ، ص 74 .

من الرجوع إلى شيخه بالقيروان لشدّة تعلّقه به (1). ومن الواضح أن هذا المغربيّ من سجلماسة أو درعة، وهي تقع في الجنوب الغربيّ لسجلماسة، وأنّ إصراره على البقاء أوّلاً عند الشيخ يدلّ على أنّه عرف الدعوة قبل وفادته إلى الحجّ عن طريق الدّعاة الذين تكاثروا في هاتين المدينتيْن وبخاصّة في درعة. ويدلّ ما قاله علي العمري المراكشي لمحمد المسعود الشابي أثناء لقائهما في الطريق إلى الحجّ سنة (1594/1003) على أن مراكش وبلدة طيلول تزدحمان هما أيضا بمقدّمي سيدي عرفة وبمعتنقي هذه الطريقة التي تميّزت باعتمادها (علم النفس) كأصل يضاف إلى أصليْها الآخريْن: علم الشريعة وعلم التوحيد، وهو أصل تتحقّق به معالجة النفوس وتربيتها وترويضها على قدر ما لكل مريد من امكانات. والمراكشي نفسه اعتنق الطريقة الشابيّة في بلده مرّاكش دون أن يفد إلى القيروان (2).

كذلك انتشرت الطريقة بين الخوارج في جبل غريان بطرابلس على النحو الذي فصّلناه في الحديث عن الطاهر بن عرفة. وسار ذكرها في مصر ووجدت لها من بين أهل الشّام أنصارًا كثيرين في القرنين العاشر والحادي عشر. فقد أخبر الشيخ عبد العزيز المصري محمدًا المسعود أثناء إقامته في القاهرة، وهو في طريقه إلى الحجّ، حين علم بأنّه من ذرّيّة سيدي عرفة أن للطريقة الشابّيّة مقدّمين بالشّام منهم الشيخ علوان وأنّه لقي بالحرم الشريف أناسًا يقرؤون الوظيفة فلما سألهم قالوا له إنّهم من تلاميذ الشيخ علوان (3). ومن الثابت أن الشيخ علوان المتوفى (1529/936) اعتنق الطريقة الشابّيّة على يد الشيخ علي ابن ميمون المغربي (توفي قبل سنة 1514/920) مؤلف «مناقب التبّاسي» وتلميذ سيدي عرفة والتباسي معًا.

---

1) المصدر ذاته، ص 104.

2) المصدر ذاته، ص 74.

3) المصدر والصفحة ذاتهما.

وكان علي بن ميمون قد انتقل بعد ملازمته الجهاد ضدّ الحملات المسيحيّة على السّواحل ، إلى سيدي عرفة بالقيروان ، فلقّنه أصول طريقته ، ثم أرسله إلى أحمد الغوث التبّاسي التوزري تلميذ ابن مخلوف وصفيّ سيدي عرفة لمزيد التخصّص في الطريقة الشابّيّة ، فلقيه وبقي عنده زمنًا ذهب إثره إلى المشرق ، وطوّف به ، ثمّ استقرّ في بلاد الشّام ، وأخذ يدعو للطريقة الشابّيّة ويبثّ روحها النّضاليّة بينهم ويبصّرهم بالسلوك الصّوفيّ المفضي إلى الجهاد . كان شديد القسوة على من يرتكب من مريديه منكرا ، مُلْحِفًا في مقاومة الظّلم ، لا يخاف في الحقّ لومة لائم ، أثِر عنه قوله **(لو أتاني السّلطان بايزيد بن عثمان لا أعامله إلاّ بالسنّة)** وكان لا يقوم للزائرين ولا يقومون له ولم يقبل وظيفة ولا هدايا من الأمراء والسلاطين . وذكر تلميذه الشيخ علوان أنّه كان يرفض الخلوة ويهجّنها ، وفي ضوء إيمانه بمبادىء الطريقة الشابيّة والعمل بها ألّف كذلك كتابا سمّاه **(غربة الاسلام في مصر والشّام وما والاهما من بلاد الرّوم والأعجام)** (1) ، وتكاثر تلاميذه بالشّام ممّن دانوا بالطريقة الشابيّة ، وكان أبرزهم علوان الحموي الذي خلف شيخه في الدعوة للطريقة ، وهو بدوره قد وفّق في جلب أنصار جُدُدٍ وفي تكوين مريدين حملوا لواء الدعوة من بعده في مقدّمتهم ابناه : محمد مؤلف « تحفة الحبيب » الذي نقل عنه ابن العماد والنبهاني أخبار سيدي عرفة (2) وعلي مؤلف « مجلي الحزن عن المحزون في مناقب السيّد علي بن ميمون » (3) .

كما ذاع صيتُ طريقة سيدي عرفة في بلاد الغرب المسيحيّ، وانتشر دعاته هناك (4) كردّ فعل منه على سقوط غرناطة آخر قلعة إسلاميّة بالأندلس في أيدي المسيحيّين في الوقت الذي ركنت فيه أقوى دولة إسلاميّة وهي الدّولة العثمانيّة إلى الصمت ولم تحرّك ساكنًا .

1) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج 8 ، ص 81 — 83 .
2) راجع ، شذرات الذهب ج 8 ، ص 277 . جامع كرامات الأولياء ، ج 2 ، 151 .
3) محمد البشير الأزهري : اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ، ج 1 ، ص 4 .
4) الفتح المنير ، ص 74 .

بيد أنّه لا يمكن أن نغفل عن المعارضة الشّديدة التي لقيها سيدي عرفة من فقهاء تونس والقيروان وصوفيّتها ، ولئن أمعن أكبر علماء تونس في تحريض السلطان الحفصي عليه وأقلق بعضَهم ذيوعُ ذكره فعمدوا إلى مناظرته بالقيروان لمحاولة النّيل منه فإنّ ما وجده من تلاميذه بتونس من إكرام وتقدير جعله يقبل عليهم ويكثر من التردّد دون أن يقيم لخصومه وزنا ، وقبل سنة (942/1535) سنة إعانته لأهل تونس من جرّاء الاحتلال الاسباني ودخوله الحرب ضدّ الحسن ، اشترى له تلاميذه دارًا ينزل بها كلّما حلّ بينهم حتّى لا يختصّ أحد منهم بشرف نزوله عنده ، وقد عرفت هذه الدار نشاطا حثيثا تمثّل في عقد الشيخ لمجالس العلم والتّوعية وفي استقباله للراغبين في اعتناق طريقته حسبما يوضّحه قول الشيخ علي الشريف التونسي للشيخ محمد التّواتي التوزري شارح « أمّ البراهين » للسنوسي (1) .

إن مناهضة القيروان للطريقة الشابّيّة قد احتدّت أكثر من ذي قبل (2) لأن التلبّس بها لم يبق وقْفًا على الحنانشة كما كان في عهد ابن مخلوف وإنّما عمّ أغلب القبائل الافريقيّة ، وقد أدّى هذا إلى تقلّص نفوذ الطرق الصّوفيّة بالقيروان وإلى نقص في مواردها الماليّة وهو أمرٌ لم يفهم منه القرويّون إلاّ أنّه مساس بسيادة مدينتهم الروحيّة بعد أن عرفت من الانتعاش ومن إقبال المريدين من أهل البادية على مذاهبها الصوفية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ما عرفت،وقد نشطت الزّاوية الغريانية في هذا الصّدد فجمّعت الناقمين حولها وعن طريق تَأليبهم على الطريقة الشابّيّة استطاعت أن تحقّق هدفها وهو إزاحة كثير من الطرق الصوفيّة من الميدان والظّفر بمريديها ، وبدَت بعد ذلك لاعتصامهم بها والامتثال لأوامرها وكأنّها هُويّتهم التي لا هُويّة بعدها . وكثيرا ما كانت تحرّض هذه الزاوية أتبّاعها على قادة الطريقة الشابّيّة وفي

1) راجع ، الفتح المنير ، ص 100 . سمي كتاب التواتي « الهادي الرشيد في حل المقفل الشديد من مشكل كلام أهل التوحيد » (مخطوط بمكتبتي) .

2) راجع كتابنا ، أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية ، ص 45 — 53 .

مقدّمتهم سيدي عرفة فيعمدون إلى الاساءة إليهم والنيل منهم ، من ذلك ما تعرّض له سيدي عرفة قبل تولّيه الحكم ممّا جاء مفصّلا في « الفتح المنير » ، وكان المؤلّف كلّما وقف عند مسيءٍ وصفه بأنّه (من أهل البلد) (1) ممّا يدلّ على أنّه من أتباع الزّاوية الغريانيّة . وكان سيدي عرفة لا يثار بالإساءات مهما احتدّت ويركن إلى التجاوز على نحو ما تبيّنه هذه الواقعة . مرّ ذات يوم صحبة تلميذه قاسم العكرمي برجل من أهل البلد فقال له (صَبَّاحِكْ) فقال العكرمي في نفسه : إنه (يصبّح على سيدي صباح اليهود) فهمّ بقتله بمخلب كان معه لكن سيدي عرفة منعه (2) ، ويبدو أن هذا التّجاوز الذي اتخذه سبيلا في حياته قد ثقفه منذ يفاعته على يد والده الذي كان يمعن في إرساله محمّلا بالهدايا إلى من ألف اعتراضه في الطريق والاعتداء عليه .

ولم يتخلّف فقهاء قسنطينة عن الميدان فقد انبَرَوْا هم كذلك لمقاومة سيدي عرفة والردّ عليه، شأنهم في ذلك شأن فقهاء تونس وصوفيّة القيروان وفقهائها، وذلك أمر يبدو في مثل تلك الظروف طبيعيًّا ، لأنّ النّجاح الذي أصابته الطريقة الشابّيّة إنما يُعْزَى بالدرجة الأولى إلى القبائل التي تقطن في منطقة قسنطينة (الحنانشة والنّبايل والحراكتة والذواودة ودريد وبنُو بربار والنمامشة) تلك التي أخلصت لسيدي عرفة في السلم والحرب ونافحت عن آرائه بحدّ السّلاح .

لهذا قلّ نفوذ علماء قسنطينة، إذ لم تعد هذه القبائل تأبه لأمرهم، وخفت ذكرهم لعزوف أهل الريف عنهم فانبْرى بعضهم لمهاجمة سيدي عرفة وتهجين طريقته . من ذلك أن الفقيه عمر بن محمد الكماد القسنطيني المتوفّى سنة (960/1552) ألّف كتابًا في الرّدّ عليه سمّاه **(الرد على الشابّيّة : المرابط عرفة وصحبه)** ، وقد وصف التنبكتي هذا الكتاب بأنّه كتاب حفيل مدّ فيه

1) راجع مثلا ، ص 103 ، 104 .

2) المصدر ذاته ، ص 103 .

النّفس بما يعلم أنّه من أهل التصوّف (1)، وعقّب الكناني على هذا بقوله : « هذا الباب ليس له حدّ يقف الإنسان دونه » (2). ويبدو لنا أن كتاب ابن الكماد ألفَ بعد سنة (1535/942) أي بعد قيام سيدي عرفة بالثورة وتأسيسه الإمارة الشابّيّة بفضل جهود القبائل الإفريقيّة وفي مقدّمتها قبائل منطقة قسنطينة ، يدلّ على ذلك وصفه لسيدي عرفة بالمرابط خاصّة، وليس ببعيد أن يكون المؤلّف قصد بتأليف هذا الكتاب ، فضلا عن استجابته الذاتيّة لحقده على الطريقة ، إرضاءَ أتراك قسنطينة واستدرار عطفهم، وقد أدرك العثمانيّون منذ دخولهم الجزائر وافريقيّة كما أدرك المسيحيّون أن القوة الحقيقية المناهضة لنفوذهم في افريقية هي القوة القوميّة التي بناها سيدي عرفة من خلال طريقته الصوفيّة .

1) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب لإبن فرحون ، ص 197 .
2) تكميل الصلحاء ، ص 40 .



السلطان مولاي الحسن الحفصي

الفصل الثاني

النّضال من أجل استقلال إفريقيَّة

سيدي عرفة والوطنيّة التونسيّة .

بين سيدي عرفة والسلطان محمد الحفصي .

سيدي عرفة والسلطان الحسن الحفصي بين (1525/932) و(1542/949) .

— الاحتلال التّركيّ .

— الاحتلال الإسبانيّ .

سيرة الحسن من خلال وثيقة إسبانيّة .

وقعة الأربعاء وموقف سيدي عرفة .

تأسيس الإمارة الشابيّة ووقعة باطن القرن (صفر 942/سبتمبر 1535) .

— الوضعيّة عقب الاحتلال الإسباني ووقعة الأربعاء .

— وقعة باطن القرن .

محاولات الحسن الحفصي لإباحة القيروان .

قضاء سيدي عرفة على الجنود الأتراك بالقيروان وسوسة .

وقعة المنستير (12 نوفمبر 1540) .

— جيش سيدي عرفة وجيش الحسن يعضّده الفَيْلق الاسباني .

— انضمام أغلب جيش الحسن لسيدي عرفة وهروب الحسن والفيلق الاسباني .

الإصرار على إباحة القيروان .

ذهاب الحسن إلى أوروبّا لطلب النجدة .

استيلاء مولاي حميدة : (أحمد سلطان) على الحكم .

رجوع الحسن وسجنه وسمل عينيْه من طرف مولاي حميدة .

التجاء الحسن إلى الشّابيّة بالقيروان .

جيش سيدي عرفة : تكوينه وتمويله .

سيدي عرفة والوطنية التونسية

إنّ التفصيل في أمر قيام الإمارة الشّابيّة والحروب التي خاضها سيدي عرفة ضدّ الحفصيّين والمسيحيّين والأتراك يقتضي الوقوف على حقيقة الدوافع التي تمكن وراء ذلك، وهي دوافع روحيّة ومادّيّة متشابكة تستمدّ فعاليتها من الوطن جغرافيّا ومن التاريخ والقيم روحيًّا ومن المصالح المشتركة للجماعة مادّيّا في ظلّ النموّ والترقّي الذي عرفته «الوطنيّة الإفريقيّة» أو «الخصوصيّة التونسيّة» حتّى القرن العاشر الهجري.

إن فداحة الأخطار المتدافعة على إفريقيّة آنذاك وما سبقها من استقرار عرقيّ للخريطة السكّانيّة بعد انصهار بني هلال وبني سليم في البوتقة الإفريقيّة وكذلك استغلال الحفصيّين الشّنيع لطبيعة العلاقة بين الرّيف والمدينة كل ذلك بعث في النّفوس من جديد إحساسا قوميّا وحميّة وطنيّة بلغت أوجها عند سيدي عرفة. ومن البيّن أن هذا الاحساس القوميّ كان وليد ظهور القوميّات المحلّيّة في إفريقية ابتداء من القرن الثاني للهجرة، لكنّه كان يخفت تارة، ويقوى أخرى، تبعا لطبيعة الأحداث.

رفع سيدي عرفة لواء القوميّة فألّف الله به بين القلوب بعد تشتّت آرائها (1)، ووحّد بين القبائل المتنافرة، واختصر المسافة بين المدينة والرّيف

1) الفتح المنير، ص 73.

ودعا إلى تصفية المحتلّين ولو كانوا مسلمين ، دون أن يجد حرجًا في دعوته على أساس أنّ الإسلام في جوهره لا يعني الولاء للأتراك . **إن مذهبه الصّوفي هو في حقيقة أمره مذهب في الدين والوطنيّة** ، فقد بناه على علوم ثلاثة : علم الشريعة ، وعلم التوحيد ، وعلم النفس .

فعلم التوحيد عنده لا يعني الإقرار بالتنزيه والتّلبّس بالحبّ الالهي والركون إلى الانقطاع والذّهول كما هو الشأن عند الطرق الصوفيّة آنذاك وإنّما يعني إقرارا وتلبّسا وعملا لا يعرف انقطاعا . يستهدف القضاء على الظّلم ومقاومة المنكر .

وأما علم النفس فأساسه في مذهبه الصّوفي تخيّر الطرق التربويّة الكفيلة بتهذيب النفوس وترقيتها وترويضها على الجهاد وعلى الجنوح إلى الأمثل ، وهو أصل لم يُسْبَقْ إليه من طَرَف الصّوفيّة .

وفي ظلّ التظافر بين علم التوحيد وعلم النفس بمفهومهما عنده نلحظ التّلاحم بين العمل والجهاد ، وهما يستهدفان التغيير في مستوى الواقع ، وينطلقان من تحليل دينيّ للأوضاع القائمة ، وحين نحيل هذا المعنى على حياة سيدي عرفة نُدرك إلى أيّ حدّ كان كلفًا بربط العمل بمكافحة الظّلم ومقاومة الأجنبيّ والدفاع عن كيان افريقيّة ، وهو كيان اكتسبته أرض افريقيّة بتآلف عناصر محدّدة أوْلاها سيدي عرفة كلّ عنايته واهتمامه .

من الناحيّة الجغرافيّة تتّسع أرض افريقيّة في نظره عموما لتونس الحاليّة مع منطقة قسنطينة إلى الأوراس وأرض الزّيبان وبلاد سوف .

لقد كان المعنى الجغرافي قائما في ذهن سيدي عرفة ، وعلى أساسه باشر دعوته الروحيّة والسياسيّة واستنهاضه لهمم السكّان ، وحين أدرك أنّه وفّق في تكتيلهم وإعدادهم لساعة العسرة قال عبارته المشهورة «أرقو حارة من

حارات القيروان وواد بجرّ حارة من حارات القيروان » وهما موطنان يندرجان في مفهوم إفريقيّة آنذاك .

أما عنصر السّكّان فهو العنصر الذي لقيَ من سيدي عرفة عناية خاصّة باعتباره وارث القيم والحافظ لروح الأمّة . لقد اعتبر الحفصيّون والنّخبةُ الأعرابَ = (أهل العرف) عنْصرًا هامشيًّا في مقابل أهل المدن = (أهل الشرع) ، وكان الأعراب لإحساسهم بفداحة هذه النّظرة تجاههم يلجئون إلى العنف والحرابة واكتساح المدن ومقاومة بني حفص . وفي هذه الغمرة تكوّنت طبقة مستغلّة استأثرت بالنّفوذ والثّراء وسخّرت لصالحها الهياكل الإداريّة والاجتماعيّة فبدا لسيدي عرفة منذ البداية أن كلّ محاولة للتّغيير لا تقوم على التوحيد بين السّكّان والقضاء على الفواصل بين أهل المدن والأعراب وعلى تربيّة القبائل ولمّ شتاتها يكون مآلها الفشل . لهذا اتّجه بدرجة متميّزة إلى القبائل في سائر مناطق إفريقيّة مهما نأت واستعصت مسالكها ودعاها إلى العلم والعمل والجهاد ، وفطّنها إلى أهمّيّة الروابط القوميّة التي تجمع بينها ووقف بها على هويتها الذاتية، وذلك إيمانا منه بأن سيادة إفريقية العربية المسلمة لن تتحقق إلا على أيدي أبنائها ممن أشربُوا حبّها، وأخلصوا لخصوصيتها ووحّد بينهم شعور بماض مشترك وقيم مشتركة، وتلك حقيقة تدفع ما ذهب إليه حسن حسني عبد الوهاب في قوله : « إن غالب أرجاء المملكة التونسية خرجت عن حكمهم (الحفصيين) واستبد بها ثوار من الأعراب كأسرة الشابيين بالقيروان » ونواحيها لعجز الدولة عن مقاومة أطماع الثائرين (1) .

من الواضح لدينا أن سيدي عرفة وصل إلى الدعوة للخصوصية التونسية نتيجة لتحليله واقع المسلمين في عصره في مختلف أقطارهم وبخاصّة واقع الخلافة العثمانية ، وهو واقع يموج بالخيبات والهزائم ويزدحم بالتخاذل والتخلي .

---

1) ورقات ، تونس 1965 ، ق 1 ، ص 460 .

لقد سقطت غرناطة آخر قلعة إسلامية في الأندلس سنة (1492/898) ، فلم تنجد الدولة العثمانية أهلها الذين استنجدوا بها ، وآثرت أن تتخلى عنهم (1) .

إن هذا الموقف فطّن سيدي عرفة إلى هول ما يجري في البلاد الإسلامية ، وإلى المخاطر التي أصبحت محدقة بإفريقيّة من جرّاء سقوط غرناطة ، وجعله يدرك أن الاعتماد على الأتراك أو على غيرهم من المسلمين ممن لم يجمعهم قطر واحد وإحساس قطري مشترك في صورة تعرض إفريقيّة لهجوم مسيحيّ وهمٌ لا غناء فيه . وقد وجد الحلّ البديل في الاعتصام بالخصوصيّة التونسيّة،فربّى القبائل تربية دينيّة وطنيّة، وأيقظ إحساسها القوميّ ، ولقّنها أن الهدف من دعوته هذه هو الإطاحة بالحفصيين،والحفاظ على استقلال البلاد، وردّ المغيرين عليها مهما تكن ديانتهم. إنّ انعدام التحليل السّائد في ذلك الوقت في المجتمع الإسلامي أتاح للعثمانيّين أن يفهموه أن الولاء لهم هو الولاء للإسلام نفسه ، وتحت وقع الهزائم في ظلّ الفساد المستشري أصاب مشاعر المسلمين وهنُ الاستسلام للحضور العثماني ، ومن هذه الزاوية تعتبر دعوة سيدي عرفة دعوة تقدّمية بإطلاق خاصّة إذا وضعنا في الاعتبار أن أغلب المؤلّفين والمصلحين التّونسيّين بين القرن السّادس عشر والقرن التاسع عشر وفي مقدّمتهم ابن أبي دينار وخير الدين ظلّوا ينادون بالولاء للعثمانيّين ويَحضّون على الخضوع لهم لأنّهم لم يفرّقوا بين الوطن والدولة العثمانيّة .

إن دعوته الوطنيّة جعلته يواجهُ ثلاثة أعداء : الحسن الحفصي وجيش شارل الخامس والعثمانيّين ، وليس هذا بالأمر اليسير فإنّ الدولة العثمانيّة ودولة شارل الخامس تعتبران في ذلك العصر أعظم قوّتين تتنازعان البحر الأبيض المتوسط ، ولئن تناقضت مصالحهما والتحمتا في حروب متواصلة على أرض إفريقية وسواحلها من أجل الظفر بها فإنّهما اتفقتا في محاربة سيدي عرفة

1) المؤنس ، ص 178 .

وفي العمل على الإطاحة بهذه الدولة القوميّة التي أسّسها ، وهي حقيقة تاريخيّة تنقض ما ذهب إليه محمد الهادي الشريف في الكتيّب الذي أوجز فيه الخطوط الكبرى لتاريخ تونس حين اعتبر أنّ الإمارة الشابيّة لم تقم إلاّ باستغلال القائمينَ عليها لظروف التّناحُر بَيْنَ الحفصيّين والإسبان والأتراك (1) كما تنقض ما ذهب إليه Paul Sebag حين قرّر أن الأتراك بعد طردهم من العاصمة من طرف شارل الخامس تمركزوا في داخل البلاد بفضل مساندة الطريقة الشابيّة لهم (2) .

لم يكن كره سيدي عرفة للأتراك آنيًا ولا مناهضته لهم مقارنة لاستيلائهم على تونس سنة (1534/941) وإنّما كان كرهًا استقرّ في نفسه قبل ذلك ، نتيجة لتحليله واقع الدّولة العثمانيّة وطبيعة علاقتها بالبلاد الاسلاميّة ، وقد انتهى إلى أن العثمانيّين ليست لهم أيّة أحقيّة في تمثيل الإسلام وفي اختصاص حمايتهم لدياره ، وأكثر من ذلك فقد كان يعتبرهم أجانب عن البلاد ، وهم في نظره من هذه النّاحية لا يختلفون عن الإسبان ، لذلك جدّ في مناهضتهم وعمد إلى تهجينهم والزّراية بهم في فترة سبقت قدومهم إلى المغرب، وهو الذي حدث سنة (1525/932)، وذلك نتيجة لإدراكه أنّهم مصمّمون على فتحه جاء في الفتح المنير « ومن ذلك ما سمعته عنه أيضًا أنّه أتاه قائد من قوّاد التّرك خرج من البحر قبل انتشارهم في هذا المغرب فأتاه زائرًا وجلس بين يديه ، وأقبل عليه الشيخ (سيدي عرفة) وقال : يا فقراء ، هذا الرّجل مكتوبٌ على « زَمَنْزُومَتْه » الفتح، فأيّ بلد توجّه إليه فتحه الله له، ولكن فيه عيب . فقالوا يا سيّدي ما ذلك ؟ فقال إنّه خَصِيٌّ ، فاعترف الرجل بذلك ووضع بصره على الأرض » (3) .

1) تاريخ تونس ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، تونس ، 1980 ، ص 65 .

2) Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574, in les Cahiers de Tunisie, numéros 65-66-67, 1969, P. 9

3) الفتح المنير، ص 102 .

إن سيدي عرفة كان يؤرّقه إصرار العثمانيّين على الفتح وقدرتهم عليه ، وإن لم يكن قارّا ولا مثمرًا ، حسبما يفيده هذا النّصّ (1) . ففي الفترة الفاصلة بين (1525/932) و(1534/941) لم يكن يخفي تخوّفه من حملة عثمانيّة متوقّعة على تونس ، ومن عمل خيانيّ للحسن الحفصي يتيح للمسيحيّين أن يتدخّلوا،ويفتح الباب على مصراعيه لصراع عنيف تهتزّ له أركانُ إفريقيّة . وقبيل هذه الفترة كان قد سُجِنَ من طرف السلطان محمد الحفصي لخشيته من تزايد قوّته في أكثر أنحاء إفريقيّة ، ويُعْزَى خوفُ سيدي عرفة إلى أنّه في تلك الغمرة من الأحداث قرّر أن يثور، فأخذ يعدّ العُدّة ويستنفر القبائل ويهيّئها للسّاعة الحاسمة ، لكنّه لم يكن مطمئنًّا لما سيسفر عليه هذا الصّرَاعُ ، وبقدر ما كان يعمل للانتصار كان يفكّر كذلك في الهزيمة، لذلك قال لتلاميذ له من منطقة قسنطينة ألحّوا في السلام على أبناء الشابّيّة الذين كانوا في الطريق إلى الكُتّاب بالقيروان « الله الله يَافُقَرَاء ، لاَبُدّ يجُوكُمْ وتعودون تِدَرّقُونْ عليهم » (2) .

ولتأكّده من قسوة الأتراك وإلحافهم في تعقّب خصومهم كان يحذّر أبناء الشابّيّة ويستحثّهم على الاستعْداد للمواجهة ، ويهجّن لهم التهافت على الدّنيا والإعراض عن الجهاد ، وبلغ به الأمر أن قال لهم ذات مرّة « والله لاَبُدّ دياركم تُحفَر بالفؤوس » (3) . وفعلا فقد اكتسح درغوث باشا القيروان سنة (1557/965) وأسقط الإمارة الشابّيّة ، فنهب أتباع الزّاوية الغريانيّة دور الشابّيّة وجعلوها أثرا بعد عين ، وَبَدَا كُره الشابّيّة للأتراك تقليدًا لم تَحِدْ عَنْهُ الأسرة منذ أن حدّد سيدي عرفة موقفه منهم باعتبارهم غزاة تستّروا بالدّين ، وحين

---

1) علي الشابي : مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية ، في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 13 و14 ، تونس، جانفي 1979 ، ص 71 .

2) الفتح المنير ، ص 105 .

3) المصدر ذاته ، ص 101 .

أسقطوا الإمارة الشّابيّة طوّف الشابيّة في مختلف أنحاء إفريقية وظلّوا يستنهضون حلفاءهم،ويتخيّرون الأماكن الحصينة للتخفّي فيها وللانقضاض منها على أعدائهم، من ذلك أن الزّفزاف بن عرفة حين زار تيزڤرارين، ورأى فيها قلعة حصينة شاهقة، هفا إلى أن تكون هذه القاعة مقرًّا لأولاده حتى آخر الزّمان ، لأنّها حسب تعبيره « ما تْمنّعْ من التُّرْكْ إلاّ هِـي »، وفعلا فقد تحصّن بها أولاده ، ولئن تمكّن الأتراك من أن يقتلوا بها (محمّداً بنّور) والد محمد المسعود الشّابّي وعبد الصّمد الشّابّي فإنّ هذا قد اتّخذَ منها بحقّ مَعْقَلاً حصيناً دَأب على الانقضاض منه على الأتراك وحلفائهم، فألحق بهم هزائم نكراء تمكّن في إثرها من تكوين إمارة بدويّة في الجنوب الغربي لإفريقيّة، كما استطاع أن يفرض على يوسف داي سنة (1616/1025) الموافقة على مشروع تقسيم إفريقية مناصفة، ولم يعطّل تنفيذ هذا المشروع إلاّ نكوص طرود وانقلابها على عبد الصّمد ، ومن المفيد التّذكير بأنّ مقاومة الشّابيّة للاحتلال العثماني تواصلت بعد سقوط الامارة الشابيّة ثلاثا وعشرين ومائة سنة، شهدت فيها أرض إفريقيّة من ظلم العثمانيّين وعسفهم ما لم تشهده أرض إسلاميّة عداها ، ولعهْد قريب كانت النّسوةُ الشّابيّات يَقُلْنَ حين يفْلت منهنّ أمرٌ (كَيَّهْ في التّرْكْ) ؛ كما أثر عن الشّابيّة زرايتهم بتركيا وارتياحهم لضعفها حين أدركها الوهن في قولهم (تركيا أمّ بخنوق)، ومن ثمّ فإن القول بأن العثمانيّين لم يعسفوا في تونس كما عسفوا في المشرق (1) قول لا طائل من ورائه .

كان على سيدي عرفة أن يواجه الحسن الحفْصي وحلفاءه الاسبان الذين استنجد بهم لإعادته إلى عرشه سنة (1535/942)، فما تردّد في منافحتهم لدرء الخطر الدّاهم على أرض إفريقيّة (2) . ومن موقعه الصّوفي والقوميّ حَكَمَ

1) أحمد بن عبد السلام : الوطنية في التواريخ التونسية بين القرن السابع عشر والتاسع عشر، ضمن « الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع » تونس، 1979 ، ص 289 .

2) راجع : Tahar Guiga : Dorgouth Raïs, Tunis, 1974, P. 16

على الحسن بالردّة لخروجه عن الشّريعة الإسلامية عندما وقع مع المسيحيّين معاهدة تقضي بمحاربة إخوانه في العقيدة (1)،وأعلن أن الجهاد فريضة،وحسب Bosio ، وهو من مؤرّخي القرن السّادس عشر، فقَدْ « أثار سيدي عرفة باسم الدّين المواطنين ضدّ مولاي الحسن،وأعلن أنّه كفر بالشّريعة الإسلاميّة لأنّه تحالف مع النّصارى ضدّ أبناء ملّته » (2) .

عندما احتلّ الاسبان تونس،وحصلت وقعة الأربعاء المشؤومة،أغاث سيدي عرفة أهل تونس بخمسمائة جمل قادها بنفسه ونقل عليها إلى القيروان عددا كبيرا من اللاّجئين،ثمّ حين كوّن جيشا قوميّا منظّمًا وأدمج القادرين منهم فيه خاض حربيْن ضاريتيْن حقق بهما الانتصار على أعداء إفريقية .

ومن المفيد أن نلاحظ أن ردود الفعل الحاصلة ضدّ الغزو الاجنبيّ هي التي كانت سببا في تزايد حدّة الشعور القوميّ عند سيدي عرفة ، وأنّ تكوينه ذلك الجيش المنظم يُعدّ تجسيما حقيقيّا لصورة هذه القوميّة ، وعلى هذا فإنّ انبثاق الأمّة التّونسيّة لم يحدث إثر تصدّع الأمبراطورية العثمانيّة كما ذهب إلى ذلك البشروش،وإنّما حدث في القرن العاشر الهجري بفضل جهود سيدي عرفة المبكّرة (3) . ومن رأينا أن ما يُلحظ عند التونسيّين عامّة خلال القرون الخمسة الأخيرة من حدّة متميّزة في الشعور بالقوميّة القائمة على المزج بين « العروبة والاسلام والوطن » يرجع أساسا إلى عراقة هذه الحركة وتجذّرها في التربة التونسيّة ، وهي حركة لم يفطن لوجودها بعض الباحثين الذين كتبوا عن الوطنيّة التونسيّة ، وهم قد ذهبوا كلّ مذهب للبحث عن بذور لهذه الوطنيّة قبل القرن العشرين ، فلم يقفوا في الأغلب إلاّ عند كلمات شاع استعمالها لدى بعض المؤرّخين والمصلحين التّونسيّين،حاولوا أن يستشفّوا من

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 55 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) راجع ، توفيق البشروش : القومية القطرية في تونس قبيل الحماية ، في « الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع » ، ص 107 .

خلالها حقيقة ما يدور في أذهان التّونسيّين ، مستخدمين في ذلك منهجًا فيلولوجيّا تركّز على الإفادة من مصادر شائعة ومحدودة في عددها ، وهو مَنْهَجٌ لا غَنَاءَ فيه في هذا الميدان من البحث لأنه لم يُؤَيّدْ بالمنهج التّاريخي الذي يستقطب الوقائع القريبة والبعيدة ويعمد إلى تحليلها وتجلية ما غمض منها وما اخْتُصر منها عُنْوَةً (1) .

لقد كان محمود بوعلي أوّل مَنْ فَطَّنَ إلى حقيقةِ حركة سيدي عرفة وأبعادها القوميّة ، فجلاّها في الجزء الأوّل من كتابه La sédition permanente وأبرز أهميّتها في معابر التّاريخ التّونسي ، اذا اعتبر سيدي عرفة قائدًا سياسيًّا وَفيًّا لهدف محدّد ، هو تحقيق استقلال إفريقيّة العربية المسلمة بمَنْأى عن كلّ تَدَخُّلٍ أجنبيّ ، سواء أكان عثمانيّا أم إسبانيّا ، يقودها هو بنفسه حسب المبادىء التي يرتضيها ، وهي مبادىء إسلاميّة خالصة .

إن إضافته المتميّزة دون سائر صوفيّة إفريقيّة تتمثّل في عمله على تأسيس امبراطوريّة قويّة ، شأنه في ذلك شأن ابن تَاشفين في تأسيسه دولة المرابطين ، وابن تومرت في تأسيسه لدولة الموحّدين ، واسماعيل الصّفوي في تأسيسه الدولة الصفويّة بإيران سنة (1501/907) . ويرى محمود بوعلي أن محاولة سيدي عرفة هذه تمثّل انتفاضة للتعبير عن الشعور الإفريقيّ الأصيل ذي الطابع القومي ... وعلى هذا النسق فإنّه يجب أن نلاحظ أنّ انتصار سيدي عرفة على الإسبان وعملائهم الحفصيّين ووقوفه ضدّ التدخّل العثماني يعطيان للحركة الشابيّة معنى واضحًا تماما ، وهي أنّها حركة قوميّة بأتم معنى الكلمة (2) .

---

1) راجع في « الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع » ، تونس، 1979 . توفيق البشروش : القومية الفطرية في تونس قبيل الحماية، ص 95 — 119 . خليفة شاطر : بروز الهوية القومية في تونس، ص 187 — 204 . أحمد عبد السلام : الوطنية في التواريخ التونسية بين القرن السابع عشر والثامن عشر، ص 269 — 290 .

2) راجع ، محمود بو علي : الثورة المستمرة في البلاد، ج 1 ، ص 148 ، 153 ،

وهذا ما عنّاه الأستاذ عبد العزيز الشّابّي في قوله « كان لتلك المقاومة الطويلة المدى التي خاضها الشّابيّة ضدّ الغزو الاستعماري الإسباني والغزو التركي أثرُها الفعّال في إبراز الشخصيّة التونسيّة الاسلاميّة » (1) .

بين سيدي عرفة والسّلطان محمد الحفْصي :

تولّى سيدي عرفة رئاسة الطريقة سنة (1494/900) أي بعد انتصاب حكم السلطان محمد الحفصي بسنة واحدة،واستمرّ في رئاسته لها وقيادته للحركة إلى سنة (1542/949) سنة وفاته ، ومعنى هذا أن اثنتين وثلاثين سنة منها قضاها في عهد محمد الحفصي الذي توفّي سنة (1525/932)، وهو ما يسمح لنا بالقول بأن إعداد سيدي عرفة لثورته تمّ في عهد هذا السلطان الذي تداعت أمور الدّولة في عهده أكثر من ذي قبل،واستشرى الوهن في أجهزتها كما لم يستشر من قبل ، وذلك بالرّغم من محاولاته الكثيرة التي استهدفت تدارك الوضع .

لم تتناول المصادر التونسيّة سيرته،بينما احتفظ لنا الحسن الوزّاني الفاسي : Léon l'Africain بأدقّ وصف لشخصيّته ، يكشف بحقّ عن تهالكه على اللّذّة وتهافته على المجون وتفريطه في شؤون الدّولة . ونصّه :

« إنّ الفارق كبير بين طريقة العيش العاديّة للملوك القدامى وطريقة العيش الخاصّة للملك الحاليّ (أبي عبد الله محمد الحفصي) ، ونتيجةً لذلك فإنّ هذا الملك رجل من طبيعة أخرى ، وله عادات وسيرةٌ تختلفُ عن عادات الملوك السّابقين وسيرهم ... يجب عليّ أن أقول إنّ هذا الملك كانَ يأخذُ الأموال من أتباعه،فيعطي جانبا منها للبدو،وينفق الباقي في بناء قصوره . وفي هذه القصور كان يعيش حياة ماجنة بين العازفين والمغنّين والمغنّيات إنْ في القصور وإنْ في الحدائق الغنّاء ، وحين يجب على أحدهم أن يغنّي أو أن

---

1) من رسالة وجهها الي بمناسبة صدور كتابي ، أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية ، وهي مؤرخة في 1980/2/20 .

يعزف الموسيقى بحضرته تُعَصَّبُ عيناه مثل الصَّقر ، ويُدخلونه البيت الذي يوجد فيه الملك وعشيقاته » (1) ، وسرى هذا الانحلال في أوصال العاصمة فتكاثر البَغَايَا والمنحرفون وشاع استعمال « الحشيش » (2) .

لذلك اتّسم عهده بخروج أغلب البلاد عن حكمه واحتلال المسيحيّين لطرابلس سنة (1508/914) وبجاية سنة (1509/915)، واضطر إلى الدّخول في وقائع كثيرة لم ينل منها إلاّ الخيبات، كانت أقساها على نفسه تلك التي حصلت له مع الأعراب، إذ أوقعوا به وهزموه على القيروان، فكرّ خائفًا إلى تونس في ثمانية من الفرسان (3) بعد أن ترك عددًا كبيرًا من القتلى وقدرًا غير قليل من الأسلحة والخيول . ولم تفصّل المصادر في أمر هذه الهزيمة كما لم تذكر تاريخا لها لأنّها اعتمدت على ما أوجزه ابن أبي دينار (4) .

بيد أننا نستطيع أن نستشفّ من وراء فداحة هذه الهزيمة وما حدث لسيدي عرفة مع السلطان محمد الحفصي قبل ذلك إشرافَ سيدي عرفة بنفسه على هذه الحرب لأن الأعراب الذين خاضوها كانوا تلاميذه الأوفياء وجنوده المخلصين. ويبدو أنّ هذه الحرب وقعت بعد سنة (1509/915) سنة احتلال المسيحيين لبجاية . ولم يكن محمد الحفْصِي قد عناه أمرها كما لم يَعْنِه من قبلُ احتلال المسيحيين لطرابلس الذي حدث سنة (1508/914)، لذلك اعتبره سيدي عرفة مفرّطا في حوزة ديار المسلمين . إن ما أقضّ مضجع الشيخ هو خوفه من أن يصل المد المسيحي إلى قلب إفريقيّة وأن ينتصب الصليب في القيروان العاصمة الرّوحيّة للمسلمين في سائر أنحاء المغرب كما انتصب في غيرها من حواضر الاسلام ، لهذا دعا سيدي عرفة أتباعه للثّورة على هذا السلطان المتخاذل . لكن ما الذي

---

1) الحسن الوزاني الفاسي : وصف إفريقيا ، ج 2 ، ص 388 .

2) المصدر ذاته، ج 2 ، ص 385 .

3) ابن أبي الضياف ، ج 1 ، ص 190 ، واضح أن العدد المذكور في المؤنس وهو (ثمانمائة من الخيل) لا يستقيم ، والظاهر أنه خطأ من المحقق، راجع ، ص 160 .

4) راجع ، مثلا، ابن أبي الضياف، ج 1 ، ص 190 — 191 . الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ، ص 84 .

حدث لسيدي عرفة معه قبل وقوع هذه الحرب ؟ وكيف كانت العلاقة بينهما ؟ ...

من الواضح أن سيدي عرفة أمعن في الدعوة ضدّه، وفي التحريض عليه، بعد سنة (1509/915) وقبل سنة (1525/932) سنة وفاة السلطان الحفْصي، فازداد تعلّق النّاس به ومحبّتهم له، باعتباره إمامهم الروحي وقائدهم السّياسي، فأوغر عليه محمد مغوش صدر السلطان، وقال له: إنّ سيدي عرفة يهيّيء للثورة عليك فأمر بسجنه على النّحو الذي ورد في « الفتح المنير »، ونصّه: « والسبب في سجنه أن أهل العلم الظّاهر حسدوه وبغضوه على طريقه وما أعطاه الله من محبّة الخلق وصَرْفِ وجوههم إليه، كما أجرى الله العادة مع أوليائه من كثرة المحبّين وعدم خلوّهم عن الحاسدين خصوصا أهل العلم الظّاهر وهم لا يعتقدون فيهم.. وكان عالم بتونس يقال له محمد (بن محمّد) التّونسي (الملقّب بمغوش)، فتكلّم مع السلطان في الشيخ بما يضرّه فأمر بسجنه، كما تكلّم ابن براء قبله في الشيخ الشاذلي وكذلك غيره في الشيخ عبد الرحمان الجلّولي ... فلمّا أن تكلّم فيه التونسي بعث إليه السلطان بأعوانه فقبضوا عليه وأتوا به إلى تونس، فركب منهم واحد على فرسه فهربت به فوقع وظلّت رجله في الركاب فما زالت تجرّه والنّاس يطردونها إلى أن تفتّت جسده، فلم يركبها واحد منهم بعد ذلك اليوم، ثمّ أدخله السلطان بيتًا ثقفه فيه وأتوا بالحديد « ليسمّروه » على رجليه فلمّا أراد « السّمّار » أن يضربه طار المسمار فوقع في عينه ففقأها، ثم أتوا بالثاني فوقع به ما وقع بالأوّل، فكفّوا عن ذلك وخافوا، فلما رآهم (سيدي عرفة) كذلك أخذ الحديد بيده وجعله في رجله » (1).

وطيلة هذه المدّة كان أخوه أبو الفضل مقيما في تونس ودأب على إعلامه بما يجدّ عن طريق هرّة توضع في رقبتها الرسالة مطويّة مخفيّة وحين تصل إلى الشيخ في سجنه يفكها ويقرأها ويجيب فيها ثم يردها إلى عنقها فتنتهي بها إلى أبي

1) الفتح المنير، ص 98 – 99 .

الفضل . في هذه الاثناء مرض السلطان مرضًا أقعده مدّة طويلة في الفراش فتصوّر أن السبب في عدم بُرْئِـهِ سجنُه لسيدي عرفة فأمر بإطلاق سراحه فَعَـادَ إلى القيروان بعد أن بقي في السّجن سبعة أشهر موثقا بالأغلال ، ويبدو أن هذا السّجن كان سَبَبًا في مزيد إقبال الناس عليه وعلى آرائه والالتفاف من حوله باعتباره المخلّص لهم من جور الحفْصيّين وتخاذلهم ، وهو ما عَنَاهُ صاحب « الفَتْح المنير » بقوله « فوسّع الله طريقته وأعلى همّته » (1) ،

وفي فترة لاحقة قَاد الأعـراب في الحرب التي ألمعنا إليها فألحق بمحمد الحفصي هزيمة نكراء « ولم تزل الدولة الحفصيّة في نقص وتراجع إلى أن توفّى سنة (932/1526) (2) فتولّى ابنه الحسن الحفصي الذي اعتبره ابن أبي دينار اسمًا لا رسمًا (3) وفي أيامه تغلبت الاعراب على جلّ البلاد واشتدت شوكة أولاد سعيد فهادنهم السلطان الحسن بستين ألف دينار (المؤنس، ص163).

سيدي عرفة والحسن الحفصي بين (932/1525) و(949/1542) :

لا نملك أخبارا عن طبيعة التوتّر في العلاقات بين الحسن وسيدي عرفة طيلة السّنوات العشر الأولى (932/1525 ــ 942/1535) من حكم الحسن وإنْ كنّا نعرف أنّ هذا التّوتّر بلغ أوجه بإمعان الحسن الحفصي في تهتّكه وانحلاله وتفريطه في حقوق المسلمين ، وباحتلال العثمانيّين لتونس في (19 أوت 1534) واستنجاد الحسن الحفصي بالاسبان سنة (942/1535) لطرد العثمانيّين وإرجاعه إلى عرشه . لقد دفع التونسيّون ثمن ضعف محمد الحفصي وقصور نظره وانحلال ابنه الحسن وخيانته في فترة احتدّ فيها الصراع العثماني المسيحي على السواحل والمدن المغربيّة وتكالب فيها الاسبان على تمسيح المغرب وتعميده . وقد هيّأ للاحتلال العثماني استشراء الثورات في البلاد وانخرام الأمن ووقوع

---

1) المصدر ذاته ، ص 99 .
2) ابن أبي الضياف ، ج 1 ، ص 191 .
3) المؤنس ، ص 161 .

الحسن تحت سطوة مباذله وشهواته . وبظهور العثمانيّين في الميدان حدث ما كان يخشاه سيدي عرفة .

كان السلطان سليمان القانوني قد دعا خير الدين إليه بالآستانة ، فذهب صحبة الرشيد أخي السلطان الحسن الحفصي ، وحين لقي خير الدين السلطان ، طلب إليه أن يغزو تونس ، وينصّب الرشيد عليها ظاهريا بقصد ارضاء أهل تونس الذين انزعجوا من سوء سيرة الحسن على أن يكون الحكم الحقيقي له فوافقه السلطان وأمدّه بأسطول يتكوّن من مائتيْن وخمسين سفينة كما أمدّه بالعتاد والأموال ، وفي طريقه إلى بنزرت قام ببعض الغزوات في ماطلة وجنوب إيطاليا . (محمد العروسي المطوي : استبداد الشّابّيّين بالقيروان ، في مجلّة الاذاعة والتلفزة التّونسيّة ، العدد 440 ، 15 مارس ، 1979 ، ص 22) .

في سنة (1535/941) غزَا خير الدّين بنزرت فاحتلّها وخطب باسم السّلطان سليمان القانوني عندئذ سيطر الهلع على الحسن فأخذ يطوّف في شوارع تونس، ويستنجد بالسّكان قائلا لهم « أنا أبوكم وأنتم أبنائي » لكن لم يُصْغِ إليه أحدٌ لأنّه كان مكروهًا من الجميع. وفي يوم (15 أوت 1534) أرسى خير الدّين بحلق الوادي ، وفي يوم 19 أوت احتلّ تونس (1) ، ففرّ الحسن صحبة أمّه واختفى عند الأعراب وظنّ خير الدين أن السّكان سيبايعون رشيدًا أخا الحسن الذي جاء معه بعد غيبة قضاها محتميا به ، لكن ما بدر منهم خيّب ظنّه ، فقد طلبوا إلى الحسن أن يعود إلى تونس لينصروه في حربه ضدّ خير الدين ، وعاد الحسن ، وفي صباح 18 جانفي 1535 احتدم الصّراع في المدينة بين باب الجزيرة الذي اتّخذه خير الدين منطلقا لهجومه وباب سويقة

---

1) كان جيش خير الدين الذي احتل تونس مكونا من (1800) انكشاري و6500 يوناني وألباني وتركي و600 من المماليك أغلبهم من الإسبان ومن 84 مركبا بحريا وزع البعض منها إثر دخوله تونس على عدد من السواحل الافريقية، راجع ،وثائق جديدة حول تاريخ الاحتلال الاسباني لإفريقية ، في المجلة الإفريقية 1875 ، ص 438 .

الذي تحصّن فيه جيش الحسن ومن ورائه الأهالي ، فكانت الحرب سجالا إلاّ أن الكلمة الفاصلة كانت في النّهاية لأسلحة خير الدين العصريّة وهُـزم الحسن ففرّ واختفى بين الأعراب ، فاكتسح العثمانيّون الدُّورَ،وذبحوا كل من وجدوا فيها من الرجال والنّساء والأطفال ، وقد ذهب ضحيّة هذه المذبحة الرهيبـة حسب Juan de Iribès ألفـان ، فاستسلـم الأهـالي وسيطـر خيـر الدين على الموقف (1) . أما Roger Dessot فيـرى أن عدد قتلى مدينـة تونس بلغ أكثر من ثلاثة آلاف وأن عدد الجرحى كان ستمائة (2) . وفي يوم 7 أكتوبر من السّنة نفسها أقام خير الدين بتونس أفراحًا كبيرة دامت أربعة أيّام بلياليها لانتصار السّلطـان العثماني على الشـاه الصفـوي بإيـران ، وهكذا فإنّ فتك العثمانيّين بأهل تونس وبهجتهم بانتصارهم على الصفويّين يدلاّن على حقيقة موقفهم وعلى أن عملهم لم يكن دائما لخدمة الاسلام وإنما كان في كثير من الأحيان لمآرب حربيّة وسياسيّة واقتصاديّة .

وقد آلم سيدي عرفة ما ارتكبه خير الدين في تونس من عسف وقتل فأخذ يعدّ العدّة لخوض الحرب ضدّه وذلك بتجنيد القبائل الموالية والكشف لها عن حقيقة الاحتلال العثماني الذي أناخ على البلاد بسبب انهيار الدولـة الحفصيّة وانحلال الحسن الحفصي بيد أن خير الدين بادر بمفاوضة رؤساء قبائل الحنانشة ودريد والنّمامشة لإفسادهم على الشابّيّة وإقحامهم في حظيرته ، وأرسل إليهم هدايا من بينها عدد من البرانس من القماش الأزرق ، وأعلمهم بأن مَنْ يَقْبِضْ له على الحسن يعطهِ ثلاثيـن ألف Ducats (3) ، ومَنْ يُعِنْه على الاختفاء ينَلْه أشدَّ العقاب . ولم تستمرّ المفاوضات فقد قطعها خير الدين بحملته عليهم قرب القيروان مستصحبا المدافع على العجلات ، ولم تكن معروفة

1) المصدر ذاته ، ص 346 .
2) Roger Dessot : Histoire de la ville de Tunis, P. 53
وراجع محمود بو علي : الجندي التونسي . . ، ص 81 .
3) راجع قيمتها أسفله .

آنذاك في المغرب ، فأثخن فيهم القتل والأسر فدانوا بالطاعة للسلطان العثماني ، وطلبوا من خير الدين الأمان فأمّنهم ، وظلّ الأعراب على ولائهم لسيدي عرفة .

لما فقد الحسن عرشه ويئس من نصرة السكّان له نصحه مملوك جنويّ يسمّى Ximea بطلب النجدة من شارل الخامس ، إدراكًا منه بأنّ هذا يروقه أن يحتلّ إفريقية ويطرد خير الدين ويرفع لواء المسيحيّة بها ، فأخذ بنصيحته وذهب إلى اسبانيا طالبا النجدة فأمده بجيش عاد به إلى تونس وكان شارل الخامس في صحبته فاحتلها يوم 14 جويلية 1535 وطارد خير الدين ففرّ إلى عنّابة ، ثم أجلس الحسن على عرشه من جديد فارتفعت الراية المسيحيّة في البلاد .

إن هذا الاحتلال قد أضاف إلى أحزان التونسيّين حزنا مقيما فطنّهم إلى هول ما ارتكبه الحسن بخيانته وعمالته للإسبان وإلى حقيقة المخاطر التي أصبحت تتهدّد الاسلام في افريقيّة ، ومرّة أخرى حصل ما كان يخشاه سيدي عرفة وهو أن تصبح إفريقيّة موْئلا لصراع محتدم يُفقدُها شخصيتها ويُضيعُ منها هُويّتها . لكن قبل أن نفصّل في أمر هذا الاحتلال وفي موقف سيدي عرفة منه إثر وقعة الاربعاء المشؤومة يجدر بنا أن نُحدّد ملامح شخصيّة الحسن لنتمكّن من فهم الوقائع التي تتالت على إفريقيّة أثناء هذا الاحتلال إذ كانت شخصيّته بؤرة من الانحلال والتهتّك والتهافت المزري لا تُسْلِم إلاّ إلى ما أسلمت إليه .

عندما عاد Ochoa d'Ercilla إلى طليطلة بعد أن أطلق الحسن سراحه من الأسر كتب مذكّرة بتاريخ (1533/940) أرسلها إلى مجلس الامبراطورية بإسبانيا تضمّنت أخبارا عن الحسن وسيرته استقاها خلال أسره ، ونوردها لأنّها تفيدنا في فهم كثير من الوقائع .

« إن ملك تونس مولاي الحسن في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبا ، فهو أبيض مُشْرَبٌ بالسمرة لكنّه أنثويّ ، لا يهتمّ إلاّ

بمباذله ، وهو في حياته خليع بشكل لا يمكن التصريح به (؟) ، لا يقيم بالمدينة إلاّ نادرًا ، ويقضي الجزء الأكبر من وقته في دوره المتعدّدة التي خصّصها لمباذله ، فهو إمّا صائد بالصقر أو مُغنّ وموقّع على القيثارة بين جواريه كأنّه ديك بين الدّجاج ، وله فضلا عن عدد من الأعراب يحرسونه وأربعة وعشرين زنجيًّا ثلاثمائة رقيق مسيحيّ ، فهو ينفق أموالا كثيرة ، ولا نعرف كيف تأتّى له ذلك لأنّ المطلعين أكّدوا لي أن مداخيله لا تتجاوز المائة والخمسين ألف Doublas = (دينار) . لقد مضت سبع سنوات على اعتلائه العرش . كان له عدد كبير من الإخوة والأخوات لكنّه بإشارة من والدته التي يطيعها دائما كأنّه ما يزال طفلا قتلهم ، عدا أخوين أكبر منه عمرا أفلتا من هذه المأساة » (1) .

إن هذا الوصف الدقيق يدفع ما أورده ابن أبي دينار ومن نقلوا عنه بشأن الحسن في بداية أمره وهو « وسار سيرة حسنة في أوّل الأمر » (2). لقد واصل الحسن سيرته المنحلّة التي ألفها قبل تولّيه العرش ، وحين تولّى أخلص لهدف محدّد لم يَعْدُه ، هو البحث عن سندٍ خارجيّ يحافظ به على عرشه المهتزّ من الثّورات المستشرية مهما كان الثّمن ، وكان الثّمن الذي قدّمه لشارل الخامس باهضًا على إفريقيّة ، فقد وجد شارل الخامس الفرصة السّانحة لكسر شوكة أعداء الدّين المسيحيّ حسب تعبيره في رسالته المؤرّخة في 23 جويلية 1535 والتي وجّهها من تونس إلى قائد بجاية (3) ووجدها في فرض معاهدة على الحسن جعلت للمسيحيّة حقوقا في افريقيّة في مقدّمتها السّماح للمسيحيّين بالإقامة في مملكة تونس دون أن يتعرّضوا لأي إزعاج أو مضايقة ، والحفاظ

1) وثائق جديدة حول تاريخ الاحتلال الاسباني لإفريقية ، في المجلة الافريقية، 1875 ، ص 269 .

2) المؤنس ، ص 161 . ابن أبي الضياف ، ج 1 ، ص 191 وفيه « وأجمل السيرة » . حمودة بن عبد العزيز : التاريخ الباشي ، دار الكتب الوطنية ، رقم 1794 ، وفيه « وأحسن السيرة » ، ص 182 .

3) وثائق جديدة . . ، ص 495 .

على الكنائس وترميمها والسّماح لهم ببناء كنائس أخرى كلّما أرادوا ذلك في أيّ مكان وطرد من يلتجىء إلى المملكة من الأندلسيّين المتنصّرين (1) .

وقد استطاع شارل الخامس بجيشه المتكوّن من ثلاثين ألف جنديّ وأربعمائة مركب بحريّ أن يهزم خير الدين ويرجع الحسن إلى عرشه وأن يصل من وراء ذلك إلى إرضاء المشاعر المسيحيّة التي وجدت في طبيعة هذه المعاهدة كسباً للمسيحيّة قد ينمو في ظلّ استشراء نفوذ الامبراطور فينتهي مع الأيّام إلى أقصى مدى يهفون إليه وهو تمسيح هذه الأرض وتعميد أهلها ، وقد وجدت هذه المشاعر طلبتها أيضا في إباحة الجيش الاسباني لتونس مدّة ثلاثة أيّام بموافقة الحسن الذي ما كان له من هَمّ إلاّ عودته إلى عرشه ولو كان وهمّاً وإلى مباذله من أيّ سبيل ، فارتكب الجيش الاسباني في التاريخ نفسه (1535/942) من السلب والقتل ما لم تعرفه تونس في تاريخها ، وما أفاض المؤرّخون والشعراء التّونسيّون في وصفه وصفا يضخّمه الحزن ويطويه الأسى من ذلك قصيدة لأبي الفتح محمد بن عبد السلام التونسي الذي هاجر إلى دمشق مطلعها :

سلوا البارق النجديّ عن سحب أجفاني وعمّا بقلبي من لواعج نيراني ....
(عنوان الأريب 119/1)

وقد ألف التّونسيّون تسمية هذه الوقعة بخطرة الاربعاء ، وفيها قتل من سكّان تونس الثّلث وأسِّرَ الثلث وهرب الثلث ، وعدد كلّ ثلث حسب ابن أبي دينار ستّون ألفا ، أمّا المؤرخون الاسبان فقد حدّدوا عدد القتلى بسبعين ألفا (2) .

إن خيانة الحسن المتمثّلة في استعدائه المسيحيّين على المسلمين جعل منه في نظر سيدي عرفة مرتدّاً يجب خلعه وقتله ، ومِنْ ثمّ تكاثر الحاقدون

1) المصدر ذاته ، ص 136 ، وراجع ، الحلل السندسية ، ج 1 ، ق 4 ، ص 1093 . الخلاصة النقية ، ص 84 .
2) محمود بوعلي : الجندي التونسي ... ص 82 .

على الحسن وانضمّوا هم بدورهم إلى المناهضين له أصالة وهم أتباع سيدي عرفة من القبائل الشهيرة في افريقيّة فشدّ هذا من ساعد الشيخ وأقدم برغم تعقّد الظروف على الظهور من غير ما تردّد في ميدان الصراع .

كانت خطرة الاربعاء بكل المرارة التي أحدثتها في النفوس مناط حزْن عميق ألهب مشاعر سيدي عرفة ووقف به على حقيقة الوضع في ظلّ السيطرة المسيحيّة ، لهذا تحوّل إلى تونس في خمسمائة جمل لنقل الفارّين إلى القيروان،فوافى خروج الناس هائمين على وجوههم، وقد تعقّبهم بعض الأعراب في ناحية زغوان لإلقاء القبض عليهم وتقديمهم إلى الجيش الاسباني مقابل مبلغ يحصلون عليه من المحتلّين . وحسب ابن أبي دينار فقد بلغت فدْية من أراد الظفر بنفسه من أيدي الأعراب نحو ألف دينار « ومن لم يَفْدِ نفسه من كَافِرِ العرب تملّكه الكافر الآخر » (1) فنقل سيدي عرفة من هؤلاء الفارّين عددا كبيرا على تلك الجمال وقفل بهم إلى القيروان يطويه الحزن ويتملّكه الأسى . أورد صاحب « الفتح المنير » .

« وسمعت من والدتي (خديجة) رحمها الله ، وكانت حفيدة الشيخ (عرفة) بنت ابنه (الطاهر) ، قال (الطاهر) : سمعت من أخت الشيخ (أمة العزيز) ومثلها مَنْ حَضَرَ زمانَه ، قُلْنَ : إن الشيخ لمّا أتاه الخبر أن النّصارى قدموا إلى تونس سافر إليها بخمسمائة بعير ليحمل عليها النّاس ابتغاء وجه الله ، فوافى خروج النّاس فارّين من أعداء الدين فحمل ما شاء الله من الناس ، وأتى بهم إلى القيروان ، فلمّا قدم علينا ودخل الدّار أتيناه فسلّمنا عليه فأخذ في البكاء فصبّرناه وأسكتناه فأبى ، فقلنا : شيء أراده الله ، فقال : ما بكائي على أهل تونس ، فهذا شيء جاء به القضاء ، ولكن أبكي على خروج أولادي هكذا وتفرّقهم على وجوه البلاد » (2) .

1) المؤنس ، ص 164 .
2) الفتح المنير ، ص 100 .

ويبدو لنا أن خوف سيدي عرفة من المستقبل قد حمله على اتّخاذ خطوة نعتبرها حاسمة في تاريخ حركته القوميّة هي بناء جيش قوميّ منظم قادر على فرض الارادة الافريقيّة بحدّ السلاح وعلى تحقيق استقلال افريقيّة العربية المسلمة ، وإذا نحن وضعْنا في الاعتبار عدد الذين صافحهم سيدي عرفة وهو ألفا حسب «الفتح المنير» (114) أمكننا أن نتصوّر الأهمّيّة القصوى لجيش قاعدته على هذا النّحو من الاتّساع . وإذَنْ فقد كوّن سيدي عرفة هذا الجيش المنظّم سنة (1535/942) إثر رجوعه إلى القيروان . وعندئذ بادر بإعلان الجهاد وبالاستقلال بالقيروان لتكون منطلقا لتحرير افريقيّة بواسطة حلف الشابيّة (1) من ردّة الحفصي وسيطرة الصليب وهيمنة الخلافة .

تأسيس الإمارة الشابيّة ووقعة باطن القرن في (صفر 942/سبتمبر 1535) :

يحسن أن نذكّر بحقيقة نعتبرها ذات أهمّيّة قصوى في دراسة ثورة سيدي عرفة ودولته وهي أن المصدر التونسي الوحيد لدراستهما ، وهو المؤنس ، جاء شديد الاختصار ، ذلك أن ابن أبي دينار أوجز في أخبار سيدي عرفة السياسيّة والحربيّة وقدّم لهذه الأخبار بالرغم من تداخل بعضها بمقدّمة قال فيها إنّه اعتمد على أهل الحاضرة لأن المصادر التاريخيّة لم تُسعفه بشيء ، وقد ظلّت أخباره عمدة للمؤرّخين الذين جاؤوا من بعده ونقلوها بلفظها في كتبهم (2) . والملاحظ أن ما أورده ابن أبي دينار مجزّأ في موضعين لا يمكن فهمه حقّا ولا الوقوف على مقاصده إلاّ بتحليله في ضوء الوثائق الأوروبّيّة (الاسبانيّة والايطالية) وبخاصة الاسبانية منها ، وهي التي اعتمدها جميعا مونشيكور في كتابه القيّم Kairouan et les Chabbia سواء منها ما كان منشورًا أو محفوظا في دور الوثائق .

---

1) التعبير لألفريد بيل ، راجع ألفريد بيل : الفرق الإسلامية . . تعريب عبد الرحمان بدوي ، بنغازي ، 1969 ، ص 428 .

2) راجع ، وصف المصدر والمراجع .

قال ابن أبي دينـار : « سمعت من يذكـر من أهل تونس أن السلطان الحسن ساءت سيرته في النّاس، واضطربت عليه البلاد، وخرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليعي ، وقام عليه بالقيروان الشيخ عرفة، وكان من مرابطي القيروان من ذرّيّة الشيخ نعمون وهو جدّ الشابّيّين قام. على السلطان الحسن وبايع لرجل من لمتونـة اسمه يحيى . أوقفه في السلطنة وادّعى أنّه حفصيّ جاء من المغرب وتمّ له الأمر وهو في الحقيقة اسم لا رسم ، والشيخ عرفة ينفّذ الأمـور . وفرّ بعد ذلك يحيى من القيروان ودخل تونس في أيّام السلطان أحمد وهو متنكر فظفر به في المركاض فقطع رأسه وطيف به » (1). ثمّ أورد: « وبعد سنة الاربعاء جمع الحسن عربانا وجمع جموعا وخرج إلى القيروان لقصد افتكاكها من يد الشّابّيّين . فلما قرب منهـا ونزل باطن القرن خرجت إليه أهل القيروان فكبسوه ليلا فانهزم هو ومن معه، وأخذت أمواله ورجع مكسورا فأقسم لا يرجع عنها بحال ، وعزم على أخذها بالنّصارى كما أخذ تونس فخرج. بنفسه إلى بلاد النّصارى ليأتي بعمارة مثل الأولى ويأبى الله إلاّ ما يريد . وكان غرض الحسن إباحة القيروان كما أباح تونس، فقابله الله على صنعه وخبث نيّته » (2) .

إن هذين النصّيْن المكتنزين يطرحان كثيرا من القضايا المتعلّقة بحروب سيدي عرفة ودولته وأهمّها : إعلان استقلاله بالقيروان ، مبايعته الشكليّة لرجل من لمتونـة وما نتـج عنها ، وقعـة باطن القـرن وهزيمـة الحسن ، وقعة المنستير مع الخلط بينها وبين وقعة باطن القرن كما سيتّضح فيما يأتي . ولا يمكن الإفادة من هذين النّصّيْن بحقّ إلاّ بإحالتهما على المصادر الأوروبّيّة ، وهو ما سنعمد إليه فيما يلي .

---

1) المؤنس ، ص 161 – 162 .

2) المصدر ذاته ، ص 165 .

الوضعيّة عقب الاحتلال الاسباني ووقعة الاربعاء :

لم يجن الحسن الحفصي من استنجاده بالجيش الاسباني إلاّ مزيدًا من الوهن والضّعف وضياع السلطة ، فقد رضي بمشاركة أحد قادة الجيش الإسباني له في الحكم ، والحسن في هذه الحال لا يعدو أن يكون في الحقيقة شبحًا بدّدته الأهواء وعصفت به مطامع مَنْ بأيديهم النفوذ الفعلي . فالعرش قد اهتزّ من تحته ولن يعرف له بعد ذلك قرارًا ، والحواضر الرئيسيّة قد خرجت عن السلطة القائمة وأعلنت استقلالها عن سلطان المسيحيّين وردّة الحفصي ؛ فتونس التي استُحِلّتْ برضاه قد ازورّت عنه دون رجعة، وصفاقس وقعت تحت نفوذ المكني الشّابّي ، وجربة قد استبدّت بها عائلة بني سمومن، وسوسة قد استقلّ بها أبو سلامة القليبي صهر الحسن الحفصي وصهر سيدي عرفة من بعد ذلك ، والقيروان قد حمل فيها سيدي عرفة لواء الجهاد وأعلن عن استقلاله بها على نحو ما يبيّنه ابن أبي دينار، هذا فضلا عن استبداد الأعراب بجل البلاد . والحق أننا إذا استثنينا الأماكن التي لا تبعد عن تونس كثيرًا كمنطقة باجة ومنطقة بنزرت فإن بقية البلاد قد أعلنت رفضها لحكمه وخروجها عن طاعته وطاعة المسيحيّين . جاء في الرسالة التي أرسلها Bernardin de Mandoza إلى شارل الخامس بتاريخ 26 أكتوبر 1535 ما نصّه : « إننا إذا استثنينا منطقتي بنزرت وباجة وبعض الأماكن الأخرى التي لا تبعد أكثر من مسافة يوم على تونس، وهي التي تخضع للحسن ، فإن بقيّة البلاد لا تدين له بالطاعة . أمّا المنستير وسوسة وافريقيّة (المهديّة) فإنها تابعة لنفوذ خير الدين. وتدفع له ضريبة باسم السلطان العثماني » (1). وهذا ما تؤكّده الوثائق التركيّة. أورد عزيز سامح في حديثه عن الاحتلال الاسباني وإعادة الحسن إلى عرشه ما نصّهُ :

« لمّا جلس مولاي الحسن على عرش تونس صادفته مصاعب جمّة إذ

1) وثائق جديدة . . في المجلة الإفريقية ، 1876 ، ص 412 .

أنّ القيروان والبلدان الساحليّة لا تعترف به ، وحكمه يسري على الأراضي التي بين تونس وبنزرت » (1) .

وواضح أن سوسة التي استبدّ بها القليعي إثر وقعة الأربعاء في أواخر جويلية 1535 قد احتلّها الأتراك قبل تاريخ تلك الرسالة ، أي قبل 26 أكتوبر من السنة نفسها إثر خروجهم من تونس وفرارهم إلى داخل البلاد ، حيث تمركزوا في بعضها وسيطروا إلى حين على بعض السّواحل . وبين هذين التاريخين (أواخر جويلية 1535 و 26 أكتوبر من السنة نفسها) خفّف سيدي عرفة على نفسه من ضغط الاعداء ليتمكّن من مواجهة الحسن الحفصي والإسبان، فوثّق علاقته بالقليعي المستبدّ بسوسة وزوّجه بنته حسبما تؤكّد الرواية القطعيّة التي احتفظت بها الأسرة والتي نقلها إلينا الأستاذ عبد العزيز الشّابّي عميد المحامين الأسبق .

إن الذي يعنينا هنا هو أن سيدي عرفة استقلّ بالقيروان بالرغم من وجود كتيبة تركيّة تركّزت بها منذ شهر أوت 1534، أي عقب الاحتلال العثماني مباشرة (2) . وتتكوّن حسب الحاكم العسكري لحلق الوادي Bernardin de Mandoza في رسالته إلى شارل الخامس بتاريخ 28 أكتوبر1535 من مائتي تركيّ كان قد وجّههم خير الدّين . وبمجرّد وصولهم فرّ جنود الحسن الحفصي . وقد آثر سيدي عرفة أن يؤجّل تصفية هذه الكتيبة لأنّها لم تنازعه ، كما أنّها أعانته بطريق غير مباشرة بطرد جنود الحفصيّ من المدينة . في هذه الغمرة من التفكّك صمّم سيدي عرفة على تحرير إفريقية، وأخذ ينشر نفوذه على مقربة من مدينة تونس وفي بلاد السّاحل وفي منطقه الوسط والشمال الغربي والجنوب وفي منطقة قسنطينة وفي بلاد سوف فوفّق في ضمّها إليه . وكان أبرز ما عني به في بداية أمره استمالة طوائف من الأعراب القاطنين

---

1) الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تعريب عبد السلام أدهم، ص 38 .
2) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 48 .

قرب تونس، وُسمت بالانتساب للحفصيّين وبالنكوص على الأعقاب كلّما بدا لها ذلك . لهذا بادر بالاتّصال بها وباسترضائها بوسائل مختلفة بقصد إقناعها بشرعيّة عمله وبأهميّة ما أقدم عليه . في ضوء هذا الاسترضاء نستطيع تبيّن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء مبايعة سيدي عرفة لرجل مغربيّ من لمتونة حين استقلّ بالقيروان ، على النحو الذي أورده ابن أبي دينار (1) . وهي مبايعة شكليّة قصد منها إرضاء هذه الطوائف، ومن خفيت عليهم أسباب الصراع ممّن كانوا يتصوّرون أن الإقرار بشرعية السلطنة الحفصيّة واجب دينيّ لا يمكن منازعته أو التخلّي عنه، وأمر يقتضيه مفهومهم لنظام الحكم وهو القائم على الوراثة دون غيرها . وهذا يتّفق مع القانون الذي استخلصه من قبلُ ابن خلدون في حديثه عن استقرار الدولة وإمكانية استغنائها عن العصبيّة؛ وذلك نتيجة لاستقرائه أخبار الدول الاسلاميّة وبخاصّة المغربيّة منها: « والسبب في ذلك أن الدّول العامّة في أوّلها يصعب على النفوس الانقياد لها إلاّ بقوّة قويّة من الغلب للغرابة وأن النّاس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه . فإذا استقرّت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأوليّة ، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد الإيمانيّة . فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة بل كأنّ طاعتها كتاب من الله لا يبدّل ولا يُعْلَم خلافه » (2) .

وبقدر ما كان يحيى هذا حسب ابن أبي دينار اسمًا لا رسمًا بالنّسبة لسيدي عرفة بقدر ما كانت نهايته أليمة ، ذلك أن سيدي عرفة أبقاه عنده في القيروان كآية على شرعيّة ثورته في نظر تلك الطوائف وستار يدير من ورائه دفّة الحكم ، ولم يتمكن يحيى من الفرار من القيروان إلاّ بعد وفاة سيدي عرفة وتولّي ابن أخيه محمد بن أبي الطيّب سنة (1542/949) ، وعلى التحديد

1) راجع النص أعلاه .
2) ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 632 .

فقد حلّ بتونس سنة (1543/950) ، وهذا التّاريخ يوافق انتصاب أحمد سلطان المعروف أيضا بمولاي حميدة على عرش الحفصيين المتهالك وانتزاعه للحكم من أبيه ، عندئذ تمكّن يحيى من الفرار إلى تونس ، ودخل متنكّرا فافتكّ أحمد سلطان تونس منه بإعانة النصارى (1) وظفر به فقطع رأسه وطيف به في المدينة (2) . بيد أن هذا العمل لم يفده فقد استمرّ ابن أبي الطيّب يدير دفّة الحكم في القيروان وفي المناطق التّابعة لها ويعقد المعاهدات مع القوى المتصارعة كطرف قانوني معترف به وبإمارته بينما استمرّ الوهن ينخر أوصال الدولة الحفصيّة وينحو بها إلى نهايتها المحتومة .

وقعة باطن القرن (صفر 942/سبتمبر 1535) :

إثر وقعة الاربعاء أعلن سيدي عرفة استقلاله بالقيروان وبمناطق القبائل الموالية له، ولم يعد منذ ذلك الوقت **(بابا القيروان)** حسب Milan de Ariogo (3) فقط ، وإنّما أصبح إلى ذلك **صاحب القيروان** حسب ابن أبي دينار **وملكها** حسب Marmol (4) ، فبادر الحسن بمهاجمة القيروان (5) باعتبارها الخطر الداهم على عرشه المهتزّ ، واتّجه إلى القيروان في أشتات من الأعراب وفرقة من المسيحيّين ليوقع بخصمه ويحتلّ المدينة المتميّزة بأهمّيتها الروحيّة والعسكريّة لأنها الوطن الروحيّ لأهل المغرب والمتّصلة جغرافيّا بمواطن القبائل الممتدّة في أرجاء إفريقيّة ، وسلك بجيشه إلى القيروان الطريق التي أصبحت تعرف في العهد الحسيني بثنيّة المحلّة ، وتمثّلها شبكة الفحص

---

1) شارل اندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، ج 2 ، ص 346 .

2) المؤنس ، ص 162 .

3) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 112 .

4) المؤنس ، ص 167 . إفريقية ، ج 2 ، ص 488 .

5) المؤنس ، ص 165 . رسالة Bernardin de Mandoza إلى شارل الخامس بتاريخ 26 أكتوبر 1535 ، في مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 49 ، وفيها (في رسالة أخرى بينت أن الملك الحسن كان في معركة ضد القيروان . .) وهذا ينطبق على معركة باطن القرن التي وقعت في سبتمبر من السنة نفسها .

والحبيبنة والسّبيخة فوصل إلى مكان يقع غربيّ القيروان ويبعد عنها (10 كلم) يسمّى باطن القرن . ولما عسكر فاجأه سيدي عرفة ليلا وأجهز عليه فانهزم وأخِذَتْ أمواله ورجع إلى تونس مكسورا . ليست لدينا معلومات مدقّقة عن جيش سيدي عرفة في هذه المعركة ولا عن الخطّة التي اتّبعها لتحقيق هذا النّصر ، وإن كنّا لا نعدم من معرفتنا بحقيقة جيشه في معركة المنستير كما جاءت في الوثائق الأوروبّيّة قدرًا من التصوّر لجيشه في وقعة باطن القرن .

لقد كان مكوّنا من أهمّ القبائل الموالية : الحنانشة ، النمامشة ، دريد ، الحراكتة ، بني بربار ، الهمامّة ، أولاد سعيد ، وهو متفوق على جيش الحسن عددا وحسن تنظيم لكنّه لا يختلف عنه من حيث الأسلحة فقد اتفقت المصادر العربيّة والأوروبّيّة على القول بأن جيش الحسن كان مكوّنا من جموع قوامها أشتات من الأعراب معتصمة بطمعها في أموال الحسن لا تنظيم لها ولا إيمان بهدف ، ومن هذه النّاحية فهي أشبه بـ« الزّمايل » المتحرّكة ، ومن ثمّ فلا تخطيط يسندها ولا قيادة مؤمنة ومحنّكة تحدّد لها سبل العمل العسكري المنظّم ، وحسب المصادر الاوروبّيّة فقد ضمّ هذا الجيش كذلك فرقة مسيحيّة لا شأن لها (1) .

أمّا جيش سيدي عرفة فكان محكم التنظيم ، صلب البناء ، قوامه شباب يمثّل بانتسابه سائر أنحاء إفريقيّة وبإيمانه بتحرير البلاد درع الوطنيّة التونسيّة وطليعة قيادة رشيدة مارست توعيّة الشباب مدّة طويلة وكلفت بتجذير القوميّة فيه دونما ونًى ، عندما قاد سيدي عرفة هذه المعركة كان عمره أربعة وستين عامًا قضى اثنتين وأربعين سنة منها في تلك التوعية ، وقد ساعده في قيادته العسكريّة صفوة من أبناء الشابّيّة في مقدمتهم ابناه أحمد الشّابّي ومحمد الزفزاف وابن أخيه محمد بن أبي الطيّب الذي تولّى الإمارة من بعده وقريبه محمد بنّور ، وكان على رأس كل فرقة قبليّة في هذا الجيش

1) فيرو : الحنانشة ، في المجلة الإفريقية، الجزائر، 1874 ، ص 137 .

قائد منها يخضع لأوامر القيادة العليا ، وليس لهذا الجيش من هدف إلا الاجهاز على العدوّ لا لمطمع يتملكه ولا لصبوة يسعى إليها ولكن لنصرة الدين وإنقاذ الوطن من ردّة الحفصي وصليبيّة الإسبان وتربّص العثمانيّين .

عندما فاجأ جيش الشابّيّة الجيش الحفصي ليلا وبدأ الاحتدام أطلق جيش الشّابيّة نداء (الله أكبر) فانضمّت أغلبية الجيش الحفصي لسيدي عرفة (1) مكفّرة بذلك عن ممالاتها لعدوّ الدّين والوطن وتمزّقت القلّة الباقية ، ولاذ الحسن بالفرار إلى تونس تاركًا وراءه أمواله وعدّته كما يوضّح ذلك السّرّاج بالاعتماد على ابن أبي دينار : « ثم خرج الحسن بمحلّة ليفتكّ القيروان من يد الشّابّيّين فقتلوه بالسّيف ودهموه ليلا واغتنموا ماله وسلاحه » (2). وكذلك حمّودة بن عبد العزيز في التاريخ الباشي : « ثمّ خرج السلطان الحسن إلى القيروان لاستنقاذها من يد (سيدي عرفة) الشّابّي بعد أن جمع جموعا من العرب (الأعراب) فخرج إليه الشابّي في أهل القيروان فهمزوه وأخذوا محلّته وخرج مغلوبا » (2). وصاغ ابن أبي الضياف ما خصّ به ابن أبي دينار هذه الوقعة في قوله : « ثمّ إنّ السلطان الحسن نهض إلى القيروان لافتكاكها من يد (سيدي عرفة) الشّابّي فكان كمن طلب أمرًا ولات أوان ، فخرج له بأهل القيروان والتقى الجمعان بباطن القرن فكانت الهزيمة على الحسن الحفصي » (3) .

بيد أن السؤال الذي ينهض أمامنا في هذا الصّدد هو ، ما الذي فعل الحسن بعد هزيمته التي تأكّد بها قيام الإمارة الشابّيّة ؟ هل ركن إلى هزيمته وظلّ ينتظر الفرص السانحة لمهاجمة القيروان من جديد أو أنّه أسرع إلى شارل الخامس يطلب منه النجدة مرّة أخرى ؟

1) المصدر ذاته ، ص 137 .
2) مخطوط ، دار الكتب الوطنية ، رقم 1794 ، ص 201 .
3) ابن ابي الضياف ، ج 2، ص 14 .

تتفق المصادر التونسيّة على أن الحسن ذهب إلى بلاد النصارى للاستنجاد بهم كي يمدّوه بجيش يبيح به القيروان ويطيح لـه بالدولة القوميّة الناشئة . يحسن أن نذكّر بما جاء في « المؤنس » : « فأقسم لا يرجع عنها بحال، وعزم على أخذها بالنصارى كما أخذ تونس، فخرج بنفسه إلى بلاد النصارى ليأتي بعمارة مثل الأولى ويأبى الله إلاّ ما يريد . وكان غرض الحسن إباحـة القيـروان كما أباح تونس فقابلـه الله على صنعه وخبث نيّته » (1) . وقد لخّص هذا المعنى الوزير السرّاج في كتابـه ، ونصّه : « فأقسم لا يرجع عنها بحـال وعزم على أن يستنجد لها النصارى ويفتكّها بعد إباحتها » (2)، وأورد حمّودة بن عبد العزيز في كتابه ما نصّه : « فأقسم أن لا يرجع عنهـا إلاّ أن يأخذها وعزم على الاجلاب عليهـا بالافرنـج وأن يفعـل بهـا كما فعـل بتونس فـركب البحر إلى إسبانية بنفسه » (3) .

يبدو أن الخطأ تسرّب إلى ابن أبـي دينار ومن قفّى على أثره لإيرادهم أخبار هذه الوقعة وما نتج عنها مجرّدة من التّاريخ ممّا جرّ إلى تداخل في الأحداث والوقائع نفسها ، ومن المؤكّد أنّه وقع الخلط بين وقعة باطن القرن ووقعة المنستير التي حدثت سنة (1540/947) لأن رسائل قادة الجيش الاسباني بتونس الموجّهة إلى شارل الخامس وتقاريرهم تثبتُ أن الحسن سافر إلى أروبا لطلب نجدة الامبراطور بعد ثلاث سنوات من هزيمته اللاحقة على يد سيدي عرفة في معركة المنستير لا معركة باطن القرن ، ومعنى هذا أنّه سافـر سنة (950/ 1543) وكان قد مضى على وفاة سيدي عرفة عام لأنه توفّى سنة (1542/949) ، ولمّا كان بنابولي في سنة سفره وافاه رسول من الحاكم العسكريّ الاسبانيّ لحلق الوادي أعلمه باستيلاء ابنه مولاي حميدة على الحكم فرجع هائما على

1) ص 165 .

2) الحلل السندسية ، ج 1 ، ق 4 ، ص 1095 .

3) التاريخ الباشي ، ص 201 .

وجهه دون أن ينفّذ ما هدف إليه ودون أن يحقّق « خطّرة اربعاء » أخرى تكون في هذه المرّة من نصيب القيروان .

بيد أن هذا لا يعني أن الحسن ركن إلى الاستسلام إثر وقعة باطن القرن ، فبين أيدينا رسالة مؤرّخة في 20 ديسمبر 1535 أي بعد هزيمته بأقلّ من ثلاثة أشهر وجّهها الحاكم العسكريّ الإسباني لحلق الوادي إلى شارل الخامس تفيد بأن الحسن ظلّ مصمّما على مهاجمة القيروان من جديد ، وتكشف عن حقيقة الوضع في افريقيّة بعد انتصار سيدي عرفة في معركته القوميّة ، ولأهمّيتها نوردها بنصّها :

« منذ أن غادر مولاي الحسن بنزرت عسكر قرب تونس ، إنّ همّه دائما هو إخضاع القيروان ، وقد جمّع حوله خمسمائة مقاتل ، مسلّحين بالبنادق انتدبهم هذه الأيام ، وألفًا وخمسمائة من المشاة وخمسمائة فارس تحت سلطة الشيخ عبد الملك (أحد رؤساء أولاد باللّيل من الكعوب) ، إن الحاج صالحًا قال إن الملك (الحسن) مُنتظَرٌ في القيروان من طرف أولاد باللّيل الذين هم مخلصون له دوما والذين كانوا قد سلّموا له أولادهم كرهائن لخدمته إلى أن يستردّ تونس .... إن المنطقة الممتدّة إلى قليبيّة والبعيدة عن تونس بمسافة يومين هي تابعة للملك ، وقد أكّد لي الملك أن كلّ الجهات تلتمس منه أن يعيّن لها قيّادا (ولاة) ، وهو أمر أشكّ فيه . كان قد زارني منذ أربعة أيام جاسوس جربة الذي يعمل لصالحي فأفادني بأن قليبيّة والمنستير وسوسة خاضعة للاتراك . لقد بلغ الأمر بأتراك سوسة أن استولوا على ماشية أهل المهديّة لأنّ هؤلاء كانوا مستعدّين لاستقبال ملك تونس ، وهذا يجعلني أخاف على أسطول جلالتكم لأن أهل المهديّة على علم بالمعاهدة المبرمة بشأنهم مع الملك . إن صفاقس هي أيضا خاضعة للاتراك ، وأضاف الجاسوس أنّه أثناء إقامته في جربة وصل مركب حربيّ مُرسل من خير الدّين، وبسرعة أطرد شيخ جربة من الجزيرة الأجانب

وعطّل الجسر إلى أن أقلع المركب كما تحدّث عن سفر خير الدين إلى اصطمبول بمركب وبسبع بوارج حربيّة » (1) .

ثم تناولت الرسالة الحديث عن الوضع بالقيروان فأفادت بأن ما يبديه سكّان الضّواحي والأرياف من تأييد للحسن قد يكون خداعًا القصد منه استدراجه لكارثة ، كما أفادت بوجود كتيبة عثمانيّة بالقيروان ، وهو أمرٌ لا يثير إشكالا ما دمنا نعرف أن سيدي عرفة آثر الابقاء عليها إلى حين إذ ليس لهذه الكتيبة من هدف إلاّ مقاتلة الحسن (2) . وأكثر من ذلك فإن الحسن وجّه رسائل عدّة في طلب مساعدة إسبانيّة أخرى وأتعب بإلحاحه الشديد كلاًّ من F. de Tovar و Fernand de Gonzague نائب ملك صقلية منذ أواخر 1535 ، وغرضه من الحصول عليها استرجاع المدن الساحليّة من القراصنة الاتراك واستعاده القيروان من الشابيّة (3) . لكن الاسبان لم يعودوا يقيمون له وزنًا بعد أن حققوا هدفهم منه وبدا لهم آنذاك أنّه مختلّ في مداركه ، مدقع في فقره ، منبوذ من شعبه ، غير قادر على الايفاء بوعوده العسكريّة والماليّة ، مسلوب من كلّ شيء إلاّ من قدرته على التشكّي (4) .

وقبل وقعة المنستير حمل الحسن على القيروان ثلاث مرّات لم يجن منها إلاّ الخيبة إحداها على الحامية التركيّة سنة 1535 ، والثانيّة في بداية سنة 1536 ، والثالثة في جوان سنة 1540 ، وهو قد ركّز على القيروان دون سواحل افريقيّة بقليبيّة والحمامات والمنستير وسوسة والمهديّة التي يحتلّها القراصنة الاتراك والإسبان لأنّه لم يكن يملك عتادا بحريًّا يمكنه من احتلال السواحل وطرد القراصنة ، وكان في الوقت نفسه قادرًا على تجميع أشتات من الأعراب تصوّر أنّه بإمكانه الإفادة منها في القضاء على سيدي عرفة واسترجاع

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 15 — 51 .
2) راجع أعلاه (الوضعية عقب الإحتلال الإسباني . .) .
3) مونشيكور : القيروان والشابية، ص 53 .
4) المصدر ذاته ، ص 57 .

القيروان العاصمة الروحيّة للمسلمين في المغرب وأكبر مدينة في داخل افريقيّة يتأتّى منها الإشراف بسهولة على مناطق شاسعة ، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن يكون قد أدرك بأن عرشه في تونس لم يعد له وأنّه أصبح لشريكه الاسباني فراح يبحث عن قاعدة أخرى يستردّ فيها نفسه اللاّهث ويستعيد فيها حلمه الضّائع فاتّجه إلى القيروان .

لقد تابع مولاي الحسن هجوماته ضدّ مدن افريقيّة أخرى ، وفي أفريل سنة 1538 اتّفق مع Jean d'Aragona Taglivia قائد حامية صقلّيّة على مهاجمة سوسة لافتكاكها من الحامية التركيّة : قائد حامية صقلّية من البحر ، والحسن بفرسانه من الأعراب ، وهجما لكنّهما لم يجنيا إلاّ هزيمة نكراء (1) . ويبدو أن انتصار حامية سوسة قد أخاف سيدي عرفة لوجود الحامية العثمانيّة بالقيروان التي أصبح بإمكانها الاعتماد على حامية سوسة للثورة عليه ، فبادر بتصفيتها وبكسر شوكة أتراك سوسة الذين هبّوا لنجدتها على النّحو الذي توضّحه الرسالة الموجّهة من الحاكم العسكري الإسباني لحلق الوادي F. de Tovar إلى شارل الخامس بتاريخ 30 أفريل 1538 ، ونصّها:

« في يوم الأحد الماضي ، 26 الجاري ، كتب إليّ القائد فرحات قايد تونس بأمر من الملك يعلمني بما جدّ ؛ إن أهالي القيروان ثاروا على الأتراك وقتلوا القايد التركي : (الوالي) وأربعين تركيّا في المدينة . وقد استخلص أتراك سوسة العبرة من هذه الحادثة فوجّهوا إلى القيروان مائة وخمسين من بينهم للسيطرة على الوضع ، وقد استقبلهم أهالي القيروان ، لكنّهم في الأثناء انقضّوا عليهم وقتلوا منهم النصف ، وفرّ الباقون إلى مكان يبعد اثني عشر ميلا حيث وقعوا في أيدي الأعراب .

لقد أفاد القايد فرحات بأن الملك مهتمّ بحسم الأمر مع واحد من الأهالي يقطن بالقيروان ويسمّى سيدي عرفة ، وهو يعتبر في نظر كلّ أهالي المنطقة

---

1) محمود بو علي : الثورة المستمرة في البلاد التونسية ، ج 1 ، ص 156 .

شخصيّة مقدّسة ويتمتّع في هذه المدينة وفي كامل المنطقة بتأثير أكثر من تأثير الملك أو أيّ شخص آخر ، ويمتلك أموالا كثيرة وأملاكا من كلّ نوع ، لهذا فهو يستطيع أن يساعد مادّيا بشكل ناجع كلّ من ينضوي تحت لوائه) (1) .

لقد استطاع سيدي عرفة بحكمته وبُعْد نظره أن يصبر على وجود الحامية العثمانيّة بالقيروان طيلة ثلاث سنوات دون أن تحتدّ عاطفته فيعمد إلى مواجهتها والدخول معها في صراع قد لا يستفيد منه إلاّ الحسن الحفصي ، وحين وجد الفرصة سانحة انقضّ عليها ، فخلص له الأمر وبذلك تركّزت إمارته وامتدّت إلى آفاق جديدة وذاع صيته في سائر أنحاء افريقيّة أكثر من ذي قبل .

وقد فطن Marmol إلى أهمّية الدور الذي لعبه سيدي عرفة منذ البداية في حياة القيروان وافريقيّة وإلى حقيقة خطّته الرامية إلى الاستقلال بافريقيّة كلّها بمنأى عن الصراع المسيحي العثماني يعضّده في كل ذلك محبّة السكّان وتأييدهم له ، قال : « **وعندما أجلى الأمبراطور شارل الخامس بربروس من تونس عيّنت القيروان مَلِكا عليها ، وهو فقيه الجامع الكبير (سيدي عرفة) (2) حتّى لا تسقط من جديد تحت سيطرة الأمراء ، وكان سلطانه قد تركّز في القيروان نتيجة الدّعم الذي لقيه من السكان** » (3)، وفي موضع آخر أورد : « **إن فقيها معروفا بورعه من بين المغاربة ثار في القيروان وأعلن استقلاله بها ولم يكن راضيا بملكه فيها وإنما كان يطمح إلى السيطرة على أمبراطوريّة تونس** » (4) .

---

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 52 .

2) أخطأ مرمول في ذكر محمد بن أبي الطيب بدلا من سيدي عرفة لأن ابن أبي الطيب لم يؤسس الدولة وإنما تولاّها بعد وفاة سيدي عرفة سنة (1542/949) .

3) مرمول : إفريقيا ، ج 2 ، ص 533 .

4) المصدر ذاته ، ج 2 ، ص 488 .

وحسب رسالة F. de Tovar فإن شخصية سيدي عرفة في سنة (1538) بدت مقدّسة في نظر أتباعه وإن نفوذه لم يعد يطاوله نفوذ ، وثراءه بلغ الأوج في الوقت الذي تؤكّد فيه الوثائق الاسبانيّة على أن الحسن كان في تلك الفترة بالذات شديد الفقر ، غير قادر على الإيفاء بوعوده الماليّة ، منبوذًا في شعبه ، مرتدًّا في نظره. وبلا شكّ فإن ما قاله سيدي عرفة من أنّ : « ارقوحارة من حارات القيروان وواد بجرّ حارة من حارات القيروان » أصبح في ظلّ هذه الانتصارات حقيقة واقعة .

إنّ هزيمة الحسن في سوسة وقضاء سيدي عرفة على أتراك القيروان وسوسة معًا قد فرضا على الحسن أن يرتمي مرّة أخرى في أحضان المسيحيّين يطلب عونهم ويستدرّ عطفهم ويستحثّهم على الثّأر علّه يظفر بضالّته التي لن تعود ، فعقد مع F. de Tovar في أواسط سنة (946/1539) معاهدة أفضت إلى تحالف شكليّ لم يُفِدْ منه الحسن شيئًا خاصّة بعد هزيمة جيشه بقيادة ابنه من طرف سيدي عرفة ، تلك التي تحدّث عنها الحسن في رسالته التي وجّهها إلى F. de Gonzague بتاريخ 7 جوان 1540 ، ونصّها :

« وبعد خروج الرايس فرج من هنا، جدّ اصطدام كبير مع الوليّ عرفة عندما كان ابني يتقدّم مع أنصاري من الأعراب ، كما تعرفون ، وقد واجهنا من يستحق المواجهة بكلّ نجاعة ، وعلى بركة الله قرّرنا أن نرسل إليكم صحبة هذه الرسالة الشريف محمد بن زيّان » (1) .

لقد طوى الحسن خبر هذه الهزيمة بكلّ ذلّة ، فلم يفصّل في أمرها ولم يبسط لحليفه ظروفها ، وقد ثبت من خلالها أنّه عاجز تماما عن مواجهة الموقف بإمكاناته الخاصّة ، وقد أبت اسبانيا أن تُنجده كما فعلت منذ خمس سنوات ، لكنّه لم يستسلم ، وأمعن في إلحاحه إلى أن استجابت له

---

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 54 .

وأسهمت معه في حربه الحاسمة ضدّ سيدي عرفة التي وقعت بين جمّال والمنستير .

وقعة المنستير (12 نوفمبر 1540) :

وفّق الحسن في إقناع الإسبان بالقتال معه ضدّ سيدي عرفة ، فجمع عددا كبيرا من الأعراب وقادهم جميعا إلى حربه ، وقد انضمّ له الفيلق الإسباني المرابط بالمنستير بقيادة Alvar de Sande ، وفي الطريق إلى القيروان فاجأه سيدي عرفة في مكان يتوسّط المنستير وجمّالاً عند الوردانين والساحلين ، ويبعد عن جمال والمنستير نحو (10 كلم) ، ودارت حرب ضارية استمرّت يوما كاملا من التاسعة صباحًا إلى الغروب فكانت الفاصلة بين الطرفيْن . كان عدد جيش الحسن يتراوح حسب Millan de Ariago و Marmol بين المائة ألف والستّين ألفا (1) من بينهم سبعة آلاف فارس أو ثمانيّة آلاف ، لكنّه كان أشبه « بالزمايل » منه بالجيش المدرّب المنضبط ، لغلبة الفوضى عليه وتكاثر عدده بالنّساء والأطفال الذين كانوا يرافقونه بدون جدوى ، أمّا الجيش الاسباني المرافق فكان لا يتجاوز الألفين في حوزتهم البنادق والمدافع وكان يقوده Alvar de Sande ، في حين كان عدد جيش سيدي عرفة من الفرسان اثنين وعشرين ألفا ومن المشاة خمسة عشر ألفا ومن حاملي الأسلحة النّاريّة ستمائة ، ويقود هذا الجيش أحمد بن عرفة بدلاً من والده الذي بلغ من العمر آنذاك إحدى وسبعين سَنَةً ، يساعده أخوه محمد الزفزاف وابن عمه محمد بن أبي الطيب ومملوك إسبانيّ يسمى Cachazo وهو ابن جزّار بمالقة (2) . ويقود الفرقة المكوّنة من الأتراك والمسيحيّين

---

1) المصدر ذاته ، ص 61 . مرمول : إفريقيا ، ج 2 ، ص 499 . وراجع الطاهر فيقة : درغوث رايس ، ص 54 . ضبط محمود بو علي عدد جيش الحسن كالآتي : خمسة عشر ألف فارس ، ترافقهم نسوتهم وأطفالهم ممتطين ثمانية آلاف جمل ، راجع الجندي التونسي ... ص 83 .

2) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 62 .

القدامى ، والمتخصّصة في استعمال الأسلحة النارية مملوك أوروبّي يسمى : Baalij (العلج وتعني في العربية الرجل من كفار العجم) حسبما وضّحه Sandroval (1).

والملاحظ أن أحمد الشابّي استعان بهذين القائدين الاوروبّييْن وبهذه الفرقة العثمانيّة والاوروبّيّة المحدودة العدد التي أقحمها في جيشه لحذقهم استعمال الأسلحة العصرية : البنادق والمدافع لأنه كان يعرف أن الحرب ضدّ حلفاء الحسن من المسيحيّين لن تكون لصالحه إذا لم يعتمد نفس الأسلحة التي يعتمدونها . وقد حدّد Bosio أهميّة جيش الشّابّيّة في هذه المعركة وعزا تأخّر هزيمة الحسن إلى محاربة الجيش الاسباني معه ، وضّح ذلك في قوله :

« لقد سيّر خليفة القيروان (سيدي عرفة) لهذه المعركة جيشا عتيدا ولولا اسهام Alvar de Sande في هذه المعركة بجنوده الاسبان وانضباطه العسكري الذي عطّل زحف جيش سيدي عرفة عدّة مرّات لهُزِمَ مولاي الحسن بيُسْر » (2) .

وبالرّغم من أن الحسن كان يُغري الجيش الاسباني بإباحة القيروان لهم كما أباح لهم تونس من قبل فإنّهم لم يستطيعوا تحقيق أيّ شيء لصالحه ، وتفيد الرّواية المتواترة لدى الأسرة أنّه لما التقى الجيشان بادر الحسن بالهجوم إلاّ أن نداء: الله أكبر ، الذي دوّى من حناجر جيش الشّابّيّة القوميّ المؤمن مزّق صفوفه وانقلب الأعراب المرافقون له عليه وانضمّوا لجيش الشّابّيّة وهذا ما لمّح له Marmol في كتابه (3) ، وازداد أمر الحسن سوءاً حين وقع صحبة البقيّة من جيشه في كمين نصبه له خصمه وذلك باختفاء أربعة عشر ألف فارس في غابة زيتون قرب الوردانين انقضّوا عليه في الوقت المناسب فانفضّت من حوله هذه البقيّة ، وهرب الحسن إلى سوسة على فرس كان لها

1) المصدر ذاته ، ص 63 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .
3) إفريقيا ، ج 2 ، ص 499 ، وراجع أيضا ، الطاهر ثيقة : درغوث رايس ص 54 .

الفضل في إنقاذ حياته في مناسبات سابقة ، وقُتل مرافقه المغوار الذي تمكّن من قتل ستّة من أعدائه ، وقد زلقت في السبخة التي تفصل بين السّاحلين والمنستير جمالٌ كثيرة محمّلة بالنساء والأطفال وهلكت مع عدد كبير من الغنم والبقر . أمّا الجيش الاسباني فقد ارتدّ هو كذلك على أعقابه بعد أن قاتل بشراسة وتقهقر إلى المنستير في ظلّ حماية فرقة يقودها Louis de Rejon (1) ، وكانت الفرقة المكوّنة من الاتراك والمسيحيّين القدامى من جيش الشابيّة هي المكلّفة من طرف أحمد الشابيّ بمقاتلة الجيش الاسباني ، ولم تنفكّ تتعقّبها حتّى المنستير ، وصف Marmol هذه الهزيمة في قوله :

« جمّع ملك تونس أكبر عدد ممكن من الرجال لمهاجمة القيروان وأخذ معه هذا الفيلق الاسباني وبعض المدافع ، ولمّا وصل إلى مكان يبعد عن المنستير 12 كلم انفصل عنه كل الاعراب المرافقين له وانضمّوا لأعدائه فاضطرّ إلى الانضمام للفيلق الإسباني الذي مكّنه من الفرار من خلال سهلٍ رمليّ ، ولم يبق معه من جيشه الذي كان يعدّ حوالي مائة ألف إلاّ ألفان . وعندذلك أبحر الحسن إلى إيطاليا واستولى الأتراك من جديد على المنستير » (2) .

وحسب مونشيكور فإن شارل الخامس لم يجن من حملته هذه سوى بقائه في المنستير مدّة لم تتجاوز الثمانية أشهر ، وبلا شكّ فإنّ انتصار الشابيّ أو بالأحرى الانتصار التونسي حسب محمود بوعلي في (Le soldat tunisien, p. 83) أنقذ القيروان بصفة نهائيّة من الحسن الحفصي والإسبان (3) ، وفضلا عن ثراء سيدي عرفة الذي مكّنه من إعداد جيش قويّ فإن إيمان جيشه بالمبادىء الروحيّة والقوميّة التي غرسها فيهم هي التي حققت له النّصر على خصم خائن مرتدّ ومكّنته من تكوين دولة قوميّة دعامتاها العروبة والاسلام .

---

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 62 .

2) مرمول : افريقيا ج 2 ، ص 499 .

3) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 64 ، وراجع عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ونصه : (حاول مولاي الحسن في سنة 947 احتلال القيروان لكنه انهزم في هجوم تعرض له) ص 39 .

في تقرير كتبه F. de Gonzague بتاريخ 18 نوفمبر 1540 أي إثر هزيمة الحسن والإسبان مباشرة ، وذلك لإعلام شارل الخامس بما يجري في إفريقية ورد ما مفاده أن الحسن لم يكفّ عن الاستنجاد بالجيش الإسباني لمهاجمة القيروان من جديد للقضاء على أعدائه وبأنّه قد التمس من F. de Tovar أن يُبْقِيَ بحلق الوادي الرهائن الذين سلّمهم له مقابل الضريبة المفروضة عليه للإسبان وهي مائة ألف Ducats (دوكة) إلى أن يدفعها ، وأن لا يرسل الرهائن إلى صقليّة لأنّ في إرسالهم مذلّة له أمام الأهالي وتوهينا بالغا من أمره ممّا قد يحملهم على الامتناع عن مدّه بالأموال التي يتمكّن بها من الإيفاء بالضريبة المفروضة عليه ، أما الرّهائن فهم أحد أبنائه وابنان لشخصيتين من حاشيته (1) . وحسب هذا التقرير فقد خرج الحسن من هزيمته في وقعة المنستير مكروها من طرف الأهالي أكثر من ذي قبل حتّى لقد أصبحوا يفضّلون الموت على الانتساب له (المصدر ذاته ، ص 414) .

بيد أن الحسن هفا إلى حلمه الضّائع مرّة أخرى فألحّ في استجدائه لـ F. de Gonzague كي يعيد الكرّة ، وعمل هو بدوره في جانفي 1541 على تجنيد الأعراب والاعداد لحرب خامسة ضدّ القيروان ، وعسكر في روّاد ، وهناك أخذ يستقبل الأعراب القادمين إليه من المناطق الغربيّة ، ويستدرجهم لحرب جديدة كما استقبل أشتاتا من أرياف القيروان من بينها جماعة من أولاد سعيد يقودهم أحمد المرابط، الخصم الأوّل لسيدي عرفة، وعندما بدا للحسن أنّه أعاد تنظيم جيشه كتب إلى F. de Gonzague بتاريخ 8 جانفي 1541 ما نصّه :

« وبعد قفولكم من أرض المعركة ، تغيّرت الوضعية التي تعرفونها مع العدوّ ، والحمد لله الذي أنقذ جيشك المقاتل كعادته بشرف ، ورجعتُ إلى تونس بعد ذلك وأدخلتُ تحويرا على «محلّتي» حيث استقبلتُ وفود الأعراب

(1 Quelques documents sur les rapports des espagnols avec le pays tunisien, trad. Souquet, in, Revue Africaine, 1928, PP. 412-413

القادمين من المناطق الغربيّة وهم الذين كانوا أعداء لي في المواجهة الأولى ، وأبناؤهم في خدمتي كرهائن » (1) .

وتوسّل له ليأمر بحملة اسبانيّة تعضّد جيشه للهجوم على القيروان التي يمكن السيطرة عليها حسب رأيه عندما يقع ضمّ فرق حلق الوادي إلى فرق المنستير . إلاّ أن ما حدث لم يكن يخطر ببال الحسن ، فقد دعا نائب ملك صقلّيّة الفيلق المرابط بالمنستير للالتحاق بصقلّيّة ، وفي 26 أفريل 1541 حاول الحسن عبثا تأخير سفر هذا الفيلق لمدّة أسبوعين ريثما يتسنّى له الزّحف على القيروان مع Alvar de Sande لاسترجاع أراضيه الضّائعة وأرسى Garcia de Tolide في المنستير فانضمّ له Alvar واتّجه الجيش عدا قلّة منه إلى صقلّيّة ، وفي الطريق انقضّ على قليبيّة ورماها بالمدافع وقتل فيها ألف شخص وأسّر ألفًا من النّاس والأطفال ، وسلم المدينة قفراء يبابًا للحسن الخائن (2) . وفي شهر ماي انسحبت البقية من الجيش الاسباني من المنستير قاصدة Trapani حاملة معها أشواقها في الأخذ بثأر الحسن حسب مونشيكور(3) ومختفية تماما من الساحل الشرقي لإفريقيّة ،وحين آثر F. de Gonzague القيام بحركة مزدوجة ضدّ جربة وتاجورة ردّ عليه الحسن برسالة مؤرّخة في 3 أوت من السّنة نفسها مفادها أنّه لا يعير اهتماما لهذين الموضعين طالما لم يسترجع القيروان (4) . وهكذا استأثرت القيروان بكلّ تأجّجه وتطلّعه ، واستبدّ به خيال الانتقام منها وإباحتها للاسبان إلاّ أن ما حدث للاسبان أنفسهم لم يكن ليساعد حتّى على مجرّد التفكير في المغامرة معه مرّة أخرى ، فبعد شهرين من ردّه أي في أكتوبر 1541 هُزِم شارل الخامس هزيمة ساحقة أمام الجزائر وقد اعتبرها المسيحيّون مأساة كبرى (5) .

---

1) مونشيكور : القيروان والشابية ، ص 60 .
2) محمود بو علي : الثورة المستمرة في البلاد التونسية ، ج 1 ، ص 159 .
3) القيروان والشابية ، ص 65 .
4) المصدر ذاته ، ص 66 .
5) المصدر والصفحة ذاتهما .

إن هزيمته في وقعة المنستير واندحاره أمام الجزائر يعتبران حدا فاصلا بين عهدين سلكا حياته : عهد التوسع والانقضاض على المغرب الإسلامي بقصد تمسيحه وتعميد بنيه (1) كنتيجة للزهو والخيلاء اللّذيْن غمّرا روح اسبانيا المسيحيّة عقب سقوط غرناطة ، وعهد التقلّص والانكفاء عن المغامرة بجيوشه التي لم تكسب أيّ مغنم بعد هزيمتيْها الماحقتيْن ، ومن ثمّ استحال على الحسن أن يرتاد أرض عقبة ظافراً وأن يُؤْدي بالدولة القوميّة التي جسّمتْ آمال أهل إفريقيّة .

وكما سنرى فقد شاءت الأقدار أن يرتاد أرض عقبة من بعد ذلك وأن يلاقي حماتها فيها ولكنّه ارتياد في ذلّة الطريد الشّريد وملاقاة الملتمس لعطفهم وحمايتهم ، وقبل ذلك فإنه لم يكفّ عن إلحافه في طلب المعونة من القائد العسكريّ الاسباني بحلق الوادي F. de Gonzague . وخلال سنة 1542 وافاه بخمس رسائل في هذا المعنى لكن F. de Gonzague أغضى عنه ولم يعد في وسعه بعد الذي وقع للإسبان أن يعينه ، وهكذا فضّل الاسبان أن يحافظوا على المكان الوحيد الذي بقي لهم في افريقية وهو حلق الوادي بدلاً من الدخول في مغامرات لا طائل من ورائها .

الإصرار على إباحة القيروان :

وحين أدرك مولاي الحسن اليأسَ وسُدّ عليه باب الأمل وانقضى على هزيمته الرابعة في القيروان نحو ثلاث سنوات قرّر السّفر إلى أروبّا ليطلب النجدة من شارل الخامس ، وكان ذلك في صيف سنة 1543 . وهنا نلتقي مع المؤرّخين التونسيّين الذين قرّروا أن الحسن سافر إلى أروبّا لطلب النجدة لكنّهم أخطأوا في نسبة هذا الموقف إلى الحسن إثر وقعة باطن القرن لا وقعة المنستير التي لم يرد ذكر اسمها عندهم (2) .

1) عبد الجليل التميمي : الخليفة الدينية للصراع الاسباني العثماني في القرن السادس عشر ، في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 10 — 12 تونس ، جانفي 1978 ، ص 12 .

2) راجع النصوص الواردة في المصادر التونسية فيما سبق .

سافر الحسن إلى إيطاليا لطلب النجدة بقصد القضاء على الشابّيّة وإباحة القيروان وطرد الأتراك من الساحل الإفريقي ، وعندما كان في نابولي وافاه مبعوث من طرف الحاكم الإسباني لحلق الوادي وأعلمه بأن ابنه أحمد سلطان تولّى الحكم بفعل ثورة ، فقفل راجعا إلى تونس بعد أن جنّد ألفين من المرتزقة المسيحيّين بقيادة Lofredo أصيل نابولي عساه يستردّ عرشه الضّائع .

وكان أحمد سلطان قد قال للثّائرين عقب مبايعته في القصبة : « إنّـي فعلتُ هذا لأنّـي أنِفْتُ لِمَا حلّ بكم في السّابق وخفتُ عليكـم ممّـا يأتِـي » (1) . بهذه الروح واجه أحمد سلطان الهجوم الذي شنّه والده ، وقضى على خشية أهل البلاد من أن يحل بهم ما نزل بهم في (خطرة الاربعاء) بتحريضهم على الجهاد وتشجيعهم بالأموال ، واستخدم السلاح الذي استخدمه الجيش الإسباني في وقعة الاربعاء حين نادى منادٍ « من أتَى بِأسِـيـرٍ » يجزل له في العطاء ، فقد أمر أحمد سلطان مناديه أن ينادي في النّاس « من أتى بأسير أو رأس قتيل فله مائة دينار » (2) . والتقى الجيشان عند باب البحر فاستمات المسلمون في القتال ، وقتلوا جيش المرتزقة إلاّ خمسمائة منهم فرّوا إلى الحامية الاسبانيـة بحلق الوادي (3) ، ومـات Lofredo غَرَقًا في بحيـرة تونس ، وغرق الحسن كذلك ، لكن أخرج ملطّخًا بالْحَمْأةِ ، وسلّم إلى أحمد سلطان فسجنه ثمّ استشار أصحابه فأشاروا عليه بِسمل عينيْه فسُمِلت عيناه . ثمّ فرّ إلى القيروان ليلا بمساعدة صهره أبـي سلامة القليعي من جهة وصهر سيدي عرفة من جهة ثانية ، وتركه القليعي في أصهاره الشابّيّة لاستعصائهم على أحمد سلطان وضمان أمن الحسن عندهم . أورد حمّودة بن عبد العزيز « وأقام (الحسن) بها (القيروان) عند الشابّيّين حتّى هلك » (4). وكان يحكم

---

1) المؤنس ، ص 166 .

2) المصدر والصفحة ذاتهمـا .

3) محمود بو علي : الثورة المستمرة في البلاد التونسية ، ج 1 ، ص 161 .

4) الكتاب الباشي ، ص 201 ، وراجع أيضا ، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ، ص 87 .

القيروان آنذاك أي حوالي سنة (1544/951) محمد بن أبي الطيّب الشابّي ابن أخي سيدي عرفة ، وقد مضى على وفاة سيدي عرفة نحو عامين .

لقد دخل الحسن إلى أرض عقبة خاسئا ذليلا لاجئا لدى الشابّيّة بعد أن أعيته الحيل لدخولها غازيا ، وبعد أن استبدّ به أمل إباحتها للإسبان ، ولقي القادة الشابّيّة ممزّق الإهاب خائر القوى دامع العينيْن . وقد أورد ابن أبي دينار نصّا يخصّ لقاءه معهم لا يفهم بعض ما ورد فيه إلاّ بإحالته على وصف الحسن وسيرته الذي ورد في « وثائق جديدة حول الاحتلال الاسباني في إفريقية » ، وبه أن الحسن كان ماهرًا في التوقيع على البربط يقضي لياليه بين الغواني مغنّيا لاهيًا ، فإن ابن أبي دينار حكى أمر هذا اللّقاء الذي طلب فيه أولاد الشيخ عرفة من الحسن أن يوقّع لهم على البربط ونصّه : « وسمعت من الحاكي أنّه قال : دخل عليه (الحسن) أولادُ الشيخ عرفة صاحب القيروان في بعض الأيّام وأتوه ببربط رهو عود الملهاة ، وقالوا له : نريد أن تُسمِعَنَا من غنائك بالعود ، وألزموه ذلك استخفافًا به فأخذه وجَسَّهُ بيده وقد كبر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله فأنشدهم البيت الشّهير بين النّاس :

وكنّا أسودًا والرجال تهابُنَا أتانا زمانٌ فيه نخشى الأرانبا

وألقى العود من يده وجهش بالبكاء في وجوههم فخرجوا من بين يديه لا يدري أحد أين يضع قدمه ، فسبحان المُعزّ وسبحان المُذِلّ » (1) .

وظلّ مقيما بالقيروان في حماية الأمير محمد بن أبي الطيب الشابّي قرابة السّتّ سنوات أي حتّى سنة 1550 فرّ بعدها إلى أروبّا مرّة أخرى يطلب النجدة للظفر بعرشه الضائع ، فعاد بقوّة بحريّة ، وفي الطريق إلى المهديّة لفظ أنفاسه ، وكان ذلك في جويلية 1550 ، وهكذا كانت نهاية ملك منحلّ ، حياته رحلة من العناء شرّدتها الخيانة وأزرى بها الطّمع .

---

1) المؤنس ، ص 167 — 168 .

لقد شاء القدر برغم العداء المستحكم بينه وبين سيدي عرفة أن يربط بينهما بعد الموت إذ تزوّج محمد بن الحسن بين سنة 1547 و1550 خادم الله بنت أحمد بن عرفة لتُنجب منه حفيدهما عبد الرحمان الحفصيّ .

الجيش — تكوينه وتمويله :

سبق أن أشرنا إلى أنّ إمارة الشابّيّة اعتمدت القبائل اعتمادًا كليًا ، وهي لكثرتها تغطّي أغلب الرقعة الزراعية الموسومة بخصبها والتي كانت تعتمد عليها إفريقيّة في غذائها ممّا أكسب هذه القبائل أهميّة قصوى وممّا مكّن قائدها سيدي عرفة من امكانات مادّيّة هامّة . وتؤكّد المصادر أن الحنانشة وحدهم كانوا مصدرًا رئيسيًّا لغذاء إفريقيّة من حيث الحبوب واللّحوم ومن الطبيعي والحالة هذه أن يكون الجيش الذي كوّنه سيدي عرفة من هذه القبائل وبالاعتماد على ثروتها قويًا ، قادرًا على مواجهة الاعداء مهما تكن قوّتهم . إننا نعتقد أن سيدي عرفة قد سيطرت عليه فكرة تكوين هذا الجيش بعد سنة (1509/915) سنة احتلال المسيحيين لبجاية ، فقد ازدحمت الفترة الممتدّة بين هذا التّاريخ وتاريخ قيامه بالثورة سنة (1535/942) بأحداث ووقائع لم تعرفها أرض إفريقية من قبل كما اتّسعت لمواقف سياسيّة وحربيّة فرضت على سيدي عرفة أن يطبّق برنامجه الذي خططه من قبل . حين ثار أعراب أرياف القيروان في تلك الفترة على محمد الحفصي كان سيدي عرفة في المقدّمة لأنه أراد أن ينتقم من الحفصي الذي انتهكت ديار الاسلام في عهده دون أن يُبدي حراكًا ، ونتيجة لذلك سجن الحفصي سيدي عرفة لمدّة تسعة أشهر في تونس ، ثمّ حين أطلق سراحه ورأى سيدي عرفة أن إفريقيّة مهدّدة بالغزو المسيحي والعثماني في ظلّ وهن الدولة الحفصيّة أصبح أكثر تصميما على القيام بهذه الخطوة وأخذ يهيّىء لها في حزم ويحضّ القبائل على الاستعداد لساعة الحسم ، وفي سنة (1534/941) ظهر في الافق عامل جديد ، هو احتلال العثمانيّين لتونس ، تلاه في سنة (1535/942) الاحتلال المسيحي

الذي أجلى العثمانيّين وأذاق السكّان من الويلات في (خطرة الابعاء) ما أطنبت المصادر في وصفه، كما رفع لواء المسيحيّة. وعقب إسهام سيدي عرفة في التخفيف من آلام أهل تونس في خطرة الاربعاء بادر في التاريخ نفسه (1535/942) بتكوين جيش قومي منظّم قارّ تكون مهمّته تخليص إفريقية العربيّة المسلمة من ربقة الاحتلال وفرض الارادة الافريقية بحدّ السّلاح باعتباره درع الذاتيّة القوميّة .

جنّد سيدي عرفة لهذا الجيش عددًا كبيرا من شباب القبائل الموالية له : الحنانشة والقبائل الخاضعة لها (خمير ونهد وورغة وشارن وأولاد بوغانم والفراشيش) ودريد والنمامشة والحراكتة والذواودة وبني بربار والهمامّة والنبايل وطرود وأولاد مهلهل وأغلب أولاد سعيد ومرداس وأكثر أولاد باللّيل ، وقد قضى سيدي عرفة قبل تحقيقه هذا الإنجاز القومي اثنتين وأربعين سنة في توعيتها وتلقينها مبادئه الروحيّة والوطنيّة وفي الوقوف بها على حقيقة الوضع في افريقيّة فأخلصت له ولمبادئه وأمدّته بخيرة شبابها وبالأموال حين طلب إليها ذلك ، وإذا نحن وضعنا في الاعتبار عدد الذين صافحهم سيدي عرفة وهو مائة وأربعة عشر ألفا استطعنا أن نتصوّر القدر الذي يمكن أن يكون لجيش قائده يَحظى بمثل هذا الإقبال . وقد احتفظت لنا المصادر الاروبيّة بعدد قوّات سيدي عرفة في وقعة المنستير وهو أكثر من أربعة وعشرين ألفًا . ويتكوّن من الفرسان والمشاة ومن فرقة أدمجها سيدي عرفة في جيشه نظرا إلى الحاجة إليها ، وهي تتألّف من المرتزقة الأتراك ومن المسيحيّين الذين يحذقون استعمال الاسلحة النّاريّة وهي الاسلحة العصرية آنذاك ، وذلك إدراكا من سيدي عرفة بأنّه لا يمكن أن يواجه الجيش الاسباني والجيش العثماني اللذين يستخدمان الأسلحة العصريّة (المدافع والبنادق) دون أن يتوفّر له ذلك . وقد بذل سيدي عرفة نفقات كثيرة لشراء هذه الأسلحة ولدفع مستحقّات هؤلاء المرتزقة الذين كانوا يتولّون بأنفسهم شراء هذه الأسلحة من القراصنة الأتراك والجيش الاسباني بطرق غير شرعيّة لصالح سيدي عرفة .

وأمّا أبناء القبائل في جيشه فكانوا يستخدمون الأسلحة التقليديّة (الدروع والنبّال والسيوف) والقرابيلة التي شاع استعمالها آنذاك؛ وكانوا فرسانا مهرة ومشاة قادرين يعضدهم إيمانهم بالمبادىء الروحيّة والوطنيّة التي غرسها فيهم شيخهم ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الجيش لصلابة إيمانه قد بدا مختلفا تماما عن الجيوش المكوّنة من الأعراب في إفريقية وفي المغرب آنذاك ، فلم يكن يحمل طابع «الزمايل» التي يكثر عددها بالأطفال والنساء والحيوانات المختلفة دون جدوى ، وكان جنود سيدي عرفة في وضعيّة ماديّة حسنة لكثرة أمواله كما لاحظ ذلك de Tovar في رسالته إلى شارل الخامس ، ولا يرتدّون على أعقابهم كلّما جدّ الجدّ . أمّا الجيوش الأخرى المكوّنة من الأعراب فكانت مثالا للفوضى والوهن .

وقد تحدّث Marmol عن الأعراب المجنّدين فقال : إنّهم أشبه بالزمايل منهم بالجيوش المنظّمة تتكاثر فيهم النساء والأطفال والماشية بلا فائدة ، تنقصهم الأسلحة ويهربون عن طواعية عندما تهدأ المعارك أو تشتدّ ، ليست لهم أكسية ومرتّبات كافية ، فهم لا يصلحون إلاّ للنهب والهرب . تبدو عليهم بعض الشجاعة إذا ما هجموا جميعا،وهم يصيحون لكنهم سرعان ما يتشتّتون تحت وقع المعركة ، فيفرّ جانب منهم ، فإذا انتهت المعركة انفضُّوا من حول قائدهم إلى غير رجعة .

أمّا في مستوى القيادة فإنّ سيدي عرفة هو الذي قاد معركة باطن القرن برغم تقدّمه في العمر إذ كان في سنّ الرابعة والستّين ، وتخلّى عن هذه القيادة في معركة المنستير لأنه كان في الواحد والسبعين فتولاّها ابنه أحمد الشّابّي الذي كان من مساعديه في المعركة السّابقة ، وكانت تساعد القائد هيئة تتكوّن من أبناء الشابّيّة في مقدّمتهم محمد بن أبي الطيب ومحمد الزفزاف ابن عرفة والطاهر بن عرفة ومحمد بنّور (والد محمد المسعود الشابّي وعبد الصمد الشّابّي) وممّن خبروا الحروب وتميّزوا بالكفاءة من أمثال المملوك الاسباني

Cachazo الذي ساعد أحمد الشابّي في القيادة . وكان على رأس كلّ فرقة من قبيلة رئيس منها ، أما الفرقة التركيّة والمسيحيّة فقد تولّى قيادتها واحد منها سمّاه Sandroval ، (Baalij = العلج) (1) ، وبهذا يتبيّن القدْر الذي عليه هذا الجيش من التنظيم بالنظر إلى ما كان عليه جيش الحسن . إن طاقة ذلك الجيش الشابيّة والايمانيّة وثراءه المادّي جعلا منه جيشا قويّا منظّما ثأر لإفريقيّة وأذاق الحسن الحفصي والاسبان والعثمانيّين مُرَّ الهزيمة .

لقد أثر عن الشيخ ابن مخلوف قوليه : « أمّا زماننا فنور وإشراق وأما زمن عرفة ففتح وأرزاق ». ولقد ثبت ما هفا إليه فكان زمن سيدي عرفة زمن فتح وأرزاق بحقّ ، فيه ازدحمت الأموال عليه بما كانت تقدّمه القبائل له في وفادة من يفد عليه منها بالقيروان وفي استقبالها له في مواطنها . إن مصدر تمويله للجيش هو « العادة » ، ذلك أن القبائل وفي مقدّمتها الحنانشة دأبوا على إعطاء الزكاة لابن مخلوف بعد أن نشر فيهم المثنعي دعوة شيخه فالتزموا طاعته والولاء له والتتلمذ عليه . وقد أورد مؤلف « الفتح المنير » أن حال ابن مخلوف قد يسرت بعد عسر نتيجة لموافاته بأموال الزكاة وبالهدايا من طرف الحنانشة الذين تتميّز أراضيهم بالخصوبة ، وقفّتْ القبائل على أثرهم فأدّت هي كذلك الزكاة له . ولما تولّى سيدي عرفة رئاسة الطريقة جدّ في إذاعتها بين القبائل وفي تلقينها مبادئه الروحيّة والوطنيّة فدان بطاعته عدد غير قليل منها ، كان متوطّنا في مناطق خصبة من افريقيّة ، وأصبحت هذه القبائل بدورها تؤدّي له الزكاة وتوافيه بالهدايا .

لقد حوّل سيدي عرفة هذه الزكاة الشرعيّة إلى « عادة » قارّة لا يمكن لأيّة قبيلة موالية أن تتخلّف عن أدائها له ولأبنائه من بعده ،

1) اختص ملوك المغرب ابتداء من القرن الثامن الهجري بإدخال طائفة من الإفرنج في جندهم نظرا الى خبرتهم ومعرفتهم بالأساليب الحربية المستعملة وذلك ليتمكنوا من مواجهة الأمم المسيحية في صراعهم المستمر معها وليتاح لجنودهم تعلم استعمال الأسلحة العصرية. راجع، مقدمة ابن خلدون ، ج 2 ، ص 828 – 829 .

فاتخذت شكل القانون العرفي . ومن الملاحظ أن مفهوم العادة مختلف تماما عن الزكاة الشرعية فهي عبارة عن ضريبة تفرض من طرف الدولة لصالح بعض أعوانها ولم تتخلّف هذه القاعدة إلاّ في حالة واحدة هي حالة سيدي عرفة وذلك لتجذّر نفوذه الروحي في قلوب أتباعه وعقولهم .

وتثبت الوثائق المحفوظة بخزينة الدولة التونسيّة أن « العادة » فُرضتْ في العهد العثماني من طرف السلطة القائمة على بعض السكّان لعدد من الأعوان الماسكين للنفوذ مثل عادة الباي وعادة صاحب الطابع وعادة القايد وعادة الكاتب وعادة المناري وعادة جعفر وعادة الصغير ، وتختص عادة الشابّي دونها جميعا بأن المنتفع بها هو الذي فرضها في القرن السادس عشر (1)، ومن الثابت أن المعْنيّ هنا هو سيدي عرفة واستمرّت القبائل تؤدي «العادة» لأبنائه وأحفاده من بعده ، وكانت تُصرَفُ في أغراض قوميّة واجتماعيّة ، يتولاّها رئيس الطريقة بنفسه ثم ينفقها في تحقيق تلك الأغراض ، ولم تتحوّل عن صبغتها هذه إلاّ عندما اختفت بيت الشريعة بوفاة شيخها أحمد بن عمار سنة (1284/1867)، آنذاك قُسّمت على أسر الشّابيّة فاختصّتْ كلّ منها بمجموعة من القبائل تؤدّي لها هذه العادة ؛ ليس يهمّنا هنا إلا أن نوضّح أن هذه العادة التي فرضها سيدي عرفة قد سخّرت من طرفه للانفاق على المريدين وعلى الجيش من حيث تجهيزه وتموينه ودفع المرتّبات للمرتزقة فيه بسخاء . وقد لاحظ F. de Tovar شدّة ثراء سيدي عرفة، فضمّنَ ملاحظته هذه في رسالة وجّهها إلى شارل الخامس بتاريخ 30 أفريل 1538 إثر انتصار سيدي عرفة على الأتراك بالقيروان وسوسة ، ونصّها :

« ويمتلك أموالا كثيرة وأملاكا من كلّ نوع ، لهذا فهو يستطيع أن يساعد ماديّا وبشكل ناجع كلّ من يخضع له ... » (2) .

---

1) Taoufik Bachrouch : Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XIIe siècle, Tunis, 1977, P. 149.

2) راجع أعلاه .

وكأنّه في الوقت نفسه يلوّح إلى فقر الحسن وسوء حاله وعجزه عن الإنفاق على الأعراب الذين كان يستدرجهم للحرب معه لكنّهم كانوا ينفضّون من حوله ساعة العسرة . إن الأموال التي يشير إليها هي أموال العادة . والأملاك هي التي كوّنها من العادة نفسها، وهي بدورها قد أصبحت مصدرًا للانفاق على الجيش، وفي « الفتح المنير » ما يدلّ على أنّه كان يملك أراضي زراعيّة كثيرة قرب القيروان وكثيرا ما كان يتطوّع الفقراء « المريدون » للخدمة بها في المواسم .

وفي نطاق النظم التي استخدمها سيدي عرفة لإمارته، وقد درسها مونشيكور في كتابه دراسة متقصّية ، ضرب العُملة لكنّها لم تصل إلى أيدينا وقد أفادنا الأستاذ إبراهيم شبوح والأستاذ إبراهيم التوزري بأنّهما شاهدا هذه العملة عند الشيخ الطاهر الفاسي قاضي القيروان المتوفّى في السّتينات ، وهي من النحاس (1) ، كتب على جانب منها : الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، وعلى الجانب الثاني : الشيخ عرفة الشّابّي .

إن جيش سيدي عرفة جيش قوميّ أسهمت أغلب القبائل الافريقيّة في الانفاق عليه وفي مدّه بالشباب المؤمن بالله وبالوطن على النسق الذي وضحناه ، ومن هذه الناحيّة يتضح صدق ما قاله سيدي عرفة وكان دومًا مدعاة لاعتزازه « ارڤو حارة من حارات القيروان وبجرّ حارة من حارات القيروان ». لقد بدا كلّ من ارڤو وواد بجرّ حارة من حارات القيروان في نظره على الرغم من أنّهما يبعدان عنها مسافة لا تقلّ عن ثلاثمائة كلم. وما ذلك إلاّ لأنّهما مباءة لسلطانه تخضع لنفوذه السّياسي وتمدّه بالأموال حبًا ووفاء .

1) أفادنا الأستاذ شبوح بأنها مربعة الشكل .



استيلاء الاسبان على حلق الوادي سنة 1535 .

الفصل الثالث

أصـــول تصوّفـــه

– الطريقة الشابيّة :

الأصل الأول : علم الشريعة
الأصل الثاني : الاخلاق الصوفية
الأصل الثالث : علم التوحيد

الطريقـة الشابيـة

نعتمد في دراستنا للطريقة الشابية في عهد سيدي عرفة على مصادر ثلاثة :

أحدها هو «**الدر الفائق**» أو كتاب الطريقة كما يسميه الشابية، وهو لسيدي عرفة أصالة وساهم في صياغته حفيده محمد المسعود الشّابّـي ، وهو عبارة عن كتاب في أصول الطريقة وآداب المريد ، وأهمّيته تكمن في أنّه عمدة المريدين والمرجع الأصلي لمعرفة فكر سيدي عرفة مباشرة ولتبيّن ما أدخله على الطريقة من آراء وإضافات بعد والده .

وثانيها « **الفتح المنير** » مـن تأليف محمد المسعود الشابّـي وقـد شرح فيـه أصول الطريقة الشابّيّـة كما وضعها ابن مخلوف وابنـه سيدي عرفـة وخصّص الباب الرابع منه لشرح « الدرّ الفائق » شرحا صوفيّا جلّى فيه آراء سيدي عرفة ومن هذه الناحية فالكتاب يتميّز بأهميّة خاصّة .

وثالثها «**المقرّب المفيد في شرح فروض العين والتوحيد**» لمحمد المسعود الشابّي أيضا ، فقد خصّص الجزء الثاني من مجلّده الأوّل للأخلاق الصوفيّة فشرحها كما هي في الطريقـة الشّابّيّـة ملتزمًا في ذلك منهـج سيدي عرفـة الصوفي ومصادر معرفته ، ومع ذلك فإنه يصعب أحيانا الفصل بين آراء سيدي عرفة

وآراء ابن مخلوف أو التمييز بين ما لكلّ منهما على أساس أن تأسيس الطريقة من صنع ابن مخلوف وأن سيدي عرفة قد أخلص له في التلمذ ، وخلفه في رئاستها إثر فترة قصيرة كانت من نصيب أخيه ، فشرح ما غمضَ منها وأضاف لها ما أضاف .

ويبدو أن عمل محمد المسعود المتمثل في جمعه لأقوال شيخيْه وشرحه لها وفي الترجمة لهما يشبه إلى حدّ كبير العمل الذي قام به ابن عطاء الله السكندري بالنّسبة للطريقة الشاذليّة فقد جمع آراء شيخيْه أبي الحسن الشاذلي وأبي العبّاس المرسي ووصاياهما وما لهما من أدعية وترجم لهما وبذلك حافظ على تراث الشاذليّة . في غمرة من الصراع المحتدم والتهافت المزري على المتاع القريب وفي فترة اختلطت فيها السّبل وتجمّدت الطرق الصّوفيّة وآثرت الطريقتان الشاذليّة والقادريّة أن لا تتدخّلا في السّياسة برزت الطريقة الشابّيّة فكانت كسبا للحياة الدينيّة والوطنيّة الافريقيّة معًا ،وقد تجلّى هذا المعنى أكثر فأكثر على يد سيدي عرفة فأعطاها من عميق إيمانه وتوهّج وطنيته ما جعل منها القطب الجاذب للقبائل الافريقيّة في القرن العاشر الهجري ، وقد حدّد محمد المسعود سبب تأليفه « للفتح المنير » فقال : إنّه الرغبة في الترجمة لابن مخلوف وأبنائه لكنّه خصّ سيدي عرفة دونهم بمزيد من الإطراء والتقدير لما له من بالغ الفضل في تأصيل الطريقة وتجليتها فقد وصفه في هذا الصدد بـ « وارثِ المقام الذي كشف عن وجه الحقيقة النقاب وأزال عنها الحجاب وشرّع من بيتها الاطناب وتكلّم فيها بالعجب العجاب سيّد القوم وإمامهم وأعرفهم بالله وأدلّهم عليه » (1) . وركّز في مواطن عديدة من كتابه على إظهار معنى ذلك التأصيل والتجلية ، فهو الفاتح لمغلقها والشّارح لمختصرها والمبتكر لمسالك هديها والواصل لما منها انقطع (2) .

---

1) الفتح المنير ، ص 1 .

2) المصدر ذاته ، ص 73 .

بنى سيدي عرفة طريقته على علوم ثلاثة : علم الشريعة، وعلم التوّحيد، وعلم النفوس (الاخلاق الصوفية) . وهي بتضامنهـا بالمفهوم الذي أراده لها تطرح قضيّة الايمان الصوفي طرحا جديدا . إن رحلة الصوفيّة إلى المطلق بدت من خلال أغلب المدارس الصوفيّة السّنّيّةُ منها والفلسفيّة على السّواء رحلة فاصلة لا رجعة من ورائها يرفدها فناء موصول عن العالم وفي الله يجتثّ الواقع اجتثاثا وتشحذها رؤى متلاحقة تجعل من الارتداد إلى الأرض أمرًا لا طائل من ورائه .

لا يعزب عن بالنـا أن هـذه الرحلـة الصوفيّة توفّر مـن الوجهـة الفنّيّة متاعا ذوقيّا لا خفاء فيه ، بيد أن القضيّة لا تقف عند هذا الحدّ فإن مجتمعًا كالمجتمع الاسلامي في القرن العاشر لا يحتاج في حقيقة أمره إلى هذا الضرب من المعرفة والعارفين . لقد أدرك سيدي عرفة بصفاء إيمانه وعمق وطنيّته أن المجتمع في حاجة إلى مذهب روحي يعمّق في المؤمن حبّ الله ويؤصّله فـي الأرض ، يسمو به إلى السّماء ليعود به إلى الأرض من جديد آمرًا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، متصدّيًا للظّلم وملحفًا في مقاومة الفساد ، فالتوحيد عند سيدي عرفة كما سنوضّحه يحقّق غاية صوفيّة مزدوجة : الايمان المطلق ، والمحبّة الدافعة إلى الالتزام بالشّريعة وإلى العمل ، كما أن الطريقة أو ما عبّر عنه بالأخلاق أو علـم النفس تهـدف إلى ترويض النفس على الجهـاد الذي يستهدف التغيير في مستوى الواقع وإلى إقحامها في مسالك العمل مهما استعصت وتداخلت .

هناك علاقـة جدليّـة بيـن مذهبـه الصوفي وأوضـاع إفريقيّة في القـرن العاشر ، فبقدر ما أثّر فيها تأثّر بها فبدا مذهبه صورة لروح النّضال في افريقية آنذاك وما كان يفتعل فيها من عميق الإيمان وصادق الوطنيّة . وأساس ذلك كلّه التّقيّدُ بالكتاب والسّنّة لأنّهما المصدر الأساسي لتصوّف أهل السّنّة ، ومردّ أغلب الحركات الروحيّة التي ظهرت بعد انتصار القشيري والغزالي

في القرن الخامس للاتّجاه السنّي للتصوّف وتهجينهما لتصوّف الشّطح وللتصوّف الفلسفي . كان سيدي عرفة سنّيّا في تصوّفه ، معتمداً كل الأصول التي أخذ بها أصحاب هذا التصوّف وبما سرى للصوفيّة من أهل السنّة بعد القرن الخامس من القول بوحدة الشهود والاتحاد الحلولي ووحدة الوجود دونما إسراف . جاء في « الفتح المنير » : « اعلم رحمك الله أن مبنى هذه الطريقة الكتاب والسنّة ومجاهدة النفس والتخلّق بالصّفات المحمودة والتخلي عن الصفات المذمومة وكسر النفس وموتها ، فهذه طريق الغنى الأكبر والصّراط المستقيم والمنهج القويم إذ لا طريق أقرب إلى الله وأجمع عليه من طريق القوم وهي المعبّر عنها بطريق التصوّف . قال سيدي عرفة رضي الله عنه : الطرق كلّها مسدودة على الخلق إلاّ على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلّم . وقال رضي الله عنه : من لم يحفظ القرآن ولم يهتد بالحديث لا يُقتَدَى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيّد بالكتاب والسنّة. بنيت الطريقة على الملاقاة والكلام. زاد الشيخ سيدي أحمد بن مخلوف بشرط أن يكون في التوحيد والأخلاق . وممّا ينقل الفقراء عن سيدي عرفة أنّه يقول : « كُلّ بابْ فَسِدْ وَكُلْ كلاَمْ فَرْدْ » ولا يكون الوصول إلاّ على أثر الرسول : انظر رحمك الله مبنى طريقتهم كيف انحصرت في أربعة أصول : الكتاب والسنّة والتوحيد والأخلاق ، وهذه الأربعة أصول كلّ خير ، لأن كتاب الله أصل كلّ خير ، فمن عمل به وفى ومن تكلّم به صدق ، ومن حكى به أثيبَ . وسنّه رسول الله صلى الله عليه وسلّم هي الطريق إلى الجنّة ، وهي سفينة الدين وملّة الاسلام والدّرّة البيضاء والمقام الأعلى . والتوحيد هو أصل الإيمان وكأس الحبّ وشراب اليقين . والأخلاق هي مبنى القوم حتى أن من لم يتخلّق بالأخلاق ويجاهد نفسه لم يكن له في طريق القوم مشرب ، فقد انحصرت الطريقة والشريعة في هذه الأربعة ، ولا يصل بحر الحقيقة إلاّ من سلك البحرين وعبر الطريقين ، وهذه الاربعة أصل من انتسب إلى طريق الحقّ ولا يكون الوصول إلاّ بها ، فمن لم يكن له منها مطلب، فليس له في الحقيقة مشرب، لأنْ من خالف الكتاب كفر

ومن خالف السنّة ابتدع ومن لم يعرف التوحيد جهل ومن لم يحصل له الايمان ولم يتخلّق بالصفات المحمودة ولم يترك الصفات المذمومة كان كالبهيمة بل هو أضلّ سبيلا » (1) .

فالشريعة (القرآن والسنّة والأحكام المستمدّة منهما) والطريقة (التلبّس بالأخلاق الصّوفيّة) والحقيقة (الكشف الصوفي الذي يفضي إليه علم التوحيد عن طريق الفناء) هي جماع ما وقف الشيخ تصوّفه عليه ، ومن هذه الناحيّة فتصوّفه لم يكن مستحدثا بل إنّه استمدّ هذه الأصول من التراث السّنّي الصّوفي الذي نمّته التجارب الكثيرة والتزم الآداب والرسوم الشّائعة لدى أقطاب هذا التصوّف ومن ثَمّ فقد أخذته الدّهشة حين قيل له إنّ النّاس يشتمُونك ويهجّنون تصوّفك : « حُكي عن الشيخ (عرفة) رضي الله عنه أنه قال : ما وافق العقل والنقل فهو قولي وأنا قلته وما لم يوافق العقل والنقل فليس بقولي . انظر كيف حصر رضي الله عنه كلامه في المنقول والمعقول لأنّ المنقول أصل الشّرعيات ، والمعقول أصل العقليات فصار أصل طريقته العقل والنقل . ورُوي أنّه قيل له : النّاس يسبّونك فقال رضي الله عنه ، وعلى أيّ شيء يسبّونني فما زدت شيئا أسَبُّ بسببه ، فالكتاب كلام الله والسنّة سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، والطريق للجنيد والمواهب لسيدي عبد الوهاب الهندي والمصافحة لسيدي علي المحجوب وحزب البحر للشاذلي والوظيفة لأبي يحيى ابن عقيبة[القفصي] ،وعلى أيّ شيء يُسَبّ عرفة : ألاَ أعوذ بكلمات الله التامّات فإنّها مرويّة عن النبيّ (ص) ثلاثا مساءً وصباحا فجعلها سيدي أحمد بن مخلوف عشرًا دُبُر كلّ صلاة ... ورأس العقيدة (الحمد لله إلى قل هو الله أحد) كان بإشارة من أخي أبي الفضل، وعرفة لم يزد شيئا، انظر رحمك الله هذه الأصول التي بنى عليها طريقته، ما أصحّها وما أجملها، « ومثل كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي

1) الفتح المنير ، ص 113 — 116 .

أ كلها كل حين بإذن ربّها » وكان يقول لتلاميذه إن وجدتم طريقة أشرف من هذه الطريقة فعرفة معكم بحبل « ديس » في عنقه » (1) .

إن أصول هذه الطريقة وآدابها لا تحمل في طيّاتها نبوًّا أو غلوًّا ما دامت قد اعتمدت القرآن والسّنّة وانتسبت لأقطاب الصّوفيّة من أمثال الجنيد وأبي مدين وسيدي علي المحجوب وأبي الحسن الشاذلي . وقد تصدّى شارح الطريقة غير ما مرّة للرّدّ على مهجنيها والمتحاملين عليها فكشف عن «روح العمل والعزم» التي تتميّز بها وعن صبغتها الدّينيّة والاجتماعيّة وعن منافرتها للغلوّ والتهريج ، فهو يرى أن الطريقة لم تنسلخ عن الدنيا ولا عن المجتمع ومشاكله ، فلم تدع إلى الانبتات والتخلّص من متاع الدنيا ولا إلى الرقص والجنون والتهريج بل دعت إلى التحلّي بالخلق الاسلامي والتمسّك بسيرة الرسول ، ويرى أن هذا هو السبب في نجاحها وإقبال المريدين عليها « وأمّا سداد طريقهم فقد حصّنوها بالشريعة وسلكوها في طريق القوم وأيدوها بالحقيقة فجمعوا فيها بين العلمين الظاهر والباطن واستوت بحمد الله على التوسّط والاعتدال فلم يتركوا للشيطان سبيلا ... ليس فيها رقص ولا تصفيق ولا جنون ولا تمزيق ولا جلوس مع النّسوان ولا إهمال النفس فيما لا يعني الانسان ، تحصّنت بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم حيطانها وشيّدوا بكتاب الله أركانها ، أسسوها على الحقيقة وجعلوا أرضها الطريقة وبابها التوكّل على الله ، وحفّوها من كل الجهات بأنواع المجاهدات وزيّنوها بالأوراد في جميع الأوقات فكلمت بحمد الله وشيدت وظهرت وتشعشعت فليس لطاعن فيها مقال ولا لحاسد فيها مجال .

فكم عائب ليلى ولم ير وجهها   فقال له الحرمان حسبك ما فاتا

وأمّا مفتاحها فالذلّة والافتقار وعدم الاستكبار » (2) .

---

1) المصدر ذاته ، ص 116 . وراجع أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية ، ص 85 .

2) المصدر والصفحة ذاتهما .

لقد اعتبر Coppolani و Depont في كتابهما Les confreries religieuses musulmanes أن الطريقة الشابية متفرّعة عن الشاذلية شأنها في ذلك شأن كثير من الطرق كالجزوليّة والعروسيّة والزرّوقيّة واليوسفيّة والشيخيّة والناصريّة والغازيّة والطيبيّة (1) .

وابتداء فإن علاقة الطريقة الشابيّة بالطريقة الشاذليّة واضحة لأنّ الشاذلية بدت قطبا جاذبا للطرق الصوفيّة التي ظهرت بعدها خاصّة في المغرب ودأبت على اعتماد آراء أعلامها واستوعبت تراثها وأدمجته في صلبها سواء انتسبت لها أو لم تنتسب ، وقد أتيح للطريقة الشاذليّة أن تؤثر أكثر حين نشر ابن عطاء الله تراث شيخيْه بين الناس في أواخر القرن السّابع وأوائل القرن الثامن ، وعلى هذا الأساس فإن شبها كبيرًا يسلك طرقا صوفيّة كثيرة مع الشاذليّة ومن بينها الطريقة الشابيّة ، فشارح الطريقة الشابيّة يحيل في كتبه كثيرا على المدرسة الشاذليّة ، ويستند على أقوالها في شرح آراء سيدي عرفة ، وقد عنيَ كثيرا بالبحث عن الشبه بين سيدي عرفة وبين أقطاب هذه المدرسة ، من ذلك أنه شبّهه بأبي العبّاس المرسي في سرعة هدايته للنّاس وقدرته على التأثير فيهم ، أورد ما نصّه : « قال الشيخ أبو الحسن (الشاذلي) في تلميذه : أبو العباس الرجل الكامل وإنّه ليأتيه البدويّ يبول على ساقيه فما يأتي عليه اللّيل إلاّ وقد أوصله إلى الله فكذلك شيخنا (سيدي عرفة) رضي الله عنه » (2) . كما أورد قول سيدي عرفة نفسه لتلاميذه « إن وجدتم طريقة أشرف من هذه الطريقة فعرفة معكم بحبل ديس في عنقه » وهو قول يذكّر تماما بقول أبي الحسن الشاذلي لأصحابه « اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري فإن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردّوه » (3) .

(1 Alger, 1897, 443

2) الفتح المنير ، ص 96 .

3) راجع ، الكتاني : سلوة الأنفاس، فاس ، دون تاريخ ، ج 1 ، ص 30 .

كذلك اعتمد سيدي عرفة حزب البحر لأبي الحسن واتخذه حزبا لطريقته لكن هذا لا يجعل من الطريقة الشابيّة فرعا من فروع الشاذليّة لأن ما بنت عليه الشاذليّة كلّ تعاليمها وهو إسقاط التدبير لا يتّفق مع الجوهر الذي بُنِيَتْ عليه الطريقة الشابيّة ، فإن إسقاط التدبير أي عدم النظر في عواقب الأمور وما ستؤول إليه مستقبلا على اعتبار أن هذا من شأن الله وحده يُفضِي في بعض جوانبه إلى ضرب من الطمأنينة قد ينجرّ عنها عند بعضهم تفريط في السّعي وركون إلى الاستسلام بينما يمثّل الجهاد والعمل والتدبير الإيماني جوهر تعاليم الطريقة الشابيّة ، ومن ثمّ يتّضح خطأ ما ذهب إليه Cappolani و Depont حين اعتبرا الطريقة الشابيّة فرعا من فروع الشاذلية. وسببه كما هو واضح من خلال ما كتباه عن الطريقة الشابيّة عدم اطلاعهما على أي مصدر من المصادر الأصلية لهذه الطريقة مع جنوحهما إلى ضرب من التقسيم المدرسيّ التزماه في الكتاب كلّه دفعت إليه رغبتهما في التسهيل على الدارسين فانتهى بهما هذا إلى عدد من الأخطاء .

الأصل الأوّل : علم الشريعة :

أحدث الاتجاه الفلسفي للتصوّف ردّ فعل واضح داخل المجتمع الاسلامي تبدّى في غلبة الاتجاه السّنّي للتصوّف الذي حضّ على تطهير التصوّف الاسلامي من الانظار الفلسفيّة القديمة والمصطلحات الفلسفيّة التي تسرّبت إليه من حضارة فارس والهند ومن المسيحيّة واليهوديّة وسواها ، وترتكز أساسا على تأويل النّصوص الدينيّة لصالح ما اعتنقته سلفا تأويلا متعسّفا تنقطع به كلّ صلة بين ما تقتضيه اللّغة وما انتهوا إليه ، فتصبح اللّغة بذلك ، رموزٌ جوفاء لا غناء فيها ويصبح التأويل « المواضعة » الوحيدة والمصدر المفرد لعقيدة مستحدثة هي عبارة عن خليط من الآراء والعقائد التي عرفتها حضارة الشرق القديم . لقد وجد صوفيّة أهل السّنّة في هذا العمل ردّة وانقضاضا شرسًا من الصوفية المتفلسفين على القرآن والسّنّة فهبّوا لتهجينهم والتشنيع بهم وإظهار

تهافت منهجهم وتحديد أخطاره على العقيدة الاسلاميّة ودعوا من جديد إلى اعتصام صوفيّة الاسلام بالقرآن والسّنّة والاحكام المستمدّة منهما وإلى التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرّذائل في نطاق عملية تطهيرية باطنية تستهدف الربط بين صفاء سريرة المؤمن باعتبارها مرقاة لعلم الكشف أو علم التجلّيّات كما سمّاه ابن مخلوف وبين الاعمال الظاهرة للمؤمن أو بعبارة أخرى بين الباطن والظاهر . وقد أسّس هذه المدرسة القشيري والغزالي وحملا لواء الدعوة إلى الرجوع إلى القرآن والسّنّة فأثّرا تأثيرًا بعيدا في مجرى الحياة الصّوفية الاسلامية وذلك بإرجاعها إلى حظيرة المصدرين الأصليين للإسلام،وشاعت تعاليم هذه المدرسة في المشرق والمغرب وبخاصّة في افريقيّة في ظلّ المدرسة المدْينيّة والمدرسة الشاذلية والمدرسة القادرية واهتدت الطرق الصوفية بتعاليمها واعتمدت روحها الخلقيّة وما يسلم إليه قولها بالفناء من اتّحاد ووحدة وجود وإن لم توغل فيه كما فعل الصوفية المتفلسفون .

إن الأصل الأوّل الذي أقام عليه سيدي عرفة مذهبه الصوفيّ هو (القرآن والسّنّة) ولهذا قال إن الطرق مسدودة على النّاس إلاّ على من اتّبع القرآن واقتفى أثر الرسول وعمل بسنّته (1) وقرّر أنه لا يمكن الاقتداء بمن يتصدّى للارشاد إذا لم يكن حافظا لكلام الله مهتديا بالحديث لأن التصوّف مقيد بالكتاب والسّنّة (2) وحضّ أتباعه على التأسّي بالرسول واتّباع طريقته ، وكان يستحثّ الأميّين على تعلّم القراءة ويغلظ لهم في القول حتى يحملهم على التعلّم للوقوف بأنفسهم على الكتاب والسّنّة ، حُكي أنّه وفد عليه ذات يوم أحد المريدين فأعطاه بطاقة فاطلع عليها ومدّها لرجل متقدّم في العمر يجلس بجانبه وطلبَ إليه أن يقرأها فاعتذر الرجل لجهله بالقراءة ، فأنشد الشيخ بيتين نظمهما في حينه بالعاميّة لإفهام هذا الأمّيّ وللتأثير فيه ، وذلك

---

1) الفتح المنير ، ص 113 – 114 .
2) المصدر والصفحة ذاتهما .

شأنه في إفهام تلاميذه الأميّين من البادية وفي توعيتهم وإعدادهم لساعة العسرة ، وهذان البيتان هما :

إذا لم تكن تقرأ ولم تك فاهما ... نهارك بطّال وليلك نائم
كذلك في الدّنيا تعيش البهائم ... فموتك خير من حياتك دائم !

فنهض الرجل من حينه واشترى لوحًا وبدأ في التعلّم إلى أن حفظ القرآن كلّه (1) . والمتتبّع لأقوال سيدي عرفة في « الدر الفائق » « والفتح المنير » يلحظ كثرة اعتماده على القرآن والسنّة واهتداءه بهما في شرح أصول الطريقة وفي توثيق آرائه ، وتبعا لهذا فإنه كان يعتبر النقل مصدرًا أصليا لطريقته ، اهتدى بالفقه منذ صغره وبرز فيه حتّى لقد لقبه المشارقة بالمالكي .

وقد مرّ بنا أن أحد فقهاء تونس اعترف له بالتّفوق بعد مناظرته له بالقيروان، كما وقفنا على صنيع محمد مغوش معه وتحريض السلطان الحفصي عليه ، ومن البيّن أن تحرز سيدي عرفة من الفقهاء لم يكن مندرجا في نطاق العداوة التقليديّة بين الصوفيّة والفقهاء فحسب بل كان كذلك بسبب خيانة مغوش وأضرابه لضمير الأمّة وإضفائهم على الفقه صيغة تبريريّة خالصة لصالح البلاط الحفصي .

الأصل الثاني : الأخلاق الصوفيّة :

لئن اعتمد الاتجاه السنّي للتصوف اعتمادا كليّا القرآن والسنّة فإن مردود هذا الاعتماد يجب أن يبرز في الدرجة الأولى في المجال الخلقي أي ما سمّي عندهم بالتّحلّي والتخلّي ، ومن هنا فإن أحد الأصليْن « القرآن والسنّة » و« الأخلاق » لا ينفكّ عن الآخر . وقد أطلق سيدي عرفة اسم « الاخلاق » تارة واسم « علم النفوس » أخرى و« الطريقة : العمل »

1) المصدر ذاته ، ص 182 .

ثالثة ، وركّز كغيره من الصّوفيّة السّنّيّين على أهميّته القصوى باعتباره مرقاة إلى مرحلة الفناء وتسنّم الشهود ، وبادىء ذي بدء فإنّه من المفيد أن نشير إلى أن سيدي عرفة لا يختلف في تحليله لهذا الأصل من الوجهة النظريّة الصّرف عن أقطاب المدرستين الشاذلية والقادرية الذائعتين في افريقيّة ، لكنّه يختلف عنهم من الوجهة العمليّة ذلك أن مجال العمل عند سيدي عرفة يتّسع ليشمل علاقة المسلمين بالسلطة بينما يبقى مجال العمل عندهم محدوداً لا يتناولها بأيّة حال ، وتلك خصيصة تميّزت بها طريقة سيدي عرفة فأكسبتها أهمّيّة خاصّة في تاريخ التصوف في افريقيّة . إن المنطلق لهذا العمل الخلقي هو القلب لأنه مناط كل تحوّل ، ولا يكون ذلك إلاّ بترويض النفس ومجاهدتها وكسر شهواتها وإقحامها في مسالك التطهير والتنوير (1) .

كان سيدي عرفة كَلِفاً بالنفس منصرفا إلى معالجة أدوائها موجّها أنظار مقدّميه ومريديه إلى أن التغيير في المستويين الفردي والاجتماعي لا يحصل إلاّ بالتعمّق في معرفة النّفس وسبل تطهيرها واستبطان مكامنها للسيطرة عليها ، وهذا الاستبطان الذي يستهدف التحلّي والتخلّي هو الذي سمّاه بعلم النفوس ، وقد وضّح محمد المسعود أنّ مبنى هذه الطريقة هو علم النفس . وفي القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين وُسِمت هذه الطريقة خاصّة بين أهل المغرب الأقصى بأنّها الطريقة المُنجِية ُ لانبنائها على علم النفس ، نقل ذلك محمد الزفزاف عن حاجّ مغربيّ تلمذ لوالده فاعتبر أنه لو مات قبل أن يظفر بهذا التتلمذ لمات جاهلا (2) ، كما أورد محمد المسعود أنه لقي علي العمري المراكشي في الطريق إلى الحجّ ، فأعلمه حين عرف أنّه من ذرّيّة سيدي عرفة بأن مقدّمين كثيرين للطريقة الشابّيّة في مراكش وطيلول ودرعة وُفِّقُوا في نشرها لأنهم كانوا يتكلّمون في علم النفس (3) . والقلب هو مناط

---

1) الفتح المنير ، ص 116 .
2) المصدر ذاته ، ص 75 .
3) المصدر ذاته ، 73 — 74 .

التحوّل لأنّه الباطن في مقابل الظّاهر ، وهو كما قال الغزالي أداة المعرفة الصّوفيّة والمرآة التي يجب أن تكون مجلوّة حتّى تعكس حقائق العلوم ولن تكون كذلك إلاّ إذا أزيل عنها الصّدأ وهو الشّهوات (1) ، لهذا اعتبر سيدي عرفة القلبَ قلعة بأتمّ معنى الكلمة (2) ، وفلسف في أقسامه وأوضاعه فأبان عن دقّة في التحليل وشغف بالتوليد وقدرة في العثور على الفروق الخفيّة . جاء في الدرّ الفائق : « قال (سيدي عرفة) رضي الله عنه : اعلم يا أخي أن القلب له بابان : باب على الغيب ، وباب على الشهادة ، والقلوب أربعة : قلب مشروح وقلب مجروح وقلب مذبوح وقلب مطروح . فالقلب المشروح : قلب المؤمن مشروح بالمعرفة : والقلب المجروح : قلب المنافق . والقلب المذبوح : قلب الكافر . والقلب المطروح : قلب المرتدّ ، مطروح في حسرات الخسران . وقلب المؤمن ينْقسم إلى ثلاثة أقسام : قلب عارف وقلب تائب وقلب راغب . فالقلب العارف متعلّق بالله . والقلب التايب متعلّق بالآخرة والقلب الراغب متعلّق بالدّنيا وأحبّ القلوب إلى الله أرقّها وأصفاها » (3) . ولابدّ أن تتوالى عمليّات الترويض والتّطهير حتّى يتسنّم القلب مراتب شهوده ، ثم هو يتناول النّيّة فيقرّر أنّها تصلح بخمسة : العلم والحلم والورع والحياء وكمال العقل وتفسدها أربعة أشياء : الحمق والجهل والطمع والهوى . وعنده أن النيّة الكاملة هي مقارنة للعمل وإن تجرّدت عن العمل فهي ناقصة ، والنقص ليس له من تبرير عنده ما دام تصوّفه قائما على العمل والجهاد ، والجهاد يبدأ من قهر النفس بله من إماتتها حسب تعبيره هو وينتهي إلى امتشاق السّلاح من أجل الدفاع عن الدّين والوطن ، وهذه الإماتة تحرّر العقل من عقال الوهم وتكسبه قدرة على الانطلاق يتحقّق بها تسنّم العارف مراتب الشهود ، وهذا أمر لا ينال إلاّ بالكدّ والجدّ ونفاد الجهد (4) . إن التوقف في منتصف الطريق

1) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 12 – 13 .
2) الفتح المنير ، ص 182 .
3) الدر الفائق ، ص 12 .
4) الدر الفائق ، ص 12 .

لا يعدو أن يكون هو بدوره موتا ، وهو ما عبّر عنه للعامّة في هذه الصّيغة السّائغة لديهم « مَالْحقْت مِنّاكْ ولا مُتْ بِدَاكْ يا تراب كُنْ تْرَابْ » .

وقد استقرّ في أذهان الصّوفيّة أن من لا شيخ له كان الشيطان شيخه لذلك أفاض سيدي عرفة وشارح الطريقة في التأكيد على وجوب التّتلمذ على الشيخ فإن طريق العارفين محفوفة بالمخاطر ، والتدرّج في مراقيهم يحتاج إلى مراقبة دائمة ، فقد قال سيدي عرفة « وحقيقة الشيخ هو الذي ما رآه عابد إلاّ ونشط ولا رآه شيطان إلاّ وخمد » (1) وكثيرا ما كان سيدي عرفة بالعامية يصوغ الأفكار التي ينبغي من المريدين الاعتصام بها في نسق محبّب لتكون كالمثل السّائر على ألسنتهم . قال لهم في شأن التتلمذ على الشيخ « اسلكْ بِعَارف يعلّمك أسرار الدين ، تْعُودْ النّفيسَة تِتْهَذّبْ ، ومن بعد ذلك تتأدّبْ ، ومن بعد ذلك تِتْعَجّبْ » (2) ، لكن هذه الضرورة لا يجوز أن تنتهي بالمريد إلى الغلوّ فيه ، فتسدّ عليه طرق الافادة الحقيقية ، فحين نزع مبارك البرباري إلى الغلوّ في شيخه سيدي عرفة صَدّهُ هذا وقال له : « اعرفْ مولاك الذي صوّرك وأنشأك وخلقني أنا وإيّاك » (3) ، لذلك عندما سأله تلاميذه عن معنى الكرامة قال لهم إنّها الاستقامة ولا شيء غيرها (الفتح المنير ، ص 262) وقد اعتبر أنّ أهمّ كرامة له ارجاعه طرودا والحنانشة إلى حظيرة الإسلام بعد أن كان إسلامهم شكليّا لا غناء فيه . وهذا ما عناه محمد المسعود في قوله : (وأكبر كراماته وأعمّها نفعا دنيا وأخرى دلالته على الله وتوصيله إليه فقد فتح الله به أعينا عميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُفْلاً فما نسج أحدٌ على منواله ولا حام أحد حول حماه) (4) وقرّر أن من تجاوز الحدود في الاعتقاد في الوليّ فقد أخطأ المنهج القويم والصّراط المستقيم (5) .

---

1) المصدر ذاته ، ص 13 .
2) المصدر ذاته ، ص 13 — 14 .
3) الفتح المنير ، ص 105 .
4) المصدر ذاته ، ص 96 .
5) المصدر ذاته ، ص 93 .

ولكي يكون التلميذ قادرًا على الإفادة من شيخه اشترط فيه سيدي عرفة أن يكون قارئا وفقيرا « متصوّفا » والقراءة في نظره مقدّمة على الفقر لأن القارىء إذا دخل في الطريقة وطلب من الله سهل عليه التّعلّم وحفظ ما أراد وفهم المعاني وتحقق بالفقر إذ القـراءة هي آلة تحصيل العلم (1) ، ومِنْ ثـم كان سيدي عرفة يلحّ على الأمّيّين من الفقراء أن يتعلّموا القراءة مهما تكن أعمارهم ولا يتأتّى للشيخ أن يفيد المريد فيلقّنه العلم ويشحذ فيه الذّوق لتصفو سريرته وتزكو مواجيده إلاّ إذا كانت له بصيرة نافذة وهمّة عالية (2) ، وعلى المريد أن يسلس قياده لشيخه وأن يفعل ما يطلبه منه مهما استعصى ، وكثيرا ما كان سيدي عرفة يبصّرهم بعيوبهم ويغلظ عليهم في ذلك كما فعل مع أحدهم حين أطلق لنفسه عنان الكسل ولم يُنْجِزْ ما طُلب منه ، إذ تولاّه بالتقريع والشدّة بمحضر التلاميذ ، وحسب الفتح المنير (فذلك إخراج منه للتّلاميذ من كسل نفوسهم وإطلاق لها من عقال هواها فعرّفه بإساءة نفسه ونبّهه إلى مخالفتها) (3) فإذا ما نبه أحد تلاميذه كلّفه بتربيّة الجـدد من المريدين ثمّ يتولاهم بنفسه من بعد ذلك بالتربية وكان يقول (مكسوري يبْرُوه الفقراء ومكسور الفقراء ما نبريه) (4) . وقد التزم سيدي عرفة الطريقة التربويّة التي التزمتها المدرسة الصوفيّة السّنّيّة وأخلص لها أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي وتتمثّل هذه الطريقة في صياغة مقولات من الأدب الدّيني والصوفي ، يسيرة في لغتها وجيزة في مبناها ، يسهل على التلاميذ حفظها فتكون بمثابة الزّاد التربويّ لهم ، يلازمهم في حلّهم وترحالهم . من ذلك قوله : (خصال المؤمن ثلاث : إن تحدّث صدق وإن وعد وفى وإن أمن فلا يخون) و (أوصاف المنافق ثلاثة : إن تحدّث كذب وإن وعد خالف وإن أمن خان)

1) المصدر ذاته ، ص 182 .
2) الدر الفائق ، ص 14 .
3) ص 112 .
4) الفتح المنير ، ص 257 .

و(قواعد الدين خمس : الطاعة للمعبود والقناعة بالموجود والصبر على المفقود والوفاء بالعهود والوقوف عند الاوامر والحدود) (1) .

ومن البيّن أن أصول هذه التربية القائمة على مجاهدة النفس وإقحامها في مسالك العمل مهما استعصت وترويضها على الإيثار هي التي جعلت من تلاميذ سيدي عرفة مجاهدين حقيقيّين امتشقوا السلاح للدفاع عن إفريقية ضدّ الخونة والغزاة الاسبان والاتراك .

الأصل الثالث : علم التوحيد :

لهذا الأصل جانبان : الجانب المعرفيّ الكلاميّ ، والجانب المعرفيّ الصّوفيّ ، وهما لا ينفكّان لأنّه لا يمكن التحقّق بالمعرفة الصوفيّة أي الحبّ ثم الفناء ثم الشهود إلاّ بعد التعمق في إدراك الجانب الكلاميّ منه ، وهو عند سيدي عرفة كسائر صوفيّة أهل السّنّة ذو وجهة أشعريّة . إن أعلى مراتب التوحيد عند الصوفي حسب الغزالي هو المشاهدة أي الفناء في التوحيد ، هناك إذن بداية وهناك غاية ، فالبداية كلاميّة والغاية صوفيّة ، والواسطة بينهما حبّ موصول يرفده ذوق شحذته التجارب المتلاحقة .

إنّ الجانب الذي نهتمّ به هنا هو الجانب الصّوفي لعلم التوحيد، وابتداء فإنّه يجدر أن نلاحظ أن التلبّس بهذا الجانب في نظر سيدي عرفة لا يعني بأيّة حال الاكتفاء بمتاع المكاشفة وإنما يعني إلى ذلك العودة إلى الأرض بروح عمليّ وثّاب يستهدف البناء والإطاحة بالظالمين ، فتصوّفه إذنْ هو تصوّف إيجابيّ لا أعجمي إذا صحّ أن نستخدم تعبير محمد إقبال . إن هذا الجانب هو الذي عبّر عنه بالحقيقة مرّة وبالحال أخرى وببحر المعرفة ثالثة ، وقال إنه لا يصل إليه إلاّ من سلك البحرين وعبر الطريقيْن « الشريعة والطريقة » (2) ، وعبور

1) الدر الفائق ، ص 7 و8 .
2) الفتح المنير ، 116 .

الطريقين لا يتحقق إلاّ بخروج السّالك من نفسه حسب تعبيره هو « اخرجْ منك عنك وحسِّن ظنّك بالله يا أخي . إنّا نضمنُ لك في حينك أن تلْقَى الله » (1) أو ما عبّر عنه في موطن آخر بإماتة النفس (2) . إن بحر المعرفة عنده هو ما سمّاهُ الغزالي من قبلُ بعلم المكاشفة ، وابن مخلوف بعلم التجلّيات ، وهو الذي قال في شأنه لمريديه : « بحرنا هذا بحر عميق، يُورِدْ منه الفيلْ والعصفورْ، كلّ واحد يشرب على قدره » (3). وأساس تسنّم ذروة الفناء حيث الشّهود التّسليم والتخلّص من الأيْن والأنا (التسليم وهو من الفناء ، مَنْ أراد أن يظفر بنا فلْينحّ الأين والأنا ، فليسكن ذروة الفناء ، مَنْ أراد أن يكون في علّيّين فلْيرْقَ سلالم التسلم) (4) ، ولا يتحقق هذا السّفر الروحي إلاّ بعد التلبّس بالمحبّة والمعرفة الصوفيّة (5) .

كثيرا ما تتدافع الرؤى على الصوفيّ فتسمو به حاله الصّوفية حينا إلى وحدة الشهود وأخرى إلى وحدة الوجود ، وهذا ما وجدناه لسيدي عرفة وما دعا إليه تلاميذه ، فقد وضّح في الدر الفائق أن المعرفة الصوفيّة كشف وتحقّق وأن معرفة الفقهاء ظاهريّة لا طائل من ورائها في هذا المجال ، وتراه يحض تلاميذه على قطع المراحل المفضية إلى وحدة الشهود في صور تتالى فيها المشاهد التي تبعث العزم في النفوس والشوق في القلوب ، متخذا من الدّارجة سبيلا لصياغة هذه الصّورة ، من ذلك قوله : (اعمل في قلبك لوحك واقرأ فيه التوحيد باش تْشاهد ربّك العزيز ، تموت شهيد ، اعمل في قلبك جامع ، واعمل في الجامع حضرة واعمل في الحضره فكرهْ ، واعمل في الفكره سلّوم ، به ترقى العلوم ، يا فقهاء أنتم قريتم . والفقير بعينه تْحققْ ، واش

1) المصدر ذاته ، ص 43 .
2) الدر الفائق ، ص 11 .
3) المصدر ذاته ، ص 12 .
4) المصدر ذاته ، ص 12 .
5) راجع ، أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية ، ص 89 — 91 .

من توهّم كيفْ من نظر وصدّق ، يا فقهاء أنتم قرأتم في لوحات من عود .
ونحن قرأنا في لوح اسم المعبود ، جانا بعيد من بعيد بشيء مشهود) (1) .
ووحدة الشهود عنده مرقاة لوحدة الوجود حيث تنعدم الكثرة ولا يرى في الوجود إلاّ الله ، لقد قطع سيدي عرفة المقامات بالمجاهدة والمكابدة والعبادة والذكر وأدرك الأحوال والأذواق والمواجيد ، ففاضت عليه ضروب التجليات وانسحقت ذاته لينغمر في عالم من الحبّ والمعرفة ويتذوّق لذّة الشهود تارة وما تُسلِم إليه وحدة الوجود أخرى (محوتَ اسمي ورحمتَ جسمي ورغبتَ عنّي ووجدتُك أنتَ فَنَاءَ فنائي ، ومن فنائي وجدتُ نايِـي . مَزّقْ حجاب الْمـَرَايَهْ ، تجد الموجود واحدًا ، بالفناء تشاهد المشهود وعسى بعد العماية تنظرْ ، فالكـلّ واحـد محجـوب ، عمّ الموجـود وظهـر في بيـض وسود وفي نصراني ويهود ، وفي حروفْ ونْقوطْ ، اعرفوني وانظروا جمـالي . شاهدي في كلّ إنسان كماء جارٍ في وسط الأغصان تسقى بماء واحد ، والزهر ألوان اجْمعْ وفرّقْ واتّهم ، إنْ كنت تفهم، وليست معرفة الجملة ، كدقائق التفصيل) (2) .

إن هذه الدرجات من التحقق « وحدة الشهود والاتحاد الحلولي ووحدة الوجود » هي في الحقيقة مناط التجربة الصوفيّة السّنّيّة منها والفلسفيّة على السّواء ، ولم تتقبّل المدرسة السّنّيّة في بداية أمرها القول بالحلول وبوحدة الوجود ، واعتبرتهما علامة مميّزة للتصوّف الفلسفي ، لذلك هجّنته وكفّرت من قال بهما ، لكننا حين نمعن النظر في التراث الصوفي السّنّي الذي ظهر بعد القرن الخامس نجد أن كثيرا من الصّوفيّة من بين أهل السّنّة يقولون بالحلول وبوحدة الوجود ويتأوّلون بطرق مختلفة الحلول الذي قال به الحلاّج ويعتبرونه شهيد المحبّة الالهيّة (3) .

1) الدر الفائق ، ص 13 .
2) المصدر ذاته ، ص 12 .
3) راجع مثلا الفتح المنير ، ص 225 – 226 ، وفيه كذلك (قال الحلاج رضي الله عنه) ص 225 (. . وقد أفتوا بقتل صاحب هذا الكلام وحكموا عليه بالكفر . إنا لله وإنا إليه راجعون . .) ص 226 .

ومن رأينا أن الاتحاد الحلولي ووحدة الوجود لدى القائلين بهما لا يتّخذان شكلا استمراريّا قارًّا وإنما هما آنيان ينْتهيان بانتهاء لحظة الكشف وهي لحظة خاطفة ، ومع ذلك فهي شديدة العسر على أنفسهم ، لو عرفت لها استمرارا لانسحقُوا تماما ، ولما وصلوا إلى الاعراب عنهما أو الحديث في شأنهما . فهذا « اللّمح » الخاطف هو الذي يفسّر لنا موقف أكبر صوفية أهل السنّة القائلين بعدم تكفير الحلاّج وباستساغة ما ذهب إليه ابن عربي .... والأمر مختلف تماما بالنسبة لغلاة الشيعة فإن قولهم بحلول الجزء الالهي في الإمام وانتقاله إلى مَن يَخلُفه وهكذا دواليك انتهى بهم إلى الخروج عن الاسلام لأن حلولهم فلسفيّ استمراريّ يتجدّد على نسق تكراريّ لا حدّ له ، وهو مناقض للتوحيد .

يتّضح من كل ما سبق أن سيدي عرفة كان زعيما للاصلاح الديني والسياسي بحقّ وقائدا للنضال التونسي في القرن السادس عشر الميلادي ، وهو قرن ازدحم بخيانة الحسن الحفصي وبالصراع التركي المسيحي من أجل احتلال مدن افريقية وسواحلها ، وقد لقيت تونس في ظلّ الغزو التركيّ ثم في ظلّ الغزو المسيحي من الويلات ما لم تلقه في أيّة فترة من فترات تاريخها ، يبد أن سيدي عرفة بوطنيّته التونسيّة المتأصّلة قد ثأر لافريقيّة من خيانة الحسن الحفصي ومن الغزاة الأتراك والمسيحيّين وأسّس دولة قوميّة دعائمها العروبة والإسلام والوطن التّونسيّ .

الفهـارس :

الاعـــــلام

الاعـــلام الاجنبيــــة

البلـــدان والاماكـــن

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

القبائـــل والجماعـــات

الكتــــب

المصـــادر والمــراجـــع

أ ـــ العربية

ـــ المخطوطات

التّواتي (محمد)

ـــ الهـادي الرشيـد في حلّ المقفـل الشديد من كلام أهـل التوحيد (بمكتبتي) .

حمّودة بن عبد العزيز

ـــ التاريخ الباشي (بدار الكتب الوطنية تونس ، رقم 1794) .

الشابّي (أحمد بن مخلوف)

ـــ مجموع الفضائل (بمكتبتي) .

الشابّي (علي بن محمد المسعود)

ـــ مناقب محمد المسعود الشّابّي (بمكتبة الوالد المرحوم الشيخ عمار ابن رمضان الشابّي) .

الشابّي (محمد المسعود)

- الدّر الفائق (بمكتبتي) .
- شرح المختصر الصغير (بمكتبتي) .
- الفتح المنير في التّعريف بطريقة الشابّيّة وما ربّوا به الفقير (بمكتبتي) .
- المقرّب المفيد في فروض العين والتوحيد ، مجلّدان (بمكتبتي) .

المغربي (علي بن ميمون)

- مناقب أحمد الغوث التّباسي التوزري (نسخة منه بمكتبتي وأخرى بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب بدار الكتب الوطنيّة ، رقم 181110) .

- المطبوعات

الأزهري (محمد البشير ظافر)

- اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ، القاهرة ، 1325هـ .

الإمام (رشاد)

- سياسة حمّودة باشا في تونس (1782 - 1814) ، تونس ، 1980 .

أنجلز (فردريك)

- حرب الفلاّحين في ألمانيا ، تعريب محمد أبو خضّور ، دمشق ، دون تاريخ .

البشروش (توفيق)

- القوميّة القطريّة في تونس قبيل الحماية ، في الذاتية العربية بين الوحدة والتّنوّع ، تونس ، 1979 .

بيل (ألفريد)
ـ تاريخ الفرق الاسلاميّة في الشمال الإفريقي ، تعريب عبد الرحمان بدوي ، بنغازي ، 1969 .

التّميمي (عبد الجليل)
ـ الخلفيّة الدينيّة للصّراع الاسباني العثماني ، في المجلّة التاريخية المغربيّة ، عدد 10 و11 ، تونس ، جانفي 1978 .

جوليان (شارل اندري)
ـ تاريخ إفريقيا الشّمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، تونس ، 1969 .

ابن خلدون
ـ مقدّمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ط ثانية ، القاهرة ، 1967 .

ابن أبي دينار
ـ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تونس ، 1967 .

السّراج (الوزير)
ـ الحلل السندسيّة ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ، 1970 .

الشابّي (علي)
ـ العارف بالله أحمد بن مخلوف الشّابّي وفلسفته الصّوفيّة ، تونس ، 1979 .
ـ العلاقات بين الشابيّة والأتراك العثمانيّين في المجلّة التاريخيّة المغربيّة عدد 17 و18 ، تونس ، جانفي ، 1980 .

شاطر (خليفة)
ـ بروز الهويّة القوميّة في تونس ، في الذّاتيّة العربيّة بين الوحدة والتنوّع تونس ، 1979 .

الشّريف (محمد الهادي)
– تاريخ تونس ، تعريب محمد الشاوش ومحمد بوعجينة ، تونس ، 1980 .

ابن أبي الضياف (أحمد)
– إتحاف أهل الزّمان ، تونس ، 1963 .

ابن عبد السّلام (أحمد)
– الوطنيّة في التواريخ التونسيّة بين القرنين 17 و19 ، في الذاتيّة العربيّة بين الوحدة والتّنوّع ، تونس ، 1979 .

ابن العماد الحنبلي
– شذرات الذّهب ، القاهرة ، 1951 .

العوامر (إبراهيم بن محمد السّاسي)
– الصّروف في تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ، 1977 .

ابن فرحون (إبراهيم بن علي)
– الدّيباج المذهب ، ط أولى ، مصر ، 1329ه .

الكناني (محمد بن صالح)
– تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ، تحقيق وتعليق محمد العنّابي ، تونس ، 1970 .

المسعودي (الباجي)
– الخلاصة النّقيّة ، ط ثانية ، تونس ، 1323ه .

النّبهاني (يوسف بن إسماعيل)
– جامع كرامات الأولياء ، مصر ، دون تاريخ .

ب ـ الاجنبيــــة

L'AFRICAIN (Léon :

- Description de l'Afrique, trad. A .Epaulard, Paris (VI) 1956.

AL-ADOINI :

- Kitab Al-Adoini, trad. L. Feraud, in, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, Constantine, 1869.

BACHROUCH (Taoufik) :

- Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XII siècle, Tunis, 1977.

BOUALI (Mahmoud) :

- La sédition permanente, (Tome 1), Tunis 1972.
- Le soldat tunisien, trois mille ans de gloire, Tunis 1975.

FERAUD (Louis) :

- Les Harar seigneurs des Hanencha, in, revue africaine - Alger, 1874, 1879.

GUIGA (Tahar) :

- Dorgouth Raïs, Tunis, 1974.

MARMOL :

- Description de l'Afrique, trad. Perrot d'Ablancourt, Paris, 1667.

MONCHICOURT (Charles) :

- Kairouan et les Chabbia, Tunis, 1939.
- Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574, in les cahiers de Tunisie n° 65, 66, et 67, Tunis 1969.

PRIMAUDAIE (Elie) :

- Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en afrique, in, Revue africaine, 1875 - 1877.

فهرس الموضوعات

انتهى طبـع هـذا الكتاب
بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية
جانفـي 1982

عـدد الناشـر : 82 · 30 · 400